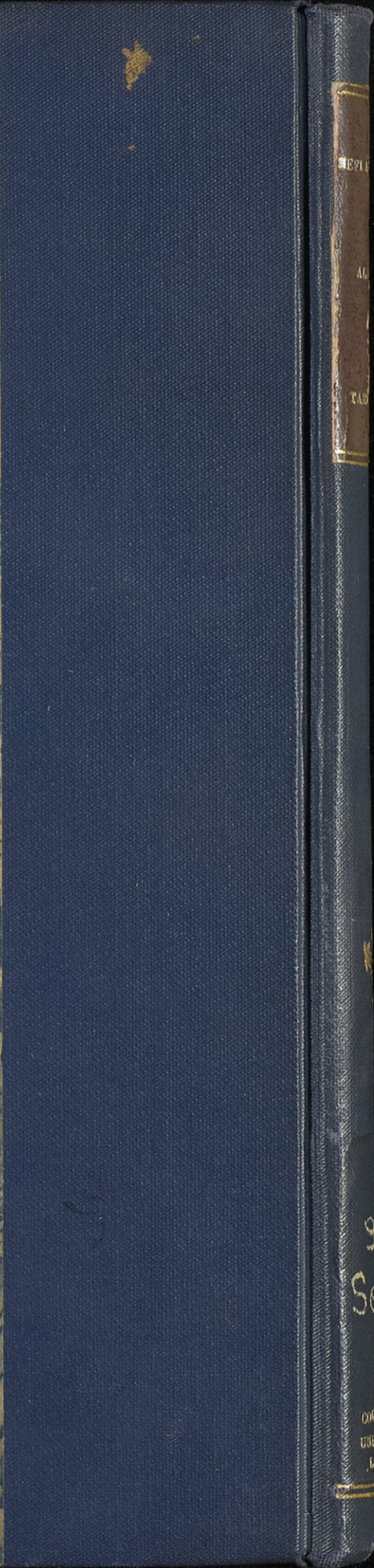




962

Se36

Sefi

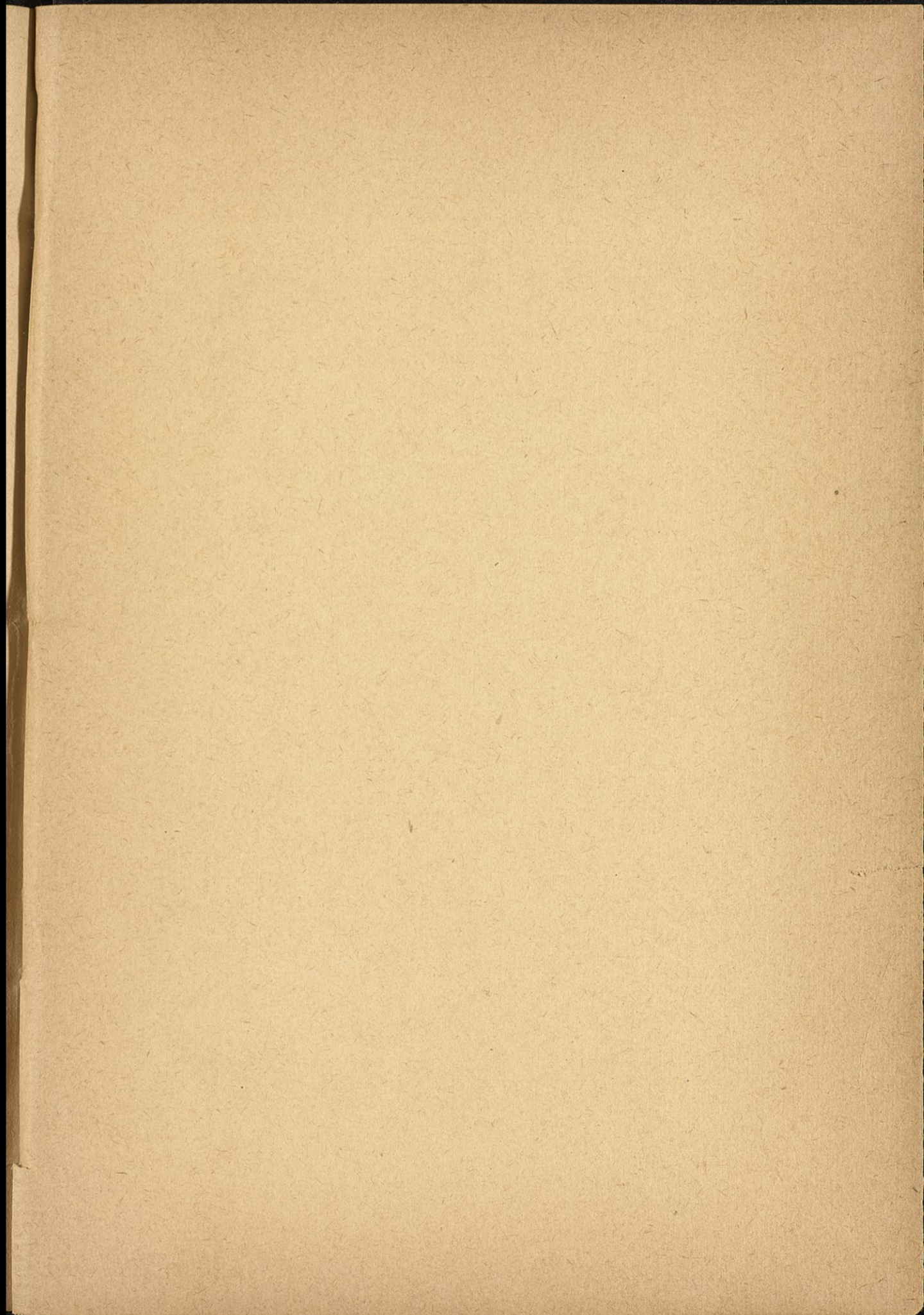
Al-manārat al-Tārīkhīyah fī Misr

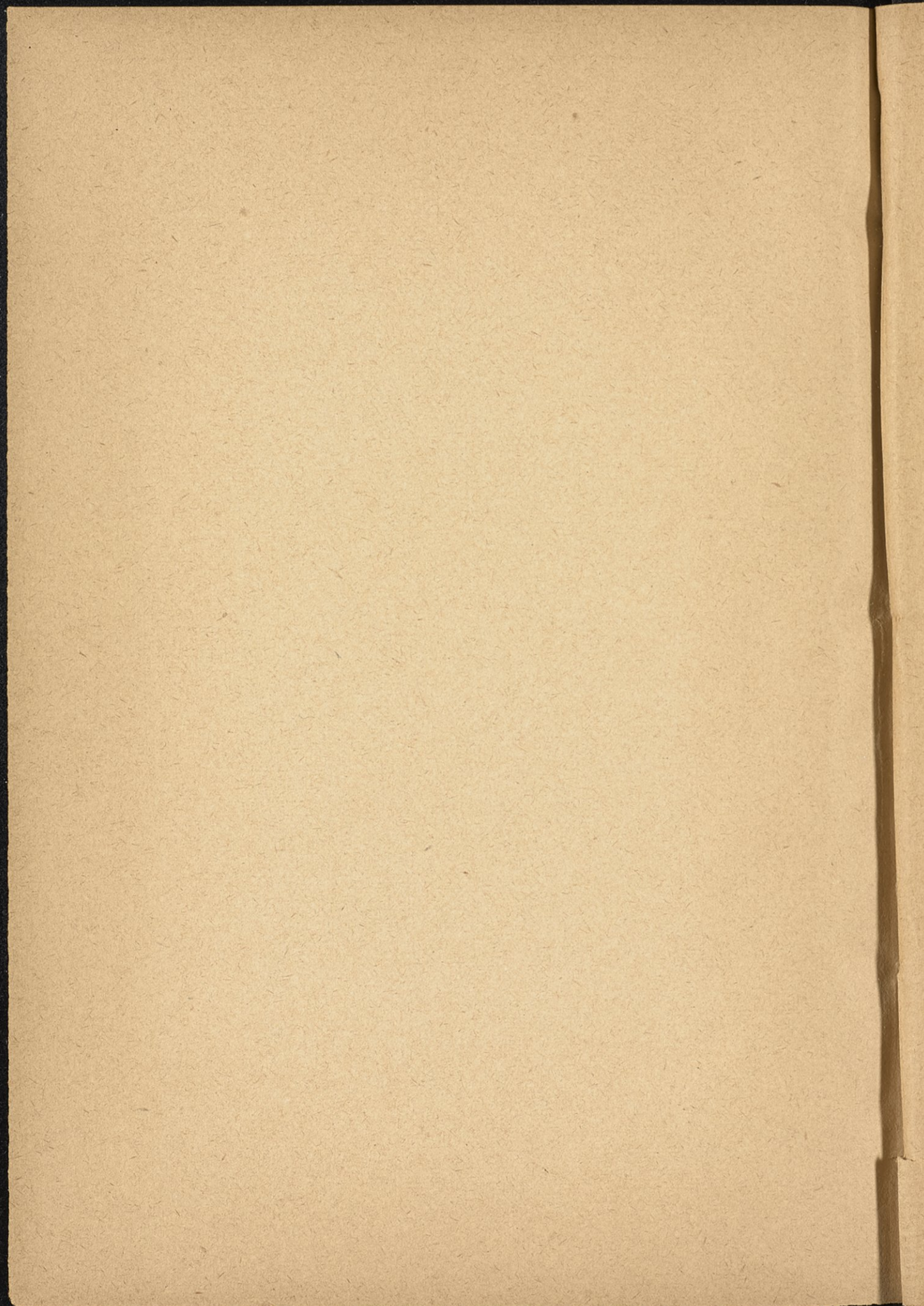
962

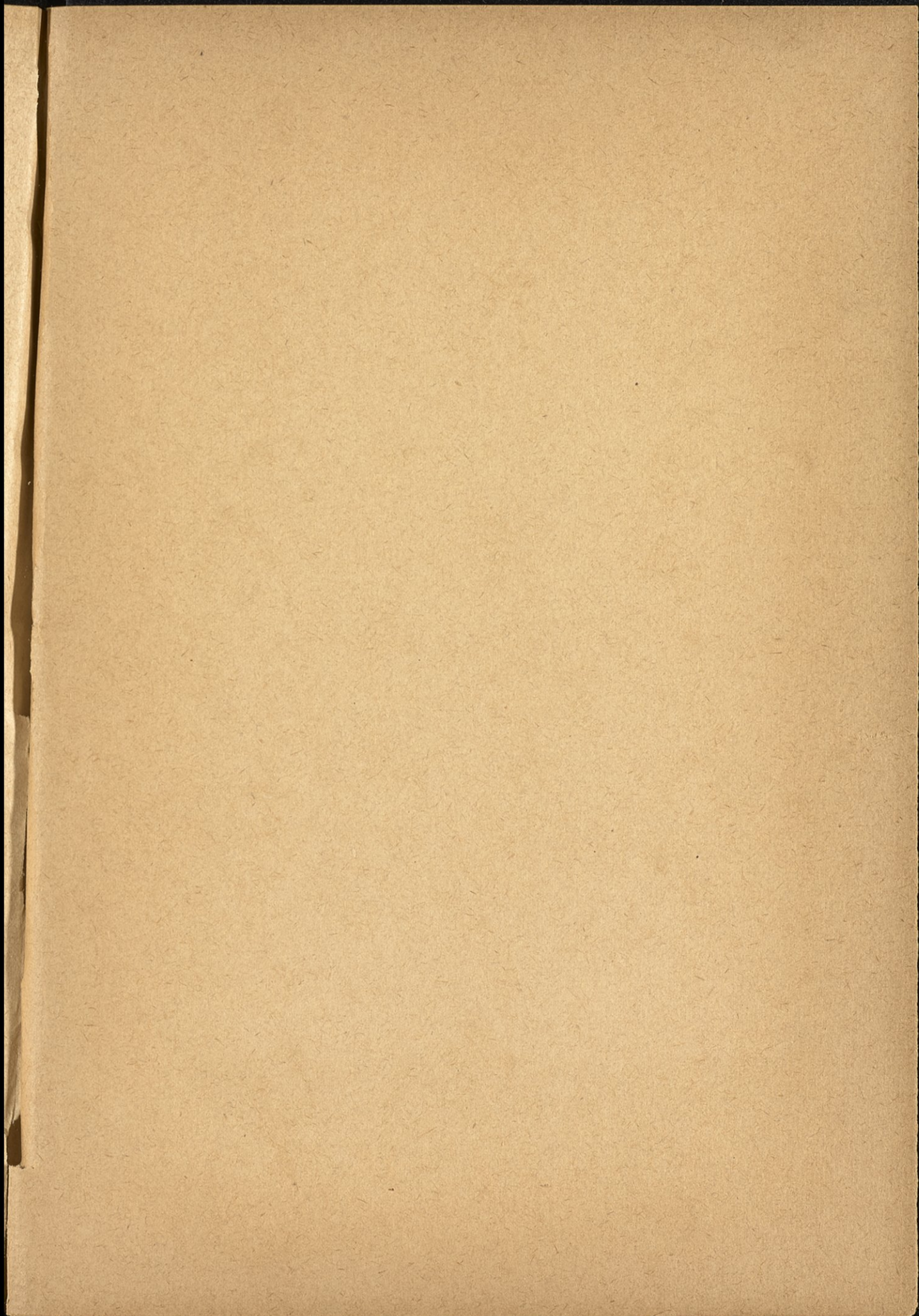
Se36

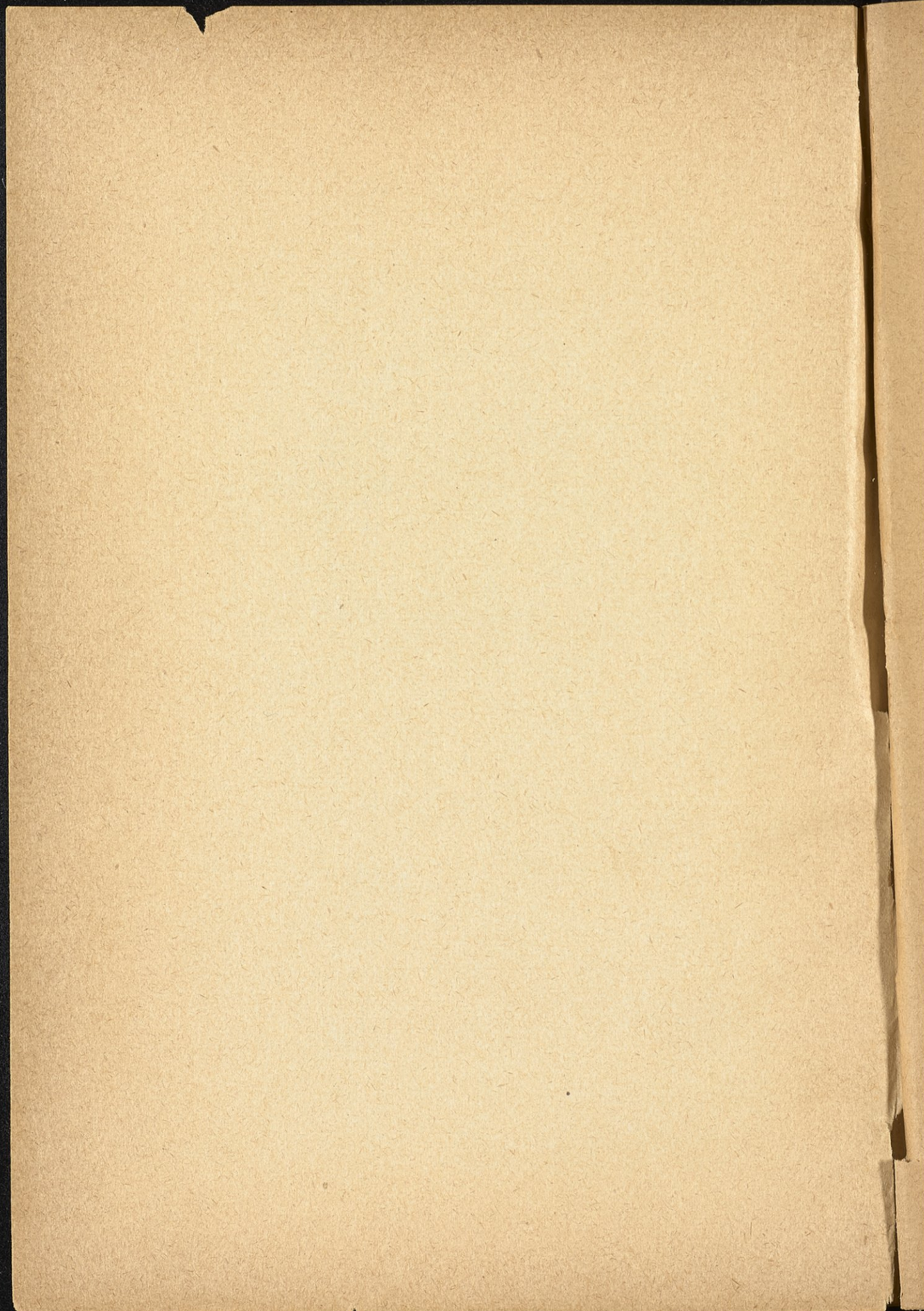
ms 82 70r
JUL 28 1926

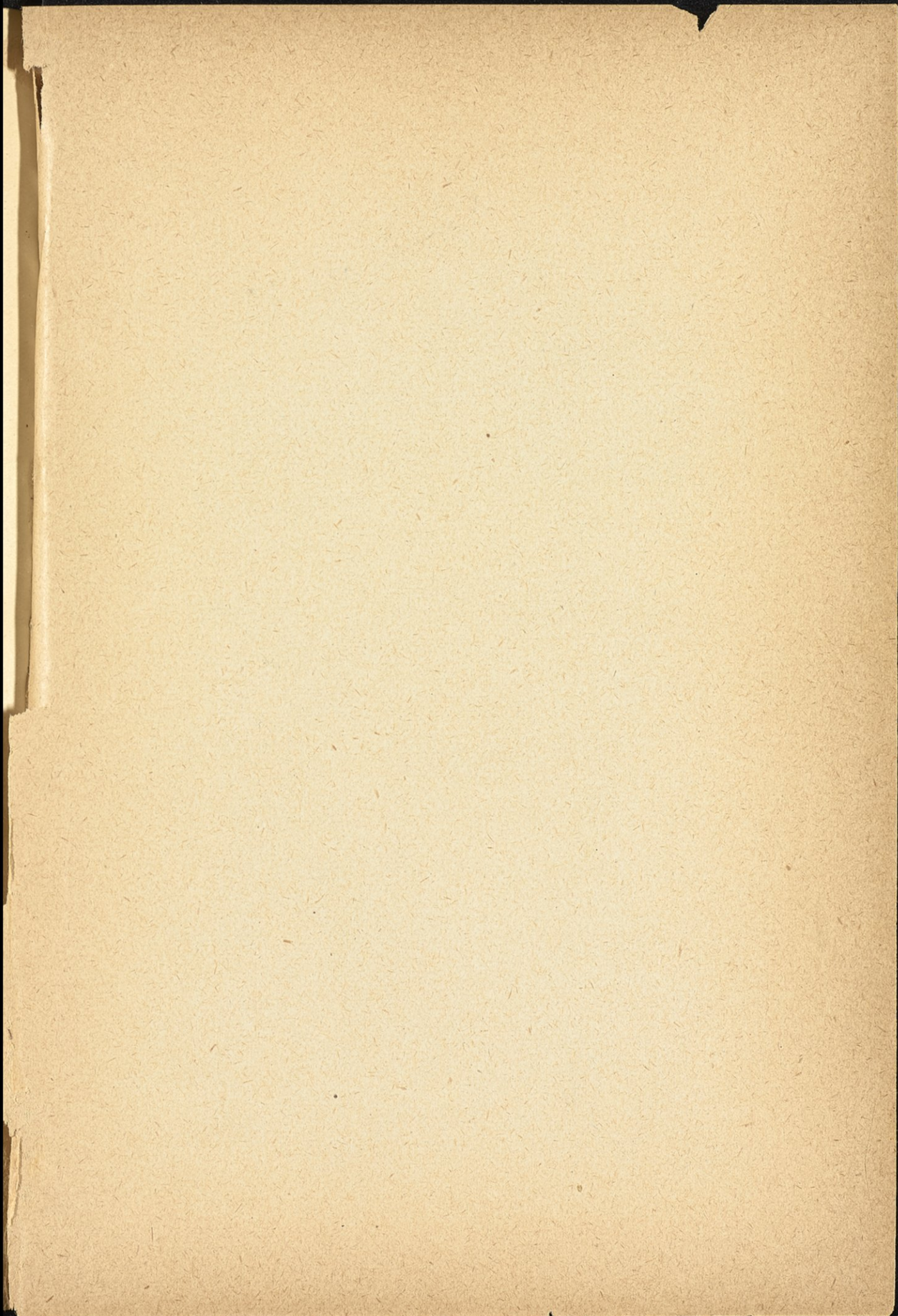












المُنَارَةُ الثَّانِيَّةُ

فِي

مصر الوثنية والمسيحية

اطلب التاريخ الصحيح فتستريح وترى

تأليف

اسكندر صيفي

Alexander Sefi,
London.

المطبعة العصرية

لصاحبها اليانراظوف اليانرا
تبريد ٥٦-٢٠

شارع علوى رقم ٥ بالقاهرة

ELIAS' MODERN PRESS,
ELOUI STREET, CAIRO.

٤١٩

Sefi, Alexander
Al-manārat al-Tārikhiyyah fī
Mīṣr

26-6732

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

All rights reserved



962

Se36

يطلب هذا الكتاب

من ادارة « سفنكس Sphynx » بالقاهرة

في شارع المناخ

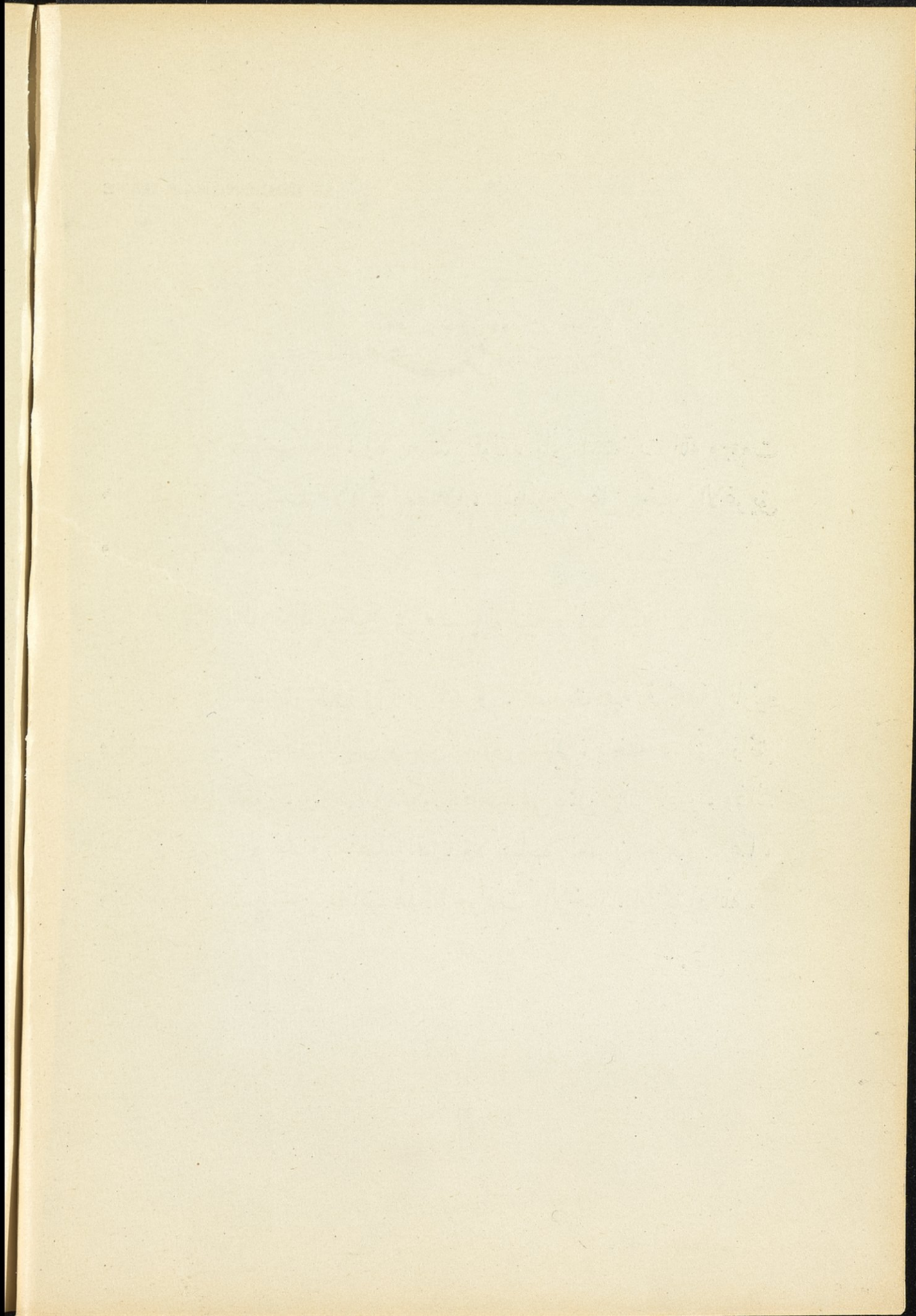
وثمنه عشرون قرشاً

مقدمة

الرائد لا يكذب اهله ، ولا يبرقش قوله ، واني استخرت الله وجمعت
هذا التاريخ من كتب الافرنج الفضلاء ، المطلعين عل اخبار الاغريق
والرومان القدماء وسميته

المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية

بَيَدَ أَنَّهُ السِّيَّارُ الْمَشْرِقُ فِي بَوَارِ الْمَشْرِقِ ، قَصَدَتْ فِيهِ فِكَاةُ قَارِئِهِ
والتعليم ، وتنبيه افكار الشبان وذوي الذوق السليم ، واخلاله قد اتى رائق
الحديث بعيد الغور ، وارجو أن يكون قاضياً على مثل ذاك الدور ، وذاك
الجور ، حتى يرى المشرق زاهياً راقياً ، ولأسباب العمران واعياً داعياً ،
وَأَلَّا يَفُوتَهُ الْاِعْتِبَارُ ، مِنْ عِظَاتِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَالْاِخْبَارِ ، اِنْ شَاءَ اللهُ .



بسم الله

الفصل الاول

سنة ٥١ الى ٣٠ ق م

في قلاو فطرا واخويها ويوليوس قيصر ومارق انطوني

(١) في سنة احدى وخمسين قبل المسيح تُوفي ملك مصر اليوناني بطليموس نيوس ديونيسيوس بالاسكندرية تاركاً وصيةً بالملك بعده لابنته البكر قلاو فطرا ولابنه بطليموس الاكبر على انهما يقتزنان (١) ويحكمان سوياً . وكان قد ارسل صورة هذه الوصية لمجلس الامة في روما لتحفظ في سجلاته لوقت الحاجة وبها يقسم على الشعب الروماني بالاقسام الغليظة باهتمام وبالمعاهدات الودية التي بينه وبينهم ألا يخالفوها ويعهد اليهم بكفالة ولده حتى يبلغ اشدّه فعند موته اقام المجلس وصياً على الملك القاصر پومبي صديق والده وفي السنة الثالثة من ملك قلاو فطرا واخيها ارسلت الاسكندرية ستين مركبا حربياً

(١) كالعادة عند ملوك مصر الاقدمين لا سيما بين ابناء العيلات منذ

سنة ٢٥٠٠ ق م

لا سعاد يوميبي ضد خصمه يوليوس قيصر ، وبينما الحوادث تشغله
كان الخصي^١ پوتينوس مربّي الصبي هو الوصي فعلاً فاستأثر
برأيه واعلن الملك باسم الصبي^٢ وحده خلافاً للوصية

(٢) فانكرت قلاو فطرا فعله وهربت منه الى سورية وهناك جمعت لها
جيشاً وزحفت به الى حدود مصر تطلب حقها من الملك بالسيف .
واذ كانت جنود مصر واقفة في بلوزيوم^(١) لمقاومتها وصل الى
الاسكندرية يوميبي مذعوراً من وجه قيصر المنتصر عليه في
فرساليا^(٢) يطمع باستقبال حسنٍ ومروءة من مملكة ابن صديقه
غير مدركٍ درجة مكر اليونان الذين لما رأوا ضعفه وخذلانه وقوة
خصمه اجمعوا رأيهم على الغدر به فارسلوا القائد اخلاّس والقائد
لوقيوس سبتيموس لاستقباله على المرفأ بظاهر الحفاوة والمودة
ولما وصلوا به الى البر قتلوه . وعلى قول تيودوتوس اليوناني من
جزيرة خيوس استاذ الملك الصغير « لا خوف عليهم من عضّة
الميت » . وكان يوميبي ذاك الشهم الخطير الذي تقلد رئاسة
مجلس روما ثلاث مرار وله اليد البيضاء امام والد ملكهم القاصر !

(١) امنع حصون مصر قديماً على ميلين من ضفة النيل الشرقية
جهة سورية

(٢) هي تساليا الحديثه

(٣) وبعد قليل وصل ايضاً قيصر للاسكندرية ، وفيها بلغه ما أراحه من ثقل جرم قتل حمه پومي . وكان مامعه من الجنود لايزيد عن ثلاثة الاف ومايتي راجل وثمانماية فارس لكنه بصفته كرئيس مجلس روما واستناداً على مابقي من قواته في اسيا لم يحجم عن اصدار امره للعمل بوصية ديونيسيوس . فالملك اظهر الطاعة وبامر فيصر بعث رسولين الى اخلاّس بالآ يتحرك بالجنود التي معه في پلوزيوم . لكن مربيّه پوتينوس اسرّ الغدر بقيصر ايضاً فارسل من قتل رسل الملك بالطريق بينما رسله تجد بالوصول الى اخلاّس لتطلبه مع رجاله للاسكندرية باسرع مايمكن

(٤) وكان قيصر قد ازعج پوتينوس بالحاحه عليه لوفاء دين جسيم كان له على الملك السالف . وتظلم پوتينوس للناس من طلبه واحقدهم عليه لا بل انه امر بازالة اواني الذهب والفضة من مائدة قيصر وابدالها باواني الخزف والخشب واخبره بان تلك قد صبت نقوداً لوفاء دينه ، وقدم لجنوده سُفالة الاطعمة وامتنّ بها عليهم كغير مندوبين لبلاده

(٥) اما قلاوفطرا فكانت لم تزل ضاربة خيامها بالقرب من پلوزيوم تنتظر نتيجة اوامر قيصر . ثم انها احتالت لمواجهته واثقة بقوة جماها لاستمالتة لنحوها ، فركبت البحر خفية ودبرت وقت وصولها للاسكندرية ليكون ليلاً ، وبوصولها اليها نزلت بمركب

صغير مع صديق لها يدعى ابولودوروس الصيقلّي . واذا رأت دخولها للقصر الملوكي علانية مستحيلاً ، طلبت الى رفيقها ان يلقها ببساط ويلقيها على باب القصر كبضاعة برسم قيصر ففعل ونجحت حيلتها ووجدت نفسها واقفة امام قيصر ، لكنها بينما كانت قد جاءت سائلة اذا بها مالكة قلبه وصاحبة الامر على المملكة باسرها

(٦) وبهذا الاثناء وصل اخلاّس بجنوده لاسكندرية ، ولم يكن لدى قيصر سوى الجنود التي اتى بها وكان الشعب حاقداً عليه . فلما رأى ضعفه عن الخروج لاخلّاس عمد الى الامتناع بالقصر فتحصّن وحبس عنده الملك واخاه الاصغر واختهما ارسينويه (اي القمر) وپوتينوس . وكان القصر بالنقطة المسماة بروخيوم على الشاطئ وله سور منيع لجهة المدينة والطرق منها اليه ضيقة لا تسمح للعدو ان يقتحمها بعدد كبير من الرجال ، ومع ذلك فان قيصر رأى استلزامه لعدد اوفر على البر ، فامر جنوده التي كانت باقية بالمراكب ان تحرق بعضها وتأتيه للبر . فلما اشتعلت المراكب التي امر بحرقها طار شرارها الى مخازن الرصيف فاتقدت وامتدت النار منها الى الموزيوم فاحرقته وابدت مكتبته الشهيرة مع السبع مائة الف كتاب التي كانت فيها وبها وبعلمائها ازدان ملك البطالسة وذريتهم حتى في اخر الزمان وتسلط الجهل على المملكة وبها كانت

الاسكندرية محط رجال رجال العلم بعد اثينا . ولولا ان قيصر يلاقى
فرجاً من اعدائه ولو بهلاك هذه المكتبة لكان ولا شك ترك
لنا بتاريخه عن حروبه تأبيناً لا ثقاً بها . فكاننا حال الجريض
دون القريض

(٧) ثم ان ارسينويه هربت من القصر الى اخلاس . فدقق قيصر
المراقبة حينئذ على من معه ، واكتشف على دسائس من پوتينوس
بها يطمع اخلاس بقلّة المؤنة بالقصر ويستنهض عزمه فقتله

(٨) ولبت اخلاس محاصراً قيصر فحفر خندقاً بجانب القصر لينع
من فيه من الخروج ، وسلاح العبيد وسخر الاغنياء ، وبلصهم لكن
اذ ارسينويه عارضته ببعض تصرفاته ولم يصغ لسلامها ، عملت
على قتله واستبدت بالسلطة فاقامت خصيها غانميدس قائداً على
العسكر وكانت هي بنفسها تخرج للجنود وتشجعهم على القتال
وسنها لا يتجاوز الثانية عشرة . واذ كان شرب الاسكندرية من
صهاريج يأتيا ماء النيل بأنابيب من التربة ، حوّل غانميدس ماء
البحر المالح لتلك التربة ، فلما اشعر رجال القصر بتغيير طعم ماء
صهريجهم هاجوا قلقاً لئلا يموتوا عطشاً . لكن قيصر عرف السبب
فأمرهم بالحفر بالارض ، وبليلة واحدة وجد ماء عذباً يكاد يكفي
البلد كله خلافاً لزعم الجمهور لذاك الزمان بان ارض الاسكندرية
ليس تحتها ماء يشرب

(٩) ثم ان غانيميدس فكر فيما يصنع لهلاك المراكب الرومانية وهولا مواني له يحاربهم بها . فاستدعى كل المراكب التي كانت عنده لمراقبة الكمارك بالنيل واصلاح العتيق من مراكبه البحرية واخذ اخشاب البيوت لعمل المقاذيف وبعدة قصيرة جهز سبعة وعشرين مركباً حربياً ومراكب غيرها صغيرة كلها بكمال وقام مراكب قيصر ما خلا الزينة . وكان ماسك الدفة بمراكب الاسكندرية يقف تحت خيمة بشكل الخوذة (التي اسمها بالانكليزي هلمت) فصار فيما بعد هلم اسماً للدفة بلغة الانكليز . اما قيصر فلم يكن باق عنده من مراكبه الحربية سوى خمسة عشر مركباً مع بعض مراكب صغيرة ، لكنه اذ كان واثقاً بمحنة وشجاعة نوتيته الرودوسيين امرهم بالخروج الى العدو المحيط بهم وراء جزيرة المنارة ، ورغماً عن ان ضيق المخرج كان لا يسمح لهم بالخروج باكثر من اربعة مراكب بالدفة يمكن للعدو كلما برزت ان يحوط بها ويحطمها ، خرجوا اليه وكانوا كلما تصدّى لهم مركب من مراكبه يديرون له رأس مركبهم المحدد الى انهم بظل مراكبهم الاربعة الاولى تمكنوا من اخراج مراكبهم كلها من المرفأ واستعر القتال بين الفريقين حتى احمر وجه البحر من الدماء . وكانت ترى سطوح الاسكندرية والجزيرة غاصة بالمتفرجين وصراخهم ميلاً الجو تحريضاً لرجالهم على القتال . اما نوتية قيصر فكان لا حاجة

(١٠) فلتلاني مثل هذا الخطر ثانية، عزم قيصر على الاستيلاء على

(١١) ثم حصلت مهادنة بينهم لأن المصريين كانوا قد بدأوا يشكون

(١٢) وكان قيصر يَنْظُرُ أَنْ تَأْتِيَهُ مراكب سورية بـذخيرة فوضع

بطليموس مراكبته على مصب النيل جنوبي الاسكندرية وسد
عليها الطريق

(١٣) انما متريد اتس البرغامي كان زاحفًا برًّا بجنود سورية لاسعاف قيصر، وبوصوله الى بلوزيوم فتحها ثم مشى الى منف (١) عازمًا أن يقطع النيل بالقرب من هليوبوليس فقام اليهود هناك يعارضونه لكنه لما اطاعهم على الرسائل التي معه لهم من اخوانهم في اورشليم أنسوا به . ثم لحق به انطيباطر بثلاثة آلاف مقاتل من اليهود ، وقيصر ومن معه من الجنود أتوه مقلعين بمراكبهم فحشد لهم بطليموس قواته وكان القتال بينهم أولاً سجلاً الى ان كسروه فالتجأت رجاله لمراكبها وازدحم مركبه الخاص فغطس به وبمن معه وهلكوا بأجمعهم

(١٤) فعاد قيصر حينئذ بجنوده للاسكندرية ، ولما وصلها خرج اهله لاستقباله وامامهم الاصنام يطلبون الأمان ، فأمنهم ودخل المدينة وأول اوامره كان أن يعمل بوصية ديونيسيوس ولما كان الابن الاكبر قد مات أمر ان يكون أخوه بطليموس الاصغر عوضاً عنه بالملك مع قلاوفطرا ، وكانت قلاوفطرا قد ولدت لقيصر ابناً سماه قيصرون (٢) ورغماً عن ولعه بها لم يرَ بدًّا من رجوعه لروما

(١) — عاصمة مصر القديمة على اثني عشر ميلاً جنوبي القاهرة وليس لها اثر الان . اما هليوبوليس مدينة الشمس المصرية فهي «عون» التوراة
(٢) — هكذا كان قانون المملكة لكي لا يسقط حق الملكة من ملكها بادخال غريب عنها فيه فكانت تأخذه صاحباً

فتركها تحكم باسمها واسم أخيها الذي صار زوجها الشرعى كمنائبين عنه ، وأجر لروما مع الفيلق السادس الروماني آخذاً معه الأميرة ارسينويه اسيرة . فلما وصل اليها علم بأن مجلس الامة فيها قد سمّاه اوتوقراطاً من ستة اشهر وكان مارق انطوني رئيس اصطبله النائب عنه في تلك المدة

(١٥) ودخل روما قائداً الاميرة ارسينويه موثوقةً بالاغلال وراء مركبته . وكان بموكبه مركبة فوقها صنم آله النيل واخرى تحمل تمثال منارة الاسكندرية ووراءها زرافة لم تكن الرومان عرفت شكلها من قبل . ثم بعد قليل وفدت عليه زائرة الملكة قلاو فطرا مع زوجها الشرعى وعمره اثنتا عشرة سنة وكانا نزيلي داره مدةً من الزمان (١٦) ولما كانت السنة الخامسة من دخوله الاسكندرية واذا قلاو فطرا نزيلة داره انتقض عليه الرومان لزعمهم أنه قد استبدّ فيهم ، وقتلوه . فتحيّرت قلاو فطرا في امرها وظنت أنها تستميل الرومان اذا عرضت على مجلس الامة اقامة ولدها قيصرين شريكاً لها بالملك . فالتجأت الى قيصر ليعضدها لكنه كان يبغضها لتجبرها فرفض طلبها وهديّة كانت قد ارسلتها اليه ، فلما انكرها وجلت وهربت راجعةً لمصر

(١٧) فمن هذا الوقت ضيّعت مصر استقلالها وأمست قلاو فطرا في خطر من الرومان ان لم يكن لها زبون منهم فحوّلت انظارها

اولاً (وقيل اكثر من ذلك) نحو سكستوس پومپيوس الذي كان على رأس اسطول روماني عظيم ويده صقليا ويطمع برئاسة روما ، لكن اوقتاويانوس بعد قليل انتصر عليه ولاشي قواته فلم يفدها شيئاً

(١٨) وكان قيصر قد ترك في مصر جيشاً رومانياً وافراً لحراسة الملكة

ظاهراً ، لكن حقيقة لحفظ السلطة الرومانية . فكان هذا الجيش

لا شغل ولا عمل له الا البطر والفساد وكان شرّ قدوة للجمهور

(١٩) أما قلاوفطرا فريثاً كان اخوها ولدأ قاصراً لم تبال ان يكون

شريكاً لها بالملك ، لكنه اذ بلغ اشدّه قتلتها واخذت ابنها

قيصرون شريكاً لها

(٢٠) وبوجه الاجمال فان هذا الزمان كان زمان فسق وفجور واسراف

وفتن في مصر ، فلا نجد فيه شيئاً من نتائج العقل والعلم ، الا ان

الرياضيات كان اهمالها اقل تأثيراً من اهمال الشعر والفلسفة . فان

سوزيجينوس كان اول علماء الفلك في ذاك الزمان في مصر

وبمساعده اصلح يوليوس قيصر تقويم السنة المنسوب اليه وهو

الذي بعد تحديده ايام السنة من ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع

يوم بدّل رأس السنة ثلاث مرار لارتياحه بيوم الاعتدال ، وذلك

لأن المراقبة اللازمة كانت في ايامه محصورة بيومين من السنة

اذ تمرّ الشمس بخط الاستواء

(٢١) ومن علماء الحساب والهندسة في ذلك الزمان كان الرياضي فوتينوس وديديموس بالفقه ، وديسقوريدس بالطب ، ولهذا كتاب نفيس بخصائص الحشائش والاعشاب والمعادن للطب ، وبالسموم وعلاجاتها تداولته الناس اجيالاً عديدة الى ان اضعفت الاكتشافات الحديثة رأيه . واشتهر ايضاً بهذا الزمان الجراحى سيرا بيون . قيل عن تجربة لا عن علم

(٢٢) وبهذا الزمان كان بناء المعبد الصغير في هرمونتس بالقرب من ثيبه للآلهة مندو او الشمس على اسم قلاو فطرا وابنها قيصر ون ، وبالقرب منه حوض ماء للزوم الفرائض الدينية . وهذا المعبد يختلف عن المعابد القديمة بضعفه عنها . وهو الوحيد في ثيبه للاله مندو . مع انها كانت تعرف هذا الاله من عهد رمسيس الثاني لكنه اصلاً من الهة الاريايف وانما أتى زمان عبدته فيه ثيبه بدلاً من « عمون را » . ثم رجعت لعبادة هذا الى ان شيد بذلك الزمان المعبد الصغير لمندو الذي سنراه بالعهد التالي قد صار من آلهة النوبة

(٢٣) اما موت قيصر فلم يكسب الرومان شيئاً من الحرية المندوبة والراحة المرغوبة ، لا بل انه زاد بالنزاع فيما بينهم وبيلايا الفتن الداخلية . ثم تغلب حزب قيصر على غيره من الاحزاب بعزم

اوقتاويانوس ابنه الشرعى وصديقه مارق انطوني . وعادت السلطة
لهذه الفئة ونيرها أحكم ربطاً من نير قيصر وأعظم وقراً
(٢٤) لا يظهر لنا جلياً كيف كانت أميال قلاوفطرا لدى النزاع بين
مارق انطوني وحزب قاتلي قيصر ، وربما انها كانت تنتظر لترى
من الأقوى لتميل اليه فان اليانوس كان قد أتاها من قبل
دولوبلاً يسألها أن تبعث ما يمكنها من الجنود لمساعدة انطوني
في سورية ، فأعطته أربع فرق من جنودها الرومانية . لكنه
بوصوله لسورية انحاز لقاسيوس خصم انطوني . فهل كان هذا منه
غدرًا بقلاوفطرا أم بتواطئٍ منها ، لا نعلم ؛ انما المعروف هو ان
قاسيوس كان يشكر لاليانوس اكثر من شكره لها . ثم لما سيرايمون
والي قبرس حشد ايضاً لما كان يظنه الحزب الأقوى وبعث
مراكبه لخدمة قاسيوس كانت قلاوفطرا تجهز عمارة كبيرة . لكن
بما ان قبل خروج هذه العمارة كانت الحرب قد انجلت عن
انتصار انطوني وقتل بروتوس وقاسيوس قالت أنها انما كانت
تجهزها لمساعدة اوقتاويانوس وانطوني فأرسل انطوني يطلبها
لمواجهته في طرسوس لتبرهن له ذلك

(٢٥) فالرسول اليها ديليوس لاقى منها اكراماً وحفاوة فلاطفها وأزال
روعها مشيراً عليها أن تتمكل على جمالها فجهزت مراكبها وشحنتها
بالهدايا النفيسة واقلعت لطرسوس واثقة بالغلبة على قلب قاضيها كما

غلبت على قلب قيصر من قبل وهي أحدث سنًا وأقل حنكة
 فدخلت مراكبها نهر قدس الذي نسميه العاصي برونق باهر جداً
 فكان مركبها محلياً مؤخره بالذهب وشراعه من القماش الأحمر
 ومقازيفه من الفضة تتحرك على نغمات الأوتار وهي لابسة ثوباً
 شفافاً ومتمكئة على وسادة من الحرير يظلها سراق من الديباج
 وحوها غلمان كالأقمار يروحون لها بالمراوح وأماها الفتيات لباسات
 ما خفّ وشفّ يمسكن حبال الحرير المتصلة بالشرع والدفة واذ
 دنت من البر حمل النسيم روائح مجامرها العطرة لاهالي طرسوس
 الذين كان الشاطيء غاصاً بهم وانطوني جالساً بينهم على اريكةٍ
 لاستقبالها .

يا سالكا بين الأسنة والظبي . اني اشم عليك رائحة الدم !

(٢٦) وطرسوس على نهر العاصي طرف احراش سفح جبل طوروس
 الفاصل بينها وبين قبائل افريجيا والفينيقيين كان نصفها من اليونان
 والنصف الآخر من السوريين وكان لها شهرة عظيمة ببناء المراكب
 والتجارة نظراً لحسن موقعها وخشب احراشها فكان تجارها اصحاب
 غنى واسع واداب ولهم فيها القصور الشائقة والمدارس للفنون والعلوم
 اليونانية وكان يخرج منها علماء مفلقون عرفت روما منهم اكثر مما
 عرفت من علماء الاسكندرية واثينا لأن المراكب كانت كثيرة

عندهم تحملهم أينما شاءوا فأثينو دوروس قوريليون كان منهم أتى
روما وصار استاذاً لقاتو وأثينو دوروس بن صندون مثله صار استاذاً
لقيصر ونستور صار استاذاً لمرقلوس ومنهم كان ديميتريوس اول عالم
نزل شطوط بريطانيا وبعد جيل من زمان هؤلاء الرجال خرج من
مدارسها ابولونيوس الوثني المدعي بالمعجزات واخيراً بولس الرسول
فالفرق بين مبديء هؤلاء الرجال وما شاهدته طرسوس من اطوار
قلاوفطرا كان عظيماً جداً

(٢٧) ولما نزلت قلاوفطرا للبرّ وسلّمت على انطوني دعتة واركان
حربه لوليمة كانت قصاعها من الذهب المحلى بالحجارة الكريمة
والسرايق واثنى عشرة وسادة فيه كانت كلها من الديباج الفاخر
واذ اظهر انتوني اعجابه من مثل هذا الغنى اهدته الاواني كلها ثم
دعتة باليوم التالي وارته من الغنى والزينة اعظم مما رآه بالأمس
وبعد الغداء اهدته ايضاً ما كان على المائدة من اواني الذهب
واهدت اصحابه الوسادات التي جلسوا عليها

(٢٨) وظلّت تولمه اياماً متوالية على هذا النمط حتى انه لامها على هذا
الاسراف فقالت له انتظر غداً لماً اولمك وليمة قيمتها عشرة الاف
ستستريا اي ستون الف ليرة انكليزية من عملتنا الدارجة الآن
فأجابها بأنه يستحيل عليها انفاق مبلغ كهذا على وليمة فلما كان الغد
أولمته كالعادة أو أحسن الا انه لم يرَ ما يعتبره خارقاً فقال لها أرينا

تقوميك لهذه الوليمة لنعرف الحقيقة عن كلفتها التي زعمت بالأمس
 انك ستنفقنيها وكان باذنيها لؤلؤتان ثمان عشرة الف سيستريا
 فدعت بقدر من الخل والقت فيه احداها وشربتها وكادت تفعل
 كذلك بالثانية لولا ان القائد بلانكوس يمسك بيدها ويصدها
 ويحكم بأنها صدقتهم وبقيت تلك الدرّة الى ان قُطعت نصفين في
 مستقبل الايام صيغا قرطين لصنم وينوس بالبانطيون في روما
 ولشهرتهما بما كان من قصتهما صارا يثمان بقيمة الدرّتين
 الصحيحتين

(٢٩) فكذا لطف وذكا، وكذا جمال وصبا أخذن على عقل الشاب
 وقلبه فراح صريع الغرام. وبينما كان يقصد محبتها وجد نفسه
 محكوماً عليه ومقيداً بسلاسل لا انفصام لها لدرجة أنه امتثالاً
 لارادتها سمح بمخنق شقيقتها أرسينويه في معبد ديانا بأفسس بعد
 عفوه عنها ظناً منه بأنه يراعي بذلك احساسات قلاو فطرا. ومن
 بعض كمالات هذه الملكة العقلية كان اتقانها لاكثر لغات
 الشرق والغرب

(٣٠) تلك كانت حالة انطوني بينما كانت زوجته فولويه تهتم بتقوية
 حزبه في روما ضد مطامع أوقتاويانوس وبينما خصمه الآخر
 لابيائوس يهدده بجنود بحر الخزر حتى انه رافق قلاو فطرا
 للاسكندرية وسكن معها غير فائق من سكرته بهواها وهي

تؤانسه وتمسح قدميه بالعطر (كالذي أهرق على رأس السيد المسيح فيما بعد) وكان الرطل المصري منه يباع بأربعمائة دينار في مقام من الجبسين من عمل بلد الأَّبسترون في الجهة الشرقية من النيل (١) ومن اسم هذا البلد أخذ الافرنج اسم الأَّبستر وكان يُتاجر بهذا العطر من مصر الى دجلة

(٣١) وفي السنتين العاشرة والحادية عشرة من ملك قلاو فطرا لم يتم وفاء النيل فأقحطت مصر وحصلت مجاعة فيها ومن أثر ذلك ما وجد مكتوباً من تشكرات كهنة ثيبة (٢) لقالياخوس جابي الخراج لرفقه بالناس في تلك الأيام وبسبب نقص الوارد من الحبوب المعينة لفقراء الاسكندرية حُرِم اليهود منها فكان ذلك خرقاً لمساواتهم الشرعية باليونان وابتداءً عداوة طويلة بين الفريقين لا سيما وان اليونان كانوا ينظرون الى كل شرقي كبربري ورقيق واليهود لا يرون كفواً لهم بالدنيا سوى العرب

(٣٢) ولما كان كل استناد قلاو فطرا على جيش الرومان كان كل اهتمامها بمرضاة انطوني فولدت له ابناً سمته بطليموس وتوأمين ممتهما اسكندر هاليوس أي الشمس وقلاو فطرا سيلينه أي القمر وكانت نديمته بالشرب وشريكته بالقمار ورفيقتة بالقنص والصيد

(١) على خط طرف جبل سينا

(٢) عاصمة الصعيد قديماً على جنبي النيل تجام راس المرج الكبير وهي الان الاقصر

واستعراض الجيش حتى اذا قام بالليل يتجسس كانت تصحبه بزي
غلام كي لا تترك له وقتاً الا ويراها بجانبه
وكنتم اذا ارسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أسامتك المحاجر

(٣٣) ثم أتاه ابنه الاكبر من فولوية زائراً وأقام معه مدةً بهناء ورغد
عيش واذا هم لاهون آمنون وأنطوني يرى الدنيا طوع يديه
وفدت عليه الكتب من روما تخبره بأن أوقتاويانوس قد نفى
زوجته فولوية وأخاه من روما واستبدَّ بالحكم فهرول راجعاً اليها
لكنه لم يصل الا بعد أن كانت زوجته قد توفيت فتزوج أوقتاويا
أخت أوقتاويانوس أرملة مرقلوس لغاية سياسية ظنها تفيد حزبه
(٣٤) وفي تلك السنة أي ٣٩ ق. م أتى هيرود بن أنطياطرمصر
قاصداً روما ليطلب اليهودية مملكة له فاستقبلته قلاو فطرا
بالاكرام وتلطفت اليه ليبقى عندها أميراً على جنودها لكنه اذ
كان يطمع باستقلاله لم يغره عرضها عليه الأمانة فشكرها
واعتذر وأقلع الى روما وهناك ساعده أنطوني على غايته وبواسطته
منحته السناتو كرسي اليهودية فعاد لسورية ليجمع عسكرياً للاستيلاء
على فلسطين ولما نشبت الحرب بين أنطوني وأوقتاويانوس كان
هيرود قد دخل اورشليم بمساعدة سوستوس وكيل انطوني

(٣٥) وبالسنة التالية أتى أنطوني بنفسه لسورية فبعث يطلب قلاوفطرا اليه وبوصولها أهداها ما ربما كان أثمن هدية من عاشق لمعشوقته فانه أقطعها فينيقيا والبقاع وقبرس وقسماً من سيليقيا جانب جبل طوروس وقسماً من اليهودية ومن النبطية فلم يزد لها ذلك الا طمعاً فانها طلبت منه أيضاً رأس هيرود ورأس مالك ملك النبط لأن الأول كان قد أشار على أنطوني بقطع علاقاته معها التي كانت سبب الاختلاف بينه وبين أوقتاويانوس ولأن الثاني كان حاقداً عليها . فلم يطاوعها انطوني على طلبها هذا لكنه زاد لها أرض البلسم المحيطة باليهودية ومائتين الف تالنت أي قيمة ثلاثين الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن من خراج اليهودية . ولما رأت نفسها على رأس مملكة عظيمة كهذه أخذت تؤرخ ملكها ثانية من تلك السنة وبعد ان رافقت أنطوني للفرات بزحفه ضد أرمينيا عادت لمصر عن طريق دمشق واليهودية حيث استقبلها هيرود بلباقة اكراماً لأنطوني وضمن لها الخراج الراجع لها من اليهودية ثم مشى بعض فراسخ بوداعها

(٣٦) ومع كل طيش هذه المملكة فانها كانت من ذاك النسل محب العلم وجامع مكتبة الموزيوم التي احترقت بمحاصر قيصر فبطلبها الآن أهداها انطوني مائتين الف كتاب من مكتبة برغاموس^(١)

(١) برغامة من اسيا الصغرى ومن اسمها اشتق الافرنج اسم الرق بلغاتهم « بارشمن » نظرا لشهرة الرق المصنوع فيها بذلك الزمان

وضعتها في معبد سرايس وبها عادت الاسكندرية اول مدينة
بالدنيا بالعلوم حتى باخر الزمان وانحطاط مصر لدرجة ولاية
رومانية لا بل وخمسين سنة بعد ذلك حينما الفيلسوف اليهودي فيلو
اتى الاسكندرية وسأل ابن هم بطالستها فكان لسان حالهم
يجيبه ها هنا في مكتبة السيرايوم

(٣٧) ولنرجع الآن لأنطوني فانه بعد انتصاره على الأرمن عاد
للاسكندرية قائداً ملكهم أرطاوَزْدِس أسيراً وراء مركبته ثم
دعى الناس للجمنازيوم وجلس هناك مع قلاوفطرا على كرسيين
من الذهب واعلن للجمهور اتخاذها ابناً قيصرين شريكاً لها
بالمك وأعطى أولادها الآخرين لقب ملوك أبناء ملوك وأقطع
ابنها اسكندر أرمينيا وميديا والجرجان متى تم فتحها وأقطع
بطليموس ابناً الآخر فينيقيا وسورية وسيليقيا جانب جبل
طوروس وكانت قلاوفطرا لابسة ثوباً كالإلهة ايزيس بصفة
ايزيس الجديدة وألبست ابناً اسكندر جبة وعمامة مجرهرة على
شكل المديانيين وألبست بطليموس جبة طويلة وقلشينا وعراقية
عليها اكليل مجوهر أشبه بتاج خلفاء الاسكندر. وكان أنطوني
لابساً تاجاً ومقلداً سيفاً شرقياً وأهدى بذاك المحفل لقلاوفطرا
كافة التحف التي أصابها من بارثيا أي بلاد الخزرج وأسيره
طغران بن ملكهم

(٣٨) لكنه اذ كان نفوذه بهذا الاثناء قد سقط في روما مالبت قليلا حتى صار يخشى من تغيير قلاوفطرا عليه ويخاف أن تغدر به ورغماً عن ولعه بها صار لا يأكل ولا يشرب عندها ما لم تقاسمه الماء كول والمشروب . فاستاءت من ذلك وهي لم تزل مخصصة له ولتبرهن له صفاء نيتها لنحوه . دعت يوماً للغداء بعد ان اخذت زهوراً كانت تكمل رأسه بها على السماط وغستها بالسم الناقع . ولما جلسا على المائدة رفعت من رأسها زهوراً ورمتها بقدرها كأنها تتأنق برويتها بالقدح وشربت فاقتدى بها انطوني لكنه اذ مال بالقدح الى فيه خطفته منه وأخبرته بأنه مسموم ولو أرادت موته لتركته يشرب ثم أقنعتة بالبرهان بوجود ذاك السم فسكنت روعه وعاد الى ثقته باخلاصها

(٣٩) واول النقود المضروبة بعهد قلاوفطرا كانت ترى عليها صورتها من جهة وصورة نسر ام قرن من الجهة الاخرى واسم الملكة قلاوفطرا . ثم اذ ولدت لأنطوني أولاده ضربت النقود بصورة انطوني فاتح أرمينيا من جهة وصورة الملكة قلاوفطرا أم الملوك أبناء الملوك من الجهة الاخرى ومنها بصورة انطوني امبراطوراً من جهة والاإلهة الفتية بصورة قلاوفطرا من الجهة الاخرى . وربما أن قلاوفطرا كانت آخر ملوك اليونان الموصوفين بألهة على عادة القوم قديماً من وجه التحجب والاكرام وليس من وجه الحقيقة

أو ربما أصلاً بمعنى ان القائم بالامر أميراً كان أو سيداً أو رئيساً هو كاله لمن تحت سلطته بالنيابة عن الآلهة الغير منظورة وهذا فيه نظر لمن تبصر

(٤٠) انما بموت يوليوس قيصر و بعد قليل منه بموت بروتوس وقاسيوس مزاحمي أنطوني على رياسة روما . وجد هذا نفسه الزعيم الاول بين الرومان لكن كثيرين منهم كانوا يكرهون سلوكه في مصر وكان أوقتاويانوس قد ابتداء أن يجعل لنفسه حزباً قوياً ضده فباول الامر لم يؤثر ذلك على مركز أنطوني في روما فضربت نقودها تلك السنة بصورته من جهة وصورة النسر المصري من الجهة الاخرى وسمى المجلس نائباً له صديقه سوزيوس ريثما يحضر لاستلام زمام رياسته فضربت مصر نقودها النحاسية حينئذ مكتوباً عليها من جهة أنطوني قنصل لثالث مرة ومن الاخرى الملكة الالهة الفتية انما قبل سفره منها كان قد تغير رأى المجلس فيه وعُدَّ عدواً لروما لكن اذ لم يرد أوقتاويانوس أن يشهر الحرب ضده أشهره ضد قلاو فطرا أو كما ادعى ضد حاشيتها مفسدي أخلاق أنطوني وهم عبدها مرديون وأمتها ايريس وامرأة من خواصها تدعى خرميون

(٤١) وفي بداية السنة التي كانت ستنتهي بموقعة اقييوم (١) بين أنطوني

(١) راس خليج ارتا من بلاد الإغريق الغربية المسماة بيريا حيث خیر الدين سنة ١٥٣٨ م فاز على عمارات اسبانيا والبندقية والباباوية

واوقتاويانوس كان هذا قد تسلط على ايطاليا والغال واسبانيا
 وقرطاجنه يقود ثمانين الفا من المشاة واثنى عشر الفا من الفرسان وله
 مائتان وخمسون مركبا حربييا بينما انطوني كان الامر في مصر
 والسودان والقيروان ولديه مائة الف من عساكر المشاة واثنى عشر
 الفا من الفرسان وخمسمائة مركب وكانت كل ملوك المشرق من
 انصاره فكانت قلاو فطرا موقنة بالنصر تحلف برأسها انها ستري عن
 قريب جالسة على سرير روما وكان ذلك جائزا لولا ان انطوني
 يأخذها معه لميدان الحرب ويقضي على نفسه وعليها بالفشل والهلاك
 لأنه اذ كان يقاتل اوقتاويانوس بعمارته على شطوط بحر الروم
 بالقرب من اقيوم جاء وقت خاف فيه عليها فهرب بها طائشا عوضا
 عن أن ينضم الى جنوده البرية التي كانت أوفر من جنود اوقتاويانوس
 ويقودها الى النصر

(٤٢) ولما وصل بها الى ليبيا أنزلها هناك وأرسلها برّا للاسكندرية
 وربما أنه كان ينوي الرجوع لموقع الحرب ويفعل ما أشرنا اليه لكنه
 لم يفعل بل أقلع هو أيضا للاسكندرية هاجرا جنوده التي انضمت
 حينئذ الى خصمه وهو اذ وصل للمرفأ اعتزل بنفسه كئيبا مدة
 قصيرة بصومعة هناك ثم خرج منها ودخل المدينة ورجع الى ما كان
 عليه من اللهو والطيش مع محبوبته مهملا أخذاي احتياط من الخطر
 الذي كان يتهدهه برّا وبحرا

(٤٣) هذا مع ان سكان مصر كانوا بذاك الزمان يبلغون زهاء ثلاثة آلاف الف نسمة فكان يمكن أن يخرج منهم ثلثائة الف مقاتل وكانت ثروة الاسكندرية لم تنزل كافية لآعالتهم لكنهم كانوا قد ألفوا الذل كالعير فلا يبالون من يركبهم من الحكام فلم يحركوا ساكناً لنصرته ولما وصل أوقتاويانوس الى بلوزيوم لم يجد سوي حامية ضعيفة كان قائدها سلوقوس الذي سلم له بدون مدافعة ولهج الناس بأنه فعل ذلك بأمر من قلاو فطرا لكنها أنكرته ولتبري نفسها أمام انطوني سلمت له أولاد سلوقوس وزوجته لينتقم منهم ان شاء

(٤٤) ثم وصل اوقتاويانوس لضواحي الاسكندرية ونصب خيامه بعيداً من بابها الشرقي فخرج اليه انطوني برجاله وأزاحه عن مكانه ذاك اليوم الا أنه لما أراد الخروج في اليوم التالي ودعى جنوده فلم تجبه الا شرذمة حفظت ذمته فكرر بها مشعراً بخيانة قواده فلم يطق الوقوف امام عدوه فانهزم هارباً لداخل السور

(٤٥) فاليهود فرحوا من خذلان قلاو فطرا وأظهروا ارتياحهم من فشل حاميتها وصارت هي تلعنهم وتشتهي ذبحهم ولو بيدها وكان انطوني يرى تواتر رسل اوقتاويانوس اليها فاشتبه بصدقها وهي خافت من غضبه فهربت لحصن كانت قد بنته بالقرب من معبد ايزيس آخذة معها كنوزها من ذهب وفضة وعاج وابنوس وكية من القنب كأنها تقصد ان تضرع النار بالمكان وتموت فيه حريقاً بثروتها ثم ارسلت

تخبر انطوني بأنها قد ماتت فلما اتاه الخبر ظن أنها قد سممت نفسها
فبكي لفقدها ولم يرضَ ان يعيش بعدها فاستل سيفه وشكه ب صدره
حتى اشرف على الموت وطار الخبر الى قلاو فطرا بما كان منه
فانتحبت وبكت وطلبت احضاره اليها فحملة خدمه الى الحصن
ولكون قلاو فطرا كانت قد سدّت بابه خوفاً من ان يُغدر بها
وتقع بيد العدو ارخت له سلة من كوة الحصن تنشله بها فكانت
تسحبه بمساعدة امرأتين معها بمنظر من الجمهور والدموع تكاد ان
تعمي بصرها وهو ملقى مضمخ بدمه رافعاً يديه نحوها فرحاً بسلامتها
لكنه بعد وصوله اليها مات

(٤٦) وبهذا الاثناء دخل اوقتاويانوس المدينة راجلاً وبرفقته اريوس
فاعطى السكان الامان وحرّم على عساكره السلب اكراماً
لطلب رفيقه ثم سأل عن اولاد قلاو فطرا من انطوني وتلطف
بهم اما ولدها قيصرون فكان هارباً نحو السودان مع مربيه
رودون ومع انه يكون ابن خاله قيصر ذاك الذي تبناه وسماه
باسمه اي يوليوس قيصر اوقتاويانوس لم يشفق على حداثة سنه
وضعفه بل ارسل من لحق به وقتله بالطريق . قيل بتواطىء من
مربيه اما المتزلفون الى هذا الظالم فمنهم من يقول بان اريوس
كان المشير عليه بقتل الصبي ومنهم من يدّعي بانه كان ابن

قلاوفطرا من اخيها لامن قيصر فينتحلون عذراً لصاحبهم الذي
اعطوه فيما بعد لقب اغسطوس

(٤٧) وامر اوقتاويانوس بالاحتياط بقلاوفطرا كي لا تقتل نفسها وهو
يريد ان تعيش ليزين بها موكبه عند ايايه الى روما فراح يزورها
ويعزيها بفقد انطوني واذن لها بدفنه ووعداها بحفظ كرامتها
وتهددها بقتل اولادها ان اضرّت بنفسها لكنها لم تطق الحياة
طويلا فيقال بانها اخذت سما ام ماتت من لسعة زنبور ام حية
أتى لها باحديهما في سلة عنب وعمرها اذ ذاك تسع وثلاثون
سنة ودفنت بجانب انطوني باحتفال ملوكي

(٤٨) ومعنى اسم قلاوفطرا « عزّ والدها » فكان اسما لطيفاً شريفاً
شائعاً بين اليونان والمقدونيين زهاء اربعمائة سنة حتى دنسته هذه
الملكة بسيرتها الردية فقلما سموا به بناتهم بعدها

(٤٩) ورأت روما فرجا بموت قلاوفطرا وخلصاً من خطر وقوع
اوقتاويانوس بشراكها والتلوث بعار فجورها

(٥٠) سوى اننا قد كنا للان ننظر الى الرومان عن بعد ولا نرى منهم
الا الشهامة والمروءة فكان بالصدر الاول يكفيهم الشكر من
ايفانوس وفيلوماطر وعرجتيس الثاني لمساعدة ابدوها اما الان
فصرنا نرى البحر لا يرويههم والاهواء الذاتية والمطامع تقودهم
رويداً رويداً الى الاستئثار بالسلطة والفتوحات لاتزيدهم الا

طمعاً فانهم ملكوا اولاً مقدونيا من باب المدافعة ثم القيروان بحيلة
ثم قبرس بلا سبب وصرنا نرى رجال السناتوا شد رغبة في الرشوة
من الامة بالفتوحات والولاة كالذئاب الخاطفة حتى انهم لما تفاقم
الفساد بينهم لم يروا دواءً له الا جعل اوقتاويانوس اوطوقراطاً
اي حاكماً مطلقاً يعمل برأيه وامره فيهم ليضع حداً للاختلال
والحروب الداخلية وهو اذ ذاك قد ضم مصر الى مملكته
والغنى استقلالها

(٥١) وهذا كان اخر العهد بالبطالسة الذين افادوا العلوم والمعارف ما لم
تفدّه دولة قبلهم لا سيما ان بالرياضيات والتشريح والمنطق كانت
الاسكندرية القطب الذي عليه مدار علوم المسكونة ولو انها
قصرت جلياً بعلم الاقتصاد والتاريخ وانحطت عن درجة اثينا بالفلسفة
وسلامة الذوق

(٥٢) واذا امعنا النظر باسباب عمران وخراب هذه الدولة رأينا بان
كلاً من فضيلة ام رذيلة من حكمة ام خرق من اقتصاد ام اسراف
قد لاقى نتيجة وجنى ثماره فان الذهب المصري الذي جذب
اليونان اولاً لمصر وكان الوسيلة لاعلاء شأن دولتهم فيها هو
الذي ادى اخيراً الى فساد طبائعهم وبطرتهم واضمحلال نفوذهم
(٥٣) لاننا اذ كنا نرى في عهد بطليموس سوطيراي المختص اقتصاد
بالمعيشة ونشاطاً على العمل واكراماً لاهل الفضيلة والعلم وسهرًا

على اقامة العدل وتمهيد اسباب الراحة وتحصين الاطراف وبناء
المدارس وتسهيل غايات التجار واستشارة العقلاء مما جعل
الاسكندرية زينة الدنيا ومحط رحال زهرة رجال اليونان والسوريين
صرنا نرى بالزمان الاخير فساداً يعم الكبير والصغير

(٥٤) ولما خلفه ابنه فيلادلفوس قبل تاريخنا هذا وجد مملكة واسعة
مطمئنة فصدق امانها وجرى بها في درجات التمدن والعمران
الى ان صارت اسواقها غاصة بالتجار ومدارسها بالطلبة وفتوحاتها
تتوالى برّاً وبحراً وصار هو اول ملوك زمانه بالقدرة والغنى
والسيرة الحسنة حتي انه اعتُبر فيما بعد اعظم ملوك هذه العائلة

(٥٥) فكان المصريون بعهد هذين الملكين من اسعد الناس واحسنهم
حالا اخذين عن اليونان بعض فنونهم وعاطيهم دينهم فان الملك
عرجتيس كان مصرياً اكثر مما كان يونانياً يغار على عظمة
المعابد واكرام الكهنة كانه عامل بالوصية الدلفية « ان الالهة
يقتضى اكرامها في كل محلٍ طبقاً لشريعة ذاك المحل » الا ان
الجند لم يكن حينئذٍ من هذا الروح فضعف تأثير الكهنة على
الهيئة الاجتماعية واختلت المبادي عن الزمان الاول

(٥٦) وبالعهد التالي ظهرت آفات هذا الضعف والخلل فان فيلوباطر
كان ملكاً فاسقاً تاركاً الحكم لنسوته وحاشيته غير مكترث
بالحوادث لا الداخلية ولا الخارجية ظاناً ان مملكته لم تنزل

اعظم ممالك الدنيا بينما لم يبق لها حينئذ حقيقة من العظمة الا
الصورة والتقدم يخدم روما في قرطاجنه وسورية تحت قيادة
انطيوخوس العظيم ثم مات فيلوباطر مخلفا لولده الصغير عرشا يكاد
ان ينقض

(٥٧) فوزراء الملك القاصر وجدوا دولة لا راس لها ولا جيش وخزينة
فارغة وشعبا بلا مروءة ولا فضيلة فاستعانوا بالرومان خوفا من تعدي
ملوك سورية ومقدونيا

(٥٨) ومن ذاك الوقت اصبحت دولة البطالسة تحت حماية روما
الى ان صارت ملوكها تطلب اعانة الرومان تارة ضد اعدائها
وتارة ضد رعاياها واحيانا تستشير السناتو بمصالحها واذا لم تعمل
برائها قدمت لها عذرا فكانت الاحكام على هذا المنوال تدخل
رويدا رويدا بيد السناتو الى ان الظروف خولتها الاستيلاء على
حوران واسيا الصغرى والقيروان وقبرس ووصل البطالسة لدرجة
التملق لشرفاء روما فلم يعسر بعدئذ على اوقتاويانوس الملقب
باغسطوس ان يضم مصر لملك الرومان

(٥٩) وللبطالسة بنايات من معابد واساطين كان يظن بانها من قبل
زمانهم حتى فك كتابتهم الدكتورينج الانكليزي والا فان
اعتناءهم كان شديدا بحفظ التقاليد القديمة والتباين الذي يظهر فيها
هو مالا بد منه على طول الزمان في كل بلاد فان البنائات الجديدة

صارت اقل ضخامةً ومكنا وقطع المسلات قلّ ونحت الاصنام
العظيمة وتشيد الاهرام توقّف وعمد المعابد تغيّر شكلها فان التي
كانت قديماً تُرى رؤوسها محفورة بهيئة ورق الغزار صارت ترى
مكلمةً بشكل زهر البشنين واغصان النخل والتي كانت رؤوسها
ضخمة تناسب الحمل الذي فوقها صارت ترى احياناً بشكل رأس
امرأة نحيف ما تعود على حمل اثقال ولا صخور

(٦٠) اما الدين قنراه في زمان البطالسة قد انتقل لآلهة جديدة ام قديمة
بصورة جديدة ، فان الاله هنيمو وهو النيل قد صار بصورة آله
النهر اليوناني يدفق ماءه من ابريق والقمر الذي كان يجال رؤوس
الالهة قديماً صار لها باسم يوح ، وايزيس الالهة ذات العشرة
الاف اسم . ثم ان مقام الالهة تبدل عن قبل فصار افتتاح
وسيرايس من الدرجة الاولى . وتغيرت اسماء الرجال والبلدان
فعوضاً عن فت ايزيس وفت عمون وسيرايمون صرنا نسمع
بعودوتيس وهرموفنطوس وبوليقرات من اسماء الرجال وصارت
اشمونين تدعى هرموبوليس واسناتوبوليس وخميس بانوبوليس
وثيبه ديوسبوليس . ونشأت مدن جديدة كالبطالسية ^(١) وفيلاسه

(١) نحو ١٤٠ ميلا تحت ثيبه وتحتها فيلاسه على بعد نحو ١٤٠ ميلا منها
على النيل اى بين القريتين الحديثتين المنشية والجرجه

وغيرهما ودخلت للكتابة صور جديدة كالزرافة والموميه الراقدة
على سرير والمراكب ناشرة شراعها والعجلات بخيلها . وكثير
استعمال الحروف واتسع التعبير عن الافكار بالكتابة حتى ان
القباب الملوك زاد وصفها بطغراءاتهم

- (٦١) ولما شاع استعمال ورق الفافير للكتابة بالقرب من زمان دخول
الفرس لمصر شاعت ايضاً الكتابة بالحروف وقلم الغزار وتشوشت
صورها من ضعف صناعة الكتاب فهي الان اعسر فكاً من
المحفورة . واما ما طراً على اللغة من التغيير فلا علم لنا به لاسيما ان
معرفتنا بلغة ذاك الزمان محصورة بما نظنه يقرب منها وهي ترجمة
الانجيل باللغة القبطية والحرف الرومي بعد سقوط البطالسة بثلاثة قرون
(٦٢) ولما دخلت مصر في ملك اوقتاويانوس الذي سنذكره بعد الان
بلقب اغسطوس كان القبط غير اولئك الذين عرفهم الاسكندر ولم يكن
لهم من حظهم الاول من الاداب الا القليل فقلوا عدداً وافتقروا وتبلهوا .

الفصل الثاني

عن سنة ٣٠ ق . م الى ٦٨ م

انتقال مصر الى حكم الرومان

اغسطس سنة ٣٠ ق . م

(١) ابتداء اوقتاويانوس الملقب الآن بأغسطس حكمه في مصر بكسر تماثيل انطوني فيها وكانت هذه التماثيل بالاسكندرية وحدها تفوق الخمسين ، أما تماثيل قلاوفطرا فانه أبقاها برجاء صديقها أرخبيموس وبرطيل منه بألف تالنت أي نحو مائتين وخمسة وعشرين الف ليرة من عملتنا الدارجة ، ثم أقام قورنيليوس غالوس الشاعر صديق ورجيل والياً على مصر

(٢) وكان القانون قبل سقوط الحكم الجمهوري أن لا يقام حاكم بأملاك الرومان الا من أعضاء السناتو فأغسطس لم يطلب الغاء هذا القانون لكنه طلب ولاية مصر وغيرها باسمه وبهذه الحيلة اخرج الولايات من حكم السناتو لحكمه الذاتي وصار يقيم لها من شاء نائباً

عنه الا مصر فانه ترك أمرها للسنا تو محابةً منه والا فان السنا تو
كانت قد أمست اسماً بلا جسم فلا يصدر منها أدنى تحرش لولاية
مصر بل كان هو الامر فيها ايضاً

(٣) ولكن بينما كان الحكم الروماني يترك لأكثر الولايات
استقلالها الاداري ، لم يستعمل اوقتا ويانوس من المصريين لادارة
بلادهم الا من كان لا بد منه كالمفتي لشرائع دينهم وليس فقط انه
أقام عليهم ولاية من غير أعضاء السنا تو لا بل انه حرّم على هؤلاء
الأصلاء الدخول لأرض مصر الا بأذن منه وصار هذا قانوناً بعده
لأجيال عديدة حتى في الزمان الذي فيه صارت الرومان تحتاج
لاستعمال المسيرة . وقبل من هذا القانون كان زار مصر الشاعر
تيللوس بصحبة صديقه السنا تور ماسيلاً وحكى عن مشاهدته حزن
أهل منف على موت عجلهم ايبس وأخبر عن فيضان النيل انه
يكون عند طلوع الشعري اليمانية مع الشمس

(٤) وكانت السنة المصرية تبتدىء من هذا الطلوع والسنة الديوانية
عندهم كانت من ٣٦٥ يوماً فرأس سنتهم كان ضرورة يتأخر ربع
يوم من سنة لسنة (١) فأمر أغسطس باتخاذ حساب السنة المنسوب
لقيصر من ٣٦٥ يوماً وربع يوم . واذ وقع رأس السنة المصرية بذلك

(١) وهكذا كان الحساب يتأخر شهراً كل ١٢٠ سنة وكل الف وخمسمائة
سنة تقريباً يتم الدور فترجع الشهور الى فصولها الاولى

الزمان في ٢٩ سكتيلس اي الشهر السادس عند الرومان جعل ابتداء
السنة منه وصار هذا الشهر يسمى اغسطوس باسمه . ولبث هذا
الحساب مستعملاً في اوروبا ستة عشر قرناً الى أن البابا غريغوريوس
الثالث عشر أصلح خله بوضع السنة الكبيسية . ولما أدخل اغسطوس
سنته الجديدة صارت مصر تؤرخ بثلاثة رؤوس سنة . سنة مصرية
رأسها نحو ١٨ يوليو من اسم يوليوس قيصر وسنة امبراطورية
رأسها ٢٩ اغسطوس وسنة فلكية رأسها من طلوع الشعري اليمانية
مع الشمس

(٥) وهذا كان حداً اهتم الرومان بدائرة العلوم الا أفراد منهم
كقيصر الذي أمر بمساحة اراضي الاملاك الرومانية وقياس سكتها
واغسطوس الذي امر الان بمساحة ارض مصر الى ان بظرف
اثنين وثلاثين سنة تمت مساحة اعظم القسم المعروف من الكرة
لذلك الزمان ورفع به التقرير للسنوات ، وفي ما بقي فان اعتناء الرومان
كله كان موجهاً للحرب والفتوحات

(٦) واذا كان اغسطوس بالاسكندرية جاءه هيرود متوسلاً باعادة
أملاكه التي كان أنطوني قد أقطعها قلاو فطرا فأحسن اغسطوس
استقباله وأجاب طلبه وزاده السامرية والمدن البحرية الحرّة وأعطاه
اربعمائة جندياً من رجال الغال كانوا من حرس قلاو فطرا الخاص
واخر شاكرية البطالسة

(٧) وزار اغسطس ضريح الاسكندر ووضع عليه اكليلاً من الذهب وآخر من الزهور وأما قبور باقي ملوك البلاد فلم ياتفت اليها ، كما انه زار منف ورفض أن يزور العجل ابيس مع ان الاسكندر زاره بزمانه وضحى له احتراماً لعقيدة القوم ولطفاً منه بهم . فكل اذاء بالذي فيه ينضح

(٨) لكنه أعاد لليهود الامتيازات التي كانت لهم من عهد البطالسة رغمًا عن كره اليونان لذلك ولقد أصاب لأن اليهود كانوا حينئذ اصحاب تهذيب واداب وغنى ومنهم خرج ابولوس العالم الذي يُعدُّ بعد الحواريين من أعظم المبشرين بالدين المسيحي وهو الذي نشره في افسس وقورنت واقريطش

(٩) ولما عاد اغسطس لروما اخذ معه كل الدخائر والتحف التي اصابها بمصر فكان ما حمله من الفضة والذهب بالرغم عن افتقار البلاد بالزمان الاخير كافيًا لأن يخفّض قيمة النقود في روما فتهادوت فائدة القروض فيها وتضاعدت اثمان العقارات هذا ما عدا الجواهر والتحف والاثاث الثمين مما جمعه من القصور الملكية ودخل به روما تحمله العجلات الضخمة وراء مركبته مع الاسارى اولاد قلاو فطرا من انطوني وبينهم تمثال امهم عوضاً عن شخصها وكان باخر الموكب تماسيح للفرجة منها زاحفة ومنها ساجحة في حوض تلاعبها رجال من بلد تنطيره التي كان أهلها خبيرين بصيد وتربية هذا الحيوان

(١٠) وأراد اغسطس أن ينتقم من الاسكندرية فأمر ببناء مدينة
بالمكان الذي ضرب فيه خيامه من جهة بابها الشرقي عند زحفه
ضدها لتكون العاصمة الجديدة وسماها نيقوبوليس وبنى فيها المعابد
ونقل اليها زينة معابد الاسكندرية وكهنتها ولكنه لم يتمها فمُجرت
بعد قليل وعاد كل شيء منها للاسكندرية ، كما ان الاسكندرية لم
تنزل للآن أهلة عامرة تحمد بانيتها ونيقوبوليس لم يبق لها أثر ولا
خبر لانها لم تؤسس على التقوى وسلامة النية

(١١) وحسب عادة الفاتحين بذاك الزمان نقل الرومان ما أمكنهم حمله
من مصر لبلادهم فأخذوا تمثالاً محلياً بالذهب للاله يانوس نصبوه
في معبده في روما وصورة من عمل نيشيا كانت من ذخائر المملكة
الثمينة واشياء كثيرة غير هذه والمسلتين القائمتين للآن في بيازاً
دل بوبولو وفي مونتي تشيتورو من زمان اغسطس

(١٢) ورأى اغسطس بأن الوالي قورنيليوس غالوس لم يحسن السياسة
في مصر فأبدله برجل حازم عاقل يدعى بطرونيوس

(١٣) فكان بطرونيوس يستخدم الجنود عنده لتنظيف ترع الري من
الطين لعلمه بأن فائدة الفلاح تفيد جابي الخراج وفي أيامه صار
بناء المقياس على جزيرة الفيلية ليعرف منه ارتفاع النيل

(١٤) ثم اذ كان بعد ذلك اليوس غالوس والياً على مصر في هذا العهد

أتى الساحل الشهير استرابو زائراً مصر ورافق الوالي لسينيه (١) وترك لنا وصفاً شائقاً عن جمال الاسكندرية وعظم تجارتها التي كانت تفوق تجارة ايطاليا بأسرها فان المراكب فيها كانت تغطي وجه المرفأ وشطوط بحيرة مريوط ، وضواحيها تمتد لا بعد من هذه البحيرة ومنظر حصنها من جهة والمنارة من جهة كان من أبدع المناظر حسناً . والمعابد والقصور تجلجل اكثر من ربع البلد مثل السينا الذي كانت فيه قبور الملوك وقبر الاسكندر ودار المحكمة والموزيوم الجديد ومحل مجتمع التجار ومعبد نبتون والتمونيوم والقيصرية ومعبد سيرابيس البديع والجنازيوم ومعبد پان الذي يكشف من سطحه على البلد كلها والهبدروم والبساتين البلدية غربي المدينة والمقبرة ذات البنايات اللطيفة على شاطئ البحر ما عدا القبور التي بالديماس وحفّات بحيرة مريوط المكسوّة بدوالي العنب الشهير بجودة خمره وجوانب التربة منها الى النيل المدبّجة بالازهار والاعشاب والاشجار الخضراء بين بهرجة الرمال البيضاء حوالها . وبعيداً كانت ترى بنايات المدينة الجديدة التي أنشأها اغسطس . ولا عجب من هذا الوصف لعاصمة كانت فنون اليونان وغنى مصر مسخرة لزيبتها

(١) هي اسوان الحديثة بلاد عاد القديمة قرب جبل العاكي وفيه ذهب وفضة وجنوباً منها على خمسة عشر ليلة جبل الزمرد

بينما هليوبوليس العاصمة القديمة التي هدمها قمبيسي لم يكن باق من
أثار مجدها سوى البيتين الذين درس افلاطون وصديقه اودوقسوس
بهما الحكمة . أما منف فانها كانت المدينة الثانية من مدن مصر
لأن ثيبه وأبيدوس كانتا قد صارتا بدرجة القرى . وعين استرابو في
منف قتال الثيران وأذن له أن يطلع من نافذة على الثور المقدس
أبيس في مربضه . وشاهد بالتمساحية لقط التمساح المبارك وتغذيته
بالحلويات والخبز . ورأى البطلمية تكاد أن تضاهي منف بجمالها نظراً
لاعتناء الملوك بها بعد أن كانت لهم معسكراً فان بناياتها وقوانينها
كانت كلها يونانية كلاسكندرية خلافاً لباقي مدن مصر وكان
موقعها بين بانوبوليس وايبودوس حيث هما الآن القريتان المنشية
والجرجه وهما هي الآن قد انمحت بينما معابد ثيبه القديمة العهد
والبنيان لم تزل قائمة تشهد لها بالعظمة والشان . وزار ايضاً الصنم
العظيم المكسور ^(١) ولكنه أبى أن يحكم بسبب مصدر النعم منه
عند طلوع الشمس عليه . وشاهد البئر في سمينه التي يقع قعرها على
حفة الشمس الشمالية تماماً في أطول يوم من السنة . ورأى براءة
النوتية بانحدارهم بالشلال في قوارب الخوص . وزار جزيرة الفيله

(١) اصلاً تمثال امنحوتيف الثالث . ولما بهذا الزمان صار يصدر منه نغم
على اثر زلزلة حصلت زعم الاغريق بانه ابن طيطون والفجر وانه ممنون

بالقرب من سيينه حيث وجد نصف اهلها من القبط والنصف
الآخر من السودان

(١٥) ومن سوء رأي هذا الوالي كان طمعه بغزو العرب باليمن وسلبهم
لانه كان يرى تجارتهم الواسعة وكثرة ابلهم آتية مصر بالاحمال
الثمينة من أموال الهند تعماض بها ذهباً وفضة من المصريين فظنها
من محاصيل أرضهم فزحف ضدهم بعشرة آلاف مقاتل ومائة وثلاثين
مركباً نزل بهم على شاطئ البحر الاحمر بدرجة ٢٥ من العرض
الشرقي لكن أدلّاه من العرب تاهوا به عمداً بقفارهم فلم يجد مدناً
ولا شاهد عرباً لا سيما وان أهل الوبر منهم لما علموا بقدومه رأوا
بأن الهرب من وجهه بأموالهم وماشيتهم انكى له بذلك الشول من
مقاومتهم فأقام سنتين بطلبهم يحاذر من التوغل بالبر خوفاً من
العطش الى أن بلغه تسطي السودان على مصر فهورول راجعاً ولحق
بمراكبه بدرجة ٢٤ من ذاك العرض وبعد احد عشر يوماً ارسى في
ميوس هرموس من بلاد مصر على البحر الاحمر

(١٦) في العصور الاولى من تاريخ مصر كانت السودان تمتزج بلغتها
ودينها مع القبط أهل الصعيد لكن بعد تلك الازمان هاجر بعض
العرب لافريقيا على شطوط البحر الاحمر ولما زار الصعيد استرابو
كان عددهم قد تكاثر حتى صار نصف اهل مدينة قبطوس (١)

منهم وكان عليهم مدار نقل أموال تجار ثيبه لا بل ان المؤرخ يوبا الصغير الروماني يقول بأن السودان كان في زمان اغسطس بيد العرب الذين كان دأبهم الغزو وفخرهم القتال وغايتهم السلب واذا أصابوا منه شيئاً عادوا الى منازلهم مفتخرين بفروسياتهم . وكان قوادهم يدهنون وجوههم كوجوه اصنامهم بالزنجفر . فهؤلاء العرب لما وجدوا الرومان مشغولين باليمن زحفوا من مرو وبلاد الشلال الرابع على الصعيد تقودهم ملكة عوراء لكن اذ وصل غالوس الى مصر طردهم اولاً من ابو سنبل ثم ظل يطاردهم حتى دخل عاصمتهم نباطه (١) بجيشه المؤلف من عشرة الاف مقاتل منهم خمسمائة يهودي والالف عربي بينما اولئك العرب ان كانوا ثلاثين الفا انما اكثرهم لا سلاح لهم سوى الدرق والعصي والفؤوس ومجانيهم من الجلد . ووضع عليهم جزية يؤدونها لحامية تركها بينهم وعاد لمصر راضياً بمحدوده على سبعين ميلاً من سيبينه . وللان ترى في مرو قناطر رومانية بمعبدة نجما (١٧) ثم جاء اغسطس زائراً صاموس فأرسلت له الملكة العوراء وفداً تستعطفه بترك الجزية فأجاب طلبها وهذا برهان على ان مرو كانت مدينة راقية مهيبة وليس كما يستنتج من حالة جيش الغارة المختلط بالبدو والذعران المجاورين لها . اما وراء مرو فلا يوجد أثر لمدينة لاسيما ان الجبال الفاصلة بينها وبين الحبشة الجنوبية البحرية لم

(١) هي الان المسماة جبل بركل على حفة الشلال الرابع

تكن تسمح بمواصلات بين الارضين وسكان الجنوب كان اكثرهم
يهوداً استوطنوا عدوله واقسيوم من عهد سليمان ومنهم من وصل
الى مرو ولاذ بالملكة لاننا نجد فيما بعد ان خصياً يهودياً كان خازناً
عندها لا بل ان دين مرو ولغتها كانا بهذا الزمان ساميين حجازيين
لا قبطيين

(١٨) أما لسان مصر الرسمي وسكتها في عهد اغسطس وعهد خلفائه
فكانا باللغة اليونانية حتى كان سواح الرومان اذا كتبوا شيئاً على
عاديات البلاد كتبوه بهذه اللغة . وكانت النقود منقوشة بهامة
الامبراطور واسمه من جهة والنسر المصري قابضاً على الصاعقة من
الجهة الاخرى . ثم صارت تؤرخ بسني جلوس الامبراطور وأولاً
كانت صفته فيها « ابن الله » عوضاً عن الوصف المصري القديم
« ابن الشمس » لكن لما صارت مصر ولاية رومانية افرغها الرومان
من الذهب والفضة وأبطلوا سكتها راضين بأخذ خراج الحبوب
عيناً وكان ذلك يبلغ حينئذ عشرين الف الف كيلة أو أربعة
أضعاف الخراج في عهد فيلادلفوس

(١٩) ولم يتحرق الرومان لدين المصريين لا بل ان معابد طنطيره
وطاميس وهي الآن قلابشه بالنوبه يرى محفوراً عليها باللغة
الكنهوتية اسم اغسطس اوتوقراطاً وابن الشمس وملك الارياف
والصعيد وغير القاب كانت توصف بها البطالسة وملوك البلاد قبلهم

وظلَّت السناتوكل عشر سنين تجدد انتخاب اغسطوس اوتوقراطاً
وهو يتمنع محابةً منه الى أن تمَّ له بالملك اربعون سنةً

(٢٠) ولا يُنكر بأن اليونان قد أخذوا دينهم عن المصريين فاقبَسوا
منهم اليقين بالبعث ويوم الحساب والجزاء على الاعمال ، والآن نرى
الرومان أيضاً ناصبين في روما تماثيل آلهة المصريين ومشيدين المعابد
لها والفقراء بشوارعهم يتوسلون للمحسنين بحق ايزيس وورجيل
شاعر البلاط الملوكي يقول بقولهم بالبعث على رأس الالف سنة ، وكل
ذلك رغماً عن انكار اغسطوس هذا الدين وتحريمه على الناس

(٢١) ومن علماء هذا الزمان كان سوتيون الفيلسوف الاسكندري
الذي عنه أخذ سنكَّا بصغره علم الاخلاق . وكان من مذهب
بيثاغوروس بتحريم أكل اللحوم لزعمه بأنه من الجائز انتقال أرواح
البشر للبهائم الماء كولة . وله تأليف لطيف جمعه من عدة مواضع
وسماه قرونوقوبيا . وكان العالم أرخيميوس ناقل مزامير قاليماخوس من
رجال هذا العصر وابن ابولونيوس مؤلف القاموس المفسر
نشيد اوميروس . وكان بينهم أيضاً الشاعر تريفون والمنطقي
ارستونيقيوس الباحث في اراء هزيود بالتكوين وتسلسل الالهة
واسماء العلم بكتاب اوميروس وتيدمنالاوس ملك اسبارطا وعاشق
هيلانه

(٢٢) ولما مات اغسطوس خلفه طباريوس الذي سار بالناس سيرةً

حسنة فأحبته مصر واقامت الاسكندرية معبدًا على اسمه طرف
 الرصيف محاطًا بالاساطين وبجديقة ووضعوا فيه مكتبة. وكان على
 أعلى أكمة بالمدينة و امامه مسلتان من عهد طوطمس الثالث وحفر
 رمسيس الثاني احدهما المسماة مسلة فلاو فطرا وهي القائمة الآن على
 حفة التاميز في لندن وكان معهما مزولة تقسم النهار الى اثنتي عشرة
 ساعة على مدار السنة بدون نظر الى طوله وقصره صيفًا وشتاء
 وذلك لعدم وضع الضلع منها على خط قطب الارض الشمالي كما
 كان علمه من قبل الفلكيون ايراطوسطين وهبارخوس

(٢٣) وابتدأ طباريوس حكمه في روما باقامة العدل الصارم والضرب
 على أيدي الولاة الظالمين حتى ان لما حاكم مصر اميلios راقطوس
 توهم بأنه يرضيه ببعثه له خراجًا منها اعظم كثيرًا من المعتاد كتب
 اليه الامبراطور « قد وصلني ما أرسلته من الخراج لكن أعلم بأنني
 انما أقتك على مصر لترعى غنمي فيها وتجز لي صوفها وليس لتسلخها
 والسلام ». وكذلك اذ مات أحد الولاة ممن كانوا في مصر
 ووجدوا بين أمتعته تمثالًا لمتالوس من حجر قبطي اسود كان قديمًا
 يُعد من ذخائر معبد هليوبوليس أمر طباريوس برده لمكانه فلاجل
 ذلك كانت الكهنة توقره وتودّه وترسم اسمه على المعابد. وفي زمانه
 زيد الرواق البديع على معبد طنطيرا منقوشًا سقفه بمنطقة البروج
 التي ظنها العلماء اولًا من وضع الاقدمين مستغربين عظم التأنق

بنقشها بذاك المعبد الضخم البسيط البنيان حتى فطنوا لبرج الميزان فيها الذي لم يمثل بهذه الصورة الا من عهد اغسطوس والأغرب بهذا الرواق هو تشييده بزمان كانت مصر فيه بالفقر والضيقة لكن اذا اعتبرنا بواعث التقوى زال الاستغراب او كما قال الشيخ ابن الفارض

« ولقد صرفت بحبه كلي على يد حسنه فحمدت حسن تصرفي »

اما طنطيرا المذكورة فهي لانوبوليس اليونانية واسنا الحديثة

(٢٤) وفي السنة الثالثة من جلوس طباريوس أتى جرمانيقوس قيصر

والياً على المشرق وصعد الى ثيبه وسأل كهنتها أن يفسروا له

الكتابات القديمة التي على جدران معابدهم فأخبروه انها تصف

عظمة البلاد في عهد رمسيس اذ كان يخرج منها سبعمئة الف مقاتل

أخضع بهم رمسيس لليبيا والسودان والفرس والكلدان والارمن

والسوريين ووضع عليهم الجزية من ذهب وفضة وخيل وعجلات

وعاج ونخور للمعابد وحبوب لأهل عاصمته . ثم انه زار صنم

عمونوطف وسمع نغمة الشهير وزار الفيليه وسمينه وهي اسوان الحديثة

وبأياه عرّج على الاهرام وبحيرة ميريس التي كانت تحفظ مياه

طوفان النيل للري بعده . وشاهد في منف العجل المقدس ابيس

وقدّم له بيده شيئاً من القوت ولما أعرض عنه العجل تفاعل الكهنة

من ذلك واذ بعد قليل مَرَضَ هذا الامير ومات قال الكهنة بأن

فألهم قد صدق فأسفوا عليه لأنهم كانوا قد أحبووه للطفه وكرمه
وتجولوا بينهم بلا حرس ولا تكليف. وكانت زيارته لمصر ضد قانون
اغسطوس فعاتبه طباريوس على دخولها بدون اذنه. وهنا أقول انه
يظهر لي بأن «أبيس» فيه تحريف لأن كتابته بلغة القبط تعادل Hapi
بلغة الاغريق ومعناها «الخفي» فصحة لفظها تكون ايضاً «خفي»
لأن اليا والفا مترادفتان فيصبح الاسم عربياً. واما سيرابيس فهو
اسم جديد مشتق من اسمين اوسيريس وايبس

(٢٥) وكان يهود مصر في ذاك الزمان زهاء الف الف نسمة ،قسم منهم
كان ثلث سكان الاسكندرية في حين من الخمسة احياء بالمدينة
لهم فيهما المشايخ والسندرين وهيككل في عينون بدلاً من هيكل
أورشليم الا لمن ظل منهم متمسكاً بسندرين اورشليم وهيكلها
ولكن بالرغم عن قانون قيصر الذي ثبت لهم امتيازاتهم القديمة
ومساواتهم باليونان كان مركزهم بالبلاد حرجاً لأن اليونان ظلوا
يحتقرونهم والمصريين كانوا يحسدونهم على امتيازاتهم ويسمونهم
أولاد الشيطان تيفون

(٢٦) وكان بالقرب من الاسكندرية على تل بجوار بحيرة مريوط
طائفة من اليهود يسمونهم التيرايتيين قد تعلموا التنسك من
المصريين وتركوا لنا أول مثال من العيشة الرهبانية فيقول المؤرخ
فيلو عنهم بأنهم كانوا لزهدهم بالدنيا قد هجروا منازلهم واهلهم وتركوا

اموالهم وحبسوا انفسهم منفردين بصوامع لهم ، رجالاً ونساء ، منهم من لا يذوق طعاماً سوى ثلاثاً بالاسبوع ومنهم مرة واحدة بالاسبوع ولا يجتمعون الا في يوم السبت ، الرجال من جنب والنساء من جنب لا بسين قميصاً يغطي ايديهم فيقف شيخ منهم يعظهم ثم يصلون وينصرفون . وكانوا يعتقدون بأن للاعداد اسراراً فكان العدد السابع عندهم مباركاً وسبعة بسبعة كانت عندهم الاسبوع الكبير فيعيدون بالخمسين وفيه يأكلون سوية متكئين على القش طعامهم الخبز وشرابهم الماء ونقلهم الملح والجرجير ، يخدمون انفسهم ويستحرمون اتخاذ العبيد وكانوا يختمون اعيادهم بالنشيد والتسبيح بصوت واحد ومترادين

(٢٧) هذا ما حكاه فيلوعنهم ولكنه لم يذكر كيف كانت تسد احتياجاتهم فأكثر الظن انهم كانوا يشتغلون بنقل التوراة ويعتاشون من اثمانها ولم يوضح ايضاً أسباب هذا الزهد الا أن تكون مما دعى غيرهم لمثله من قبل ومن بعد وهو ظلم الحكام وفساد طباع الجمهور بأزمة أكثر من غيرها تتولد فيها كراهية للاختلاط بالناس وفتور بالعزم اللازم للقيام بالتكاليف الاجتماعية

(٢٨) وكان ايضاً فريق آخر من اليهود في فلسطين ينسكون على شواطئ بحيرة لوط الا ان تنسكهم كان عن قناعة وعفة لا عن

يأس وكره للدنيا، طريقة المصريين القدماء الذين كانوا ينقطعون عن معايشة الناس ويرون بالعذاب والشقاء فضيلة تكسبهم رضى الالهة فيهود مصر كانوا من هذا المزاج ومنه تولدت الرهينة المسيحية في مصر بعد حين

(٢٩) وسنة ١٩ م تنكر الرومان من اليهود في روما ونفوا منهم اربعة آلاف الى سردينيا لا لسبب دينهم لأن الرومان كاليونان لم يكن يخطر لهم قط التعصب لمذهبهم بل كان لسبب حفظهم السبت وامتناعهم فيه عن مشاركة الجمهور بالاحتفالات الرسمية فشك في اخلاصهم للدولة

(٣٠) وسنة ٢٣ م قفل طباريوس بيت ضرب السكة بالاسكندرية لا سيما وان البلاد كانت يفقدها استقلالها قد فقدت سكتها الذهبية ولم يبق لها سوى عملة من فضة زائفة رومانية وصار الغنى والجاه لروما وما وجد فيها ذهباً بهذا الزمان من ضرب طباريوس هو قليل جداً باسم اغسطوس تذكاراً له كزوج امه

(٣١) ومن ولاية مصر في عهد طباريوس كان افلاقوس اويليوس عرف أطوار سيده فساس البلاد على أحسن منوال وحفر الكهنة اسمه مع اسم الامبراطور على معابد طنطيرا لكنه تغير فيما بعد عما كان كما سنراه عن قريب

قاليفولا سنة ٣٧ م الى سنة ٤١

(٣٢) وسنة ٣٧ مات طباريوس وخلفه قاليفولا الذي كان يكره اليهود واذ نصب تمثاله في معابد المملكة ولم تقبله اليهود بكنائسها فشى عليهم الاغريق بالاسكندرية وبمرور اغريباً ملك فلسطين بالاسكندرية سخروا منه لدرجة انهم البسوا صعلوكاً منهم تاجاً من ورق ووضعوا بيده صولجاناً من قصب الغزار وداروا به الاسواق ينادونه باسم اغريباً وكان افلاقوس الوالي يرى ذلك ولا يعارض به لاستيائه من وجود شخص بالمدينة أعلى منه مقاماً مع ان اغريباً لم يمر على مصر بايابه من روما الا باذن الامبراطور ونزل الاسكندرية مساء كاحد الناس لا بل انه لم يأت بمركب من مراكب تجارة الاسكندرية الا لاجل الماء الذي تحمله هذه المراكب الكبيرة ويحل له الشرب منه خلافاً للمستقيات الخشبية بالمراكب الصغيرة التي لا يحل لليهود الشرب منها وذلك ربما من الفساد الذي يعتريها بالسفر الطويل

(٣٣) ولما رأى الرعاع عدم تحرش الوالي لسوء ادايتهم طمعوا ووثبوا على اليهود بمنازلتهم وكنائسهم وعاثوا فيهم ومزقوا الاعلان المنشور بامتيازاتهم وحملوا تماثيل الامبراطور لكنائسهم ونصبوها فيها غصباً عنهم واذ لم يجدوا منها ما يكفي غرضهم اخذوا بعض تماثيل البطالسة

من الجنازيوم ونصبوها بكنائسهم. ثم ان الوالي أصدر منشوراً به يصف اليهود بانهم دخلاء فازداد الاغريق حماقة واليهود حنقاً واستعر القتال بين الفريقين ولكن يا ويل الفريق الاضعف والحاكم خصمه! فانهزمت اليهود واحتمت بحمي من الحيين وانتهت بيوتهم المهجورة بحيمهم الآخر وانسل منهم رجل لبيتاع قوتاً لاولاده بالخفية فمسهكه الاغريق واحرقوه بالطريق ولأن الاغريق ادعوا بأن اليهود يخفون سلاحاً في بيوتهم قبض الوالي على ثمانية وثلاثين شيخاً من اكبرهم ليقررهم بخفية السلاح ولم يكن لهم ما يكشفونه له فأمر بجلدهم بيد الجلادين المصريين زيادة في اهانتهم (٣٤) ولم تصل اخبار هذه الحوادث للامبراطور حتى اغريباً بلغه اياها فغضب من عمل الوالي وبعث بالحال قائداً ومعه فرقة من العسكر للاسكندرية ليحضروا له هذا الظالم فلما وصلوا اليها نزلوها ليلاً وكبسوا الوالي وهو مع اصحابه على العشاء فمسهكه وقادوه لروما تَوْاً بالاغلال

(٣٥) وكانت اليهود في تلك الليلة بعيد المظال فلما سمعوا حركة العسكر بالمدينة ورأوا المشاعل امامها خافوا خوفاً شديداً لئلا تكون الحركة ضدهم، لكن اذ بعد قليل انكشفت لهم الحقيقة فرحوا وشكروا الله عل خلاصهم من هذا الجائر وما من يد الا يدُ الله فوقها ولا ظالم الا سيُلبى بظالم

(٣٦) ورُخص لهم بعدئذٍ بارسال بعث يقدم شكواهم للامبراطور
فارسلوا بعثاً يرأسه الفيلسوف فيلو وارسل الاغريق بعثاً يدافع عنهم
يرأسه ابيون المنطقي فكان من هذا انه سألهم بدائياً بحضرة
الامبراطور الم يرفضوا وضع تمثال جلالته بكسائسهم فلما اجابوه ببلى
وقبل أن يوضحوا سببهم الديني قطع الامبراطور الحديث وفضَّ
المجلس معتبراً اقرارهم بحضرة اهانة ظاهرة له ضدَّ قانون الدولة
ومستغرباً على زعمه حماقتهم فانسحب فيلو كئيباً وهو يقول ان يكن
الامبراطور ضدنا فان الله معنا

(٣٧) واخبار هذه الحوادث وان اتتنا من مؤرخ يهودي فان لنا
بصفات فيلو السامية ومنزلته من العلم وكبر سنه كفيلاً على صحة
شهادته . وهو الذي عادت مدرسة الاسكندرية بعلمه الى زهوها
بزمان البطالسة الاولين فانه كان يهودياً ديناً افلاطونياً مذهباً
وبالمولد مصرياً ولا بد الآن لدارسي الحكمة والباحثين عن الدين
من مطالعة كتبه ليروا كيف كان تدرُّج الافكار من مذهب الى
مذهب حتى وصلت لمذهب الشهداء كيوستين وقلامنس المسيحيين
الافلاطونيين وكان فيلو اول يهودي اخذ عن المصريين اعتقادهم
بسرّ السكّال بالثلاثة من العدد وجمع الاسنى من حكمة افلاطون الى
الاسنى من التوراة حتى كاد ان يكون مسيحياً

(٣٨) فبجاه هذا الاستاذ عاد لليهود بالاسكندرية رونقهم الادبي حتى

صار الاغريق يلهجون بكلامهم ويرون له بلاغةً وطلاوةً لم يعرفوها من الوثنيين. واذ كانوا قد ابتدأوا من القرن الاخير ان يشعروا بانهم ليسوا خير البشر واصبحوا يعتنون بتفهم افكار جيرانهم نراهم الآن يعترفون بأن اليهود هم اول العلماء بمدرسة الاسكندرية

(٣٩) ونعم ان ايون الرومي الصعيدي خصم فيلو كان منطقيًا بليغًا ومصحيح نشيد اوميروس الا انه لم يبق لنا من كلامه سوى رد يوسفوس على انتقاده على اليهود ومن كتبه سوى حكاية اندروقلوس والاسد بينما كتب فيلو تشهد لصاحبها بالعلم والفضيلة والتقوى التي لا يُعلَى عليها

(٤٠) وقبل الوداع من قصة البطالسة يسوع ان نذكر بأن اغسطوس لما ساق سيلينا ابنة قلاوفطرا اسيرةً لروما زوجها فيما بعد يوبا الصغير مؤرخ افريقيا واقطعهما بلاد المغرب بالارث عن والدها لكن اذ مات يوبا وخلفه ابنه بطليموس تغير عليه قالينغولا ونفاه من مملكته فراح تائهاً في بلاد اليونان واسيا الصغرى حيث لاقى اكراماً يليق بابن البطالسة. ثم ان قالينغولا احتال عليه وقتله فلم يبق حينئذٍ من عائلة مصر الملكية اليونانية سوى دروسيلا حفيدة قلاوفطرا وانطوني زوجة انطونيوس فيلكس حاكم اليهودية الذي كان له قبلها زوجة اسمها دروسيلا ايضاً

قلوديوس سنة ٤١ م الى ٥٥ وطريق الهند بحراً وتجارة القرطاس

(٤١) ثم لما مات قاليغولا وخلفه قلوديوس حصل عند اليهود فرح عظيم فطاشوا وتجمهروا بالاسكندرية متهددين الاغريق بسيوفهم وعلى رأسهم ديميتريوس زوج مريم ابنة اغريباً الا كبر يطلبون اعادة امتيازاتهم القديمة ولم يسكنوا حتى اصدر قلوديوس منشوره باعادتها (٤٢) وكان قلوديوس عادلاً حليماً لكن الولاة والعمال لم يكونوا كذلك فاجتهد باصلاحهم ووجد بالسنة التاسعة من ملكه ان مصر بحاجة للعدالة فسن قانوناً لحفظ حقوق الشعب من التعدي والظلم وأمر الوالي قنيوس كيكتو بنشره بالبلاد لكنه لم يقم قضاة داخل البلاد للحكم بموجب الشرع فكانه ما عمل شيئاً

(٤٣) وبنى مدرسة بالاسكندرية سماها باسمه وامر ان يُقرأ فيها تاريخه عن قرطاجنه اياماً معلومة بالسنة وتاريخه عن ايتاليا بالمدرسة القديمة اياماً مثلها . ونعم الامر ، لما لدرس التاريخ من الفوائد الذاتية والعمومية (٤٤) واعاد لمصر حرية ضرب نقودها وناول سنة من جلوسه بدأ بضرب سكته البديعة بالاسكندرية وعليها تاريخ جلوسه وسنو ملكه مما أفاد المؤرخين افادة عظيمة وهناك فضل آخر لسكة الرومان على سكة البطالسة التي وان كانت لطيفة فان كتابتها المصرية كانت مشوشة واما تلك فكانت كتابتها ورموزها المصرية صريحة ومتعددة الشكل

(٤٥) وفي هذا الزمان اكتشف الاغريق والرومان على طريق الهند بحراً من مصر واتسعت التجارة من وراء ذلك اتساعاً عظيماً . فقد ر المعاصر والمؤرخ بلييني الا كبر قيمة الذهب والفضة الصادرة سنوياً من مصر للهند بأربعمائة الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن ثمن الأموال التي كانت تجلب منها وتباع في روما برمج مائة بالواحد اي بأربعين مليوناً وأعظمها كان من الحرير والاملاس وأحجاراً كريمة أخرى ثم من التوابل كالزنجبيل والقرفة والبهار والفلفل عدا ما كان يجلب من أموال افريقية الجنوبية كالعاج وسن الكركدن وجلد فرس الماء وصدف الاطوم والقروود والسعادين والعبيد آتية بحراً الى برينقة وهي سواكن هذا الزمان لان البر عن طريق السودان واسوان لم يكن مأموناً . أما طريق الهند بحراً فكانت بالنيل الى قبطوس ومنها برّاً على الجمال الى سواكن مسيرة اثنتي عشرة ليلة أو مائتين وستين ميلاً . ثم كانوا ينزلون البحر في منتصف شهر يوليو عند طلوع الشعري اليمانية مع الشمس . وبعد ثلاثة ايام يصلون إما الى أوقليس على الشطوط العربية الجنوبية واما الى قانس على شطوط بلاد البخور من افريقية الشرقية بالقرب من خط الاستواء وهناك كان الريح الموسمي (وهو ما تسميه الافرنج الآن مونسون) المكتشف عليه بذاك الزمان من النوتي هبالوس يحملهم فيخترقون البحر العربي الى موزيريس من ملابار الهند حتى يصلون اليها

بأواسط سبتمبر ثم اذا كان آخر ديسمبر يقلعون كما اتوا ببضائع الهند الثمينة ولم يزل هذا الطريق هو الوحيد المعروف بين اوربا والهند الى ان اكتشف البورتغاليون بالقرن الخامس عشر على طريق رأس الرجا الصالح فتعطلَّ طريق مصر والبحر الاحمر (كما تعطل طريق رأس الرجا الصالح بفتح ترعة السويس بأيامنا الحاضرة) وتأثر منه تجار العرب ومصر تأثيراً بليغاً لسبب انقلاب مجرى التجارة

(٤٦) وحكاية اكتشاف طريق الهند بحراً هي أن الرومان كانوا كعادتهم بأكثر أملاكهم ما خلا مصر قد ضمنوا خراج وكمارك البحر الاحمر العائدة لهم لتاجر رومي اسمه انيوس فلو قاموس صاحب مراكب كان يستخدمها لهذه الغاية ويتاجر وأحياناً يقرصن بها حتى على شطوط العرب الجنوبية . فيوما ما طاح بأحد نوتيته مركبه مدفوعاً بريح شمالية قوية جداً قذفته الى الاوقيانوس وتاهت به خمسة عشر يوماً الى أن وجد نفسه على شط جزيرة لم يكن يعرفها فكانت سيلان وكان هو أول رجل اوروي أتاها لذلك الزمان وأفشى طريقها

(٤٧) وبجوار الطريق من قبطوس الى سواكن كانت مناجم الرخام السماقي وجبل الزمرّد المسمى القلودياني لان الامبراطور قلوديوس كان قد حماه لنفسه

(٤٨) ولما اشتهرت طريق الهند البحرية بدأ علماء الجغرافية يحدّون عظم المسافة بين الهند وافريقية والافان الجمهور لذلك الزمان كان يظن

بأن بلاد فارس هي بالقرب من الحبشة وكان اليونان يظنون بأن النيل يخرج من المشرق او ما كانوا يسمونه الهند وهي البلاد المعروفة الآن بالحبشة أما اليهود فكانوا يقولون عن النيل انه نهر جيحون الآتي من جنة عدن غرباً دائراً حول بلاد قوش اي الحبشة (٤٩) والمؤرخ بليني بكلامه عن صنائع مصريذ كر خصوصاً السكولان أي الفافير أو البردي الذي منه أخذ الافرنج اسم الورق لترادف الفاء والباء فقالوا « پاپرو و پاپيه » فيقول بليني بأنه نبات من جنس القصب ينمو بالمستنقعات التي يتركها النيل بعد انتهاء فيضانه فيؤخذ منه الخشب للوقد وللأثاث والزهر لزيينة الأصنام والقشر لعمل الحبال والمراكب وحياة الشراعات واللب منه لعمل القرطاس الذي يوجد منه ما يصعد عمله الى ٣٦٠٠ سنة ق م وأجوده كان الكهنوتي الى ان كان عهد اغسطوس فصنعوا جنسين أحسن من الكهنوتي ، سموا احدهما اغسطي والآخر ليوياني من اسم امرأة اغسطوس وصنعوا أجناساً أدنى منهما كالفانياني والانفيتياتريك والسايتيك وأدناها كان يسمى امبوريتيك لا يصالح الا للصر وكان أجود هذا الكاغد رقيقاً شفافاً لا تمكن الكتابة عليه الا من جهة واحدة ففي عهد قلوديوس اخترعوا عمل جنس منه يصلح للكتابة على الوجهين وسموه القلودياني . ويقول بليني بأن مصر كان لها تجارة واسعة جداً بالكتان والقطن أولهما يطاع بالقرب من تانيس

و بلوزيوم و بوطوس يالارياف والآ خر بالصعيد ناحية النيل الغربية
وان مخازن الحبوب الكبيرة كانت بالاسكندرية واليهاء جاء يهود
فلسطين بأول هذا العهد يشترون منها لما أمحلت أرضهم
(٥٠) وكان للمصريين براعة بالصبغ وتفنن بالألوان لا يعرفها اليونان
ولا الرومان وكذلك بالحبر الذي كانوا يكتبون به على اكفان
الموميا وهو الذي نستعمله الآن للكتابة الثابتة على القماش . وكان
علمهم بالاجمال بطريقة تحليل الأجسام وتركيبها يفوق كثيراً علم
جيرانهم ، وهكذا لما العرب اخذوا عنهم هذا الفن سموه خيميا أي
الفن المصري ، من اسم مصر القديم « خيم » كما ان اسم النفط
مأخوذ عن المصريين ومعناه زيت الجبل الذي وجدوه على شط
البحر الاحمر من جهة الطور . وكان يظن لذاك الزمان ان لا وجود
للالماس الا في مناجم ذهب السودان . أما رخام مصر فالمعروف
منه اسماء كلها رومانية كالابسيدوني للرخام النوبي الاسود من اسم
أبسيدوس المكتشف له ، والطباري للرخام الاسود المنقط بأبيض
من اسم طباريوس قيصر ، والاغسطي للرخام المعرق من اسم اغسطوس
والبورفيري للسمّاقى اللون الذي تفننوا بنحته بهذا الزمان أصناماً
وتماثيل أجسامها منه والوجه واليدان والرجلان من الرخام الابيض
تشبيهاً بالاشخاص المكسوة

(٥١) أما الخمر فان الذي كانت ترغبه اليونان والرومان بذاك الزمان

كان أعظمه من عصير بلاد اليونان وايتاليا وبعده كان المريوطي والتانيوتيك والفيومي ثم خمر انطلا شرقي الاسكندرية ثم وارد انطيفرا من ليبيا على بعد مائة ميل من الاسكندرية . واردا خمر كان من عصير الصعيد . أما الشعب فكان مشروبه من عصير الشعير ولكن أفر الخل كان المصنوع من النبيذ المصري وله الشهرة في روما وكان يصنع أيضاً خمر فوار كالشمبانيا في سبينيتس يسمى عيطلون

(٥٢) والخمر الغريب كان يأتي الى الاسكندرية بجرار من الخزف على شكل البطة ذات عروتين عند الرقبة اكثرها من جزيرة رودوس وبعضها من قورنت واقنيدس على شطوط آسيا الصغرى ومن قبرس وشيو وطاسوس التي كانت فيها مناجم الذهب قديماً ومن عبامه على الاورنتس ومن جنوبي البحر الاسود ومن صقاليا ومرو السودان التي خمرها كان من عصير التمر لكثرتة هناك وكل هذه الجرار قد عرف اصلها من شقفها التي وجدت بتراب الاسكندرية وعليها اسماء هذه البلدان ومن شكل هذه الجرار صارت العرب تسمى جرة الخمر بطة

(٥٣) والسائح استرابو والجغرافي بومبونيوس ميلايد كرون بركة موريس المصطنعة ووسطها هرمان صغيران كانت تسقي ألوفاً من الفدادين بجوار ارسينويه الا أنها كانت بزمان بليني قد جفت وانحدرت مياهها الى بركة القيرون وأصبحت الأراضي حوالها قفراً ليس فيها

غير شجر الزيتون البري وذلك لانها كانت بمدة الخمسين سنة
الاخيرة قد أهملت وتعطلت جذرانها . وبهذا الزمان زيد في معبد
لاتوبوليس البديع المشاد من عهد البطالسة رواق منقوش عليه اسم
قلوديوس وبعدها حفروا فيه أسماء خلفه وكانت عمده جميلة الصنعة
جداً رؤوسها بشكل اغصان النخل وزهر الفاير والمعبد كان
مكرساً للاله اقنيب الذي له عدة أسماء عند اليونان يظن انها كلها
تحريف اخنبه بلغة القبط ومعناها الينبوع وكان في لاتوبوليس معابد
غيره لاله من جنس السمك

(٥٤) وكان اسم السنة بلغة القبط بيت وهو ايضاً اسم طائر عندهم وكان
اسم غصن النخل عندهم بي فزادوا عليه حرف التاء الذي هو
هكذا  ودائرة تحته وصاروا يعبرون بذلك عن السنة الى ان
صار البعض يسمون السنة طائراً او غصن نخل وكان اسم النخل
بلغة الاغريق فينكس فأخذوا هذا الاسم يرمزون به الى طائر خرافي
وهو ما تسميه العرب العنقاء وتقل عنهم الرومان بدون استقصاء
خبره فلما كانت سنة ٤٧ م وبها تمّ القرن الثامن من بناء روما
زعموا بأن الطائر قد جاء من مصر وزار مدينتهم وانه طائر عجيب (١)
يأتي من العربية على رأس كل خمائة سنة حاملاً رمة أبيه التي خرج
من دودة منها ليلقيها بعشها المعطر ويحرقها على هيكل معبد الشمس

في هايو بوليس ثم يعود الى بلاده ، و به استشهد المسيحيون على حقيقة
البعث وذكره قلامنس أسقف روما برسالته الى القورنتيين
بهذا المعنى

نيرو سنة ٥٥ م الى سنة ٦٨

(٥٥) وعند موت قلوديوس خلفه نيرو ، وظهر حينئذ في مصر رجل يهودي
ادّعى بأنه نبي وهيج اليهود للانتصار لآخوانهم في اورشليم فاجتمع
اليه اربعة آلاف مقاتل على قول البعض او ثلاثون ألفاً على قول
آخرين سار بهم اليها لكنهم بوصولهم لحدود فلسطين لاقاهم الحاكم
فلاقوس ومزق شملهم . فمثل هذا التعصب من اليهود من وقت
لآخر كان هو الذي يضرهم الحق في صدور الروم ضدهم وهكذا
لما كان هؤلاء مجتمعين بالجناز يوم لانتخاب بعث يرسلونه لروما
دخل بينهم بعض اليهود بدعوى المساواة بهم فوق اليونان عليهم
وطردوهم كجواسيس وكادوا أن يقتلوهم لولا ان يأتيهم المدد من
آخوانهم ويرسل الحاكم طباريوس بعض مشايخهم ليردوهم فانسد
الخرق حينئذ لكن ما لبث الشر حتى عاد بينهم فاقتتلوا أياماً
واضطّر الحاكم الى استدعاء خمسة آلاف من جنود ليبيا لمساعدته
على اخماد الفتنة ثم قام بحراسة اليهود الى أن جمعوا قتلاهم من الازقة
ودفنوهم . اما قول يوسفوس بأن قتلى اليهود بتلك الحادثة بلغ خمسين

الفأ ففيه ولا شك مبالغة عظيمة لما هو معروف من صداقة
الحاكم لهم

(٥٦) ولكن لما كان من سياسة المملكة ان الوالي يُعزل اذا وقع
شغب بولايته لأنه لم يتلافاه أمر الامبراطور بعزل طباريوس وابداله
ببيليوس الذي بوصوله من صقليا للاسكندرية بستة أيام عُدد
سفره من غرائب الزمان بالسرعة. ولهذا الوالي تاريخ عن مصر ذكره
سنكا بالاطراء عليه لكن لا وجود له الآن. ومما ينقل عن لسان
بيليوس ان التمساح الذي لا يرى الآن تحت ثيبه كان كثير الوجود
بالارياف بزمانه وانه قد رآه يطارد الدلفين بالقرب من اسوان

(٥٧) وبهذا الزمان كانت مراكب الاسكندرية ونوتيتها أعلى شهرة من
سواها وتجارتها مع ايتاليا أعظم تجارة فحصلت لنوتيتها من وراء ذلك
خبرة كلية بالطريق حتى كانوا اذا ساعدهم الريح يقطعون مائة
وخمسين ميلاً بنهار وليلة أما اذا قاومهم الغربي منه التجأوا الى
شطوط آسيا الصغرى واذا لاقوا هيجاناً عظيماً بالبحر التجأوا الى
اقريطش او مالطه وربما دخل عليهم الشتاء فيهما فيظلون محتمين
بمكانهم لدخول فصل الربيع فلا يصلون الى ايتاليا الا بخمسة
أشهر، وهذا عين ما توقع لبولس الرسول ورفيقه يوسيفوس المؤرخ
بسفرهما الى روما

(٥٨) ولأن خليج مالطه كان اوسع وامن مرفأ بالبحر المتوسط وماجأ

مستمرًا المراكب مصر وإيطاليا أصبح أهلها خليطًا من شعوب شطوطه.
ومن الجماجم التي وجدت بأرضها يظهر بأن أكثرهم كانوا مصريين
حتى في زمان الفينيقيين بانين المعبد الكبير فيها لاله مصر المسمى
من اليونان معبد خيم او اجياخيم. كما ان نقود الفينيقيين التي وجدت
فيها ترى عليها من جهة صورة اله صقليا ومن الاخرى صورة الثالوث
المصري ايزيس وعوزيريس ونفطيس والتي من زمان اليونان عاينها
صورة ايزيس من جهة وعوزيريس مجنحًا من الجهة الاخرى
ومثل هذه النقود وجدت ايضًا بالجزيرة الصغيرة هنالك بين صقليا
وقرطاجنه المسماة قصيرة

(٥٩) في الخمس السنين الاولى من عهد نيرو وهو قاصر وتحت وصاية
الفيلسوف سَنَسْكا كانت المملكة مثالاً للعدالة والانصاف حتى ان
نقود مصر للسنة الثالثة من جلوسه على سرير الملك ضربت بصورته
وعلى رأسه تاج مصر المزدوج واسمه عليها « السعد الفتي » وكان
المصريون يشكرون من واليهم الجديد بلييوس اليوناني المصري الى
انهم قالوا بأن النيل قد اقتدى بكرمه واحسانه فاتى بزمانه وافيًا.
لكن اذ شبَّ نيرو واستلم زمام الملك تحوّل الحلم الى الحماقة
والعدالة الى الظلم وعمل الولاة بسنة ملكهم حتى ان بلييوس الذي
اعطاه الامبراطور لقب طباريوس قلوديوس ايضًا تغير عما كان
فاظلمت الدنيا ونزل البلاء بالناس

(٦٠) ومن أساتذة نيرو كان الفيلسوف خيرامون رئيس مدرسة الاسكندرية سالفاً وله تأليف صغير يشرح فيه طريقة الرهبان المصريين القدماء وكان زاهداً بالدنيا ويؤثر الموت على الحياة فقال فيه الشاعر المجان مارتياح بأنه لكبر سنّه وفقره لم يعد يشعر بلذة الدنيا . أما علوم الاسكندرية فكانت بالقرن والنصف من حكم الرومان قد انحسرت بدرس المنطق

(٦١) وكان رئيس مدرسة الاسكندرية لعهد تراجان ورئيس قلم المحابر بالولايات أيضاً الاستاذ ديونيسوس تلميذ خيرامون له قصائد يتغنى بها بالنيل وبسبق المصريين أهل الارض بالتمدن والفلاحة والزراعة والعلوم وبجمال بلوزيوم الفينيقية الاصل التي نسميها بليبس وبغز الاسكندرية المقدونية مدينته وبصنم ثيبه العظيم الذي تسميه اليونان ممنون مصباحاً حبيبته اورورا (أي الفجر) وهي الآهة اليونان الخرافية المسماة أيضاً ايوس والدة ممنون من أبيه تيطون . أما الصنم فهو حقيقة بالاصل تمثال الملك امنحيف بن طوطمس الرابع

(٦٢) ومن تقرير مؤرخي الكنيسة يظهر بأن ابتداء التبشير بالمسيحية بمصر كان سنة ٥١ من مرقس الانجيلي تلميذ بطرس الرسول ولكنه بالسنة السادسة من هذا العهد لحق بيولس في روما تاركاً الكنيسة الجديدة لعهد حنانيا ، انما لا يذكر التاريخ عدد المتصرين الاولين

وذلك لأنهم كانوا من الفقراء والبائسين والثقيلي الاحمال الذين دعاهم يسوع ليكونوا شركاءه في ملكوت أبيه^(١)، أولئك الذين كانت كهنة سيريس تلعنهم وتطردهم من وجهها، لكن اذ تنصر الاغنياء والاكابر صار التاريخ يسجل الاسماء ويفتخر بالعدد

(٦٢) وحنانيا هذا هو المشهور بأنه كان أول أسقف للاسكندرية والمؤرخ عوزيوس الذي كتب بعده بمائتي سنة يسرد لنا أسماء الاساقفة الذين خلفوه بدون انقطاع لذاك الزمان لكننا لا نجد دليلاً على جنسيتهم الاً من أسمائهم. فان حنانيا قد كان ولا ريب يهودياً كما كان مرقص أيضاً. انما خلف حنانيا نراه قد صار من اليونان وذلك لسبب انكسار شوكة اليهود وخراب اورشليم من الرومان بهذا الاثناء والا فان اليهود الافلاطونيين لولا ان فيلو المؤرخ يعين لنا أزمتهم التي هي قبل التبشير بالمسيحية لظنناهم من الاولين قبل أن تختلط الخرافات والتقاليد اليونانية والمصرية بالمذهب الصريح وتغير مبادئه السامية الى آراء خسيصة

(٦٤) وبكل هذه الازمنة الاخيرة كانت حامية الرومان لا تتجاوز حدود برمبول وطاميس من أرض النوبة التي منها كانوا يستجلبون بالنيل حجر الرمل المرغوب للبناء وأما ما وراء هذه الحدود فكان متروكاً لتصرف العربان اسلاف البشاريين الحديثين اولئك الغزاة

(١) ابيه وابيه والاهه والاههم (انجيل عيد القيامة ليوحنا الرسول)

الذين كان القبط يهابونهم ويعتقدون بأن لا رؤوس لهم وان عيونهم
وأفواههم بصدورهم

(٦٥) وما سوى ذلك فان مصر كانت بأتم السكون والراحة، حتى انه
لما القائد وسبازيان عجز عن اخضاع اليهود في فلسطين بالعشر
كتائب التي معه امكن لنيرو أن يسحب كتبتين من حامية
الاسكندرية ويرسلهما مددًا له تحت قيادة ابنه طيطوس. ووسبازيان
وولده طيطوس هما المرموز عنهما بسفر الوحي بالوحش الاول ذي
العشرة قرون الخارج من البحر والوحش الثاني ذي القرنين الآتي
براً ضد اليهودية

الفصل الثالث

سنة ٦٨ م الى ٩٧

غلبا اوتو ويتليوس وسبازيان طيطوس ودوميتيان

(١) لهذا الزمان كان قد تم قرن كامل للمملكة الرومانية تداول الحكم فيه خمسة رجال بصفة تشبه الارث لكن بموت نيرو انقرض النسل الجولياني والقلودياني ولما صعد غلبا على كرسى الملك بارادة الجند حاول أن يوهم الشعب الروماني اكتسابه الحرية

(٢) ثم أبدل حاكم مصر بطيبيريوس يوليوس اسكندر ابن حاكم سالف بها من هذا الاسم ومن منشور هذا الحاكم الذي وجدت صورته اليونانية محفورة على عاديات المرج الكبير بينما الحوادث والانتقالات بالارياف دكت المعابد فيها ومحت الاثار، يعلم ما أراد غلبا اصلاحه من المظالم فانه يحرم اجبار أفراد الرعية على تحصيل الخراج او سجن الاحرار لأجل دين ليس عندهم ما يفونه به ان لم يكن ديناً أميرياً أو تحويل جابي الخراج على مديون معسر أو أخذ مهر امرأة لوفاء دين بعلمها، ويلغي كافة الضرائب التي وضعت بالخمس السنين الأخيرة ولأجل ابطال عادة التجسس التي كانت قد فشت بين الناس بعضهم على بعض بارتياح لها من الحاكم

بالاسكندرية أعلن بأن أيّ انسان اشتكى على الآخر بخفية ثلاث
شكايات ولم يثبتها يُغرم بنصف ماله ولا تقوم له شهادة او تسمع
له دعوى امام المحاكم فيما بعد . ولأن الخراج كان يؤخذ عادةً على
المسقي بالغيل والدولة صارت تطالب به بحسب مساحة الاطيان
زاعمةً بأن مسؤولية تعطيل بعض المزارع من انسداد الترعات عائدة
على الفلاح ، أمر بالعمل بالعادة ومن هذا الباب ما جاء بالحديث عن
نبي العرب ، ما سُقي بالغيل ففيه العُشر وما سُقي بالدلو ففيه نصف
العشر ، ومن هذه القوانين يظهر بأن الناس كانت باحتياج للرفق
والعدالة

(٣) لكن حكم غلبا لم يطل لان الذي يرفعه الجند يحطه الجند
خلافًا للحاكم المستند على عهد الامة وذمتها . فبعد سبعة أشهر
انتقض عليه الجند وقتله . وما وجد من النقود بعد ذلك باسمه
مضروبًا بالسنة الثانية من ملكه معناه انه ملك بأواخر سنة
ودخلت عليه سنة جديدة بالملك وهذه كانت عادة الاسكندرية
بضرب النقود

(٤) وعند موته سلّمت روما زمامها لاوتو وتبعها المشرق وضربت
الاسكندرية النقود باسمه . ثم اذ بعد ايام اتاها الخبر بقتله من جنود
الجرمن التي بايعت قائدها ويتليوس وضربت نقودها باسم هذا
لكنها بعد قليل انكرته أيضاً وبايعت وسبازيان مختار جنود سورية

(٥) واذا وافى وسبازيان الاسكندرية بلغه قتل ويتليوس بعد ثمانية

أشهر من جلوسه على كرسي روما وان جنودها وجنود الجرمن
تريده ففرحت الاسكندرية بذلك وزينت وضربت نقودها باسمه
وعليها كلمة « السلام » اشارة الى انتهاء الفوضى والنزاع الداخلي

(٦) وكان ممن سعى بنجاح دعوة وسبازيان في مصر وهياً له

استقبالا لاثقا، العلماء ديون والفرات وابولونيوس فديون كان خطيباً
يلقب بغم الذهب والفرات كان فيلسوفاً افلاطونياً اقترن فيما بعد
بأبنة حاكم سورية وقطن روما وفيها اكتسب صداقة بليني الصغير
وذكراً حسناً جداً وأما ابولونيوس وهو أشهرهم وأصله من تيانة

بالقرب من طرسوس فكان أول اغريقي طاف بلاد المشرق وأخذ
عن حكماء بابل والهند وكهنة مصر علومهم وسجرهم حتى صار يُعدُّ
واحداً منهم وادّعى باللاتيان بالمعجزات وبالنبوة ومؤرخه يقول بأن
الشجرة المباركة كلمته ودعته بالاستاذ السماوي اما كتاب الوحي

الذي رمز الى وسبازيان بالوحش وذكر النبي الكذاب الواقف
امام الوحش فانه عني به ابولونيوس كما أنه هو الذي أشار اليه بولس
الرسول بانه المنافق الذي سينكشف عنه الغطاء قريباً وذلك لانه
كان قد زار طرسوس وانطاكية وافسس وخطب فيهن بفلسفته

بينما كان الرسول بولس يعظ فيهن ايضاً بالمسيحية

(٧) ولما رأى الاغريق نجاح الشعوذة كالتى آتى بها ابولونيوس رغبوا

فيها فراجت حرفة الكهنة وشاع ذكر سحرهم فمنهم من ادعى
 بمناجاة الارواح ومحاوره الجمادات والبهائم ومنهم من ادعى معرفة
 أجل الانسان من خطوط جبهته فثبت اعتقاد الجمهور بالسحر حتى
 ان القديس ايرونوموس لم ينكره فيما بعد ولا ما كان يُنقل عن
 سحرة الوثنيين واليهود والمسيحيين بناءً على أنه علم لا سرّ روحاني
 (٨) وكان أبولونيوس لائداً بوسبازيان رافلاً بنعمته ووسبازيان
 يكرّمه ويصادق على دعوته ليسند بها سلطته امام الجمهور حتى انه
 لما طلب من هذا المشعوذ أن يدعي له بتأييد ملكه اجابه « اني قد
 مسحتك امبراطوراً بسلطة من عندي » فصار المصريون يطلبون
 التبرك من وسبازيان أيضاً ولما تقدم اليه أحدهم وفي عينيه رمد
 وطلب اليه أن يبصق عليها زاعماً ان الالهة سيرايس قد ألهمته
 ذلك ليشفي ، وآخر قد شلت يده طلب اليه أن يدوسها بقدميه
 لتشفي ضحك وسبازيان منهما لكنه اذ ألح عليه الناس ان يجيب
 طلبهما استدعى الاطباء واستشارهم فأشاروا عليه أن يفعل لأنه ان
 أفادهما استفاد هو ايضاً ذكراً وان لم يفدهما لم يضره ذلك وعلى
 قول المنزلفين اليه بأنه فعل وأفاد . وهذا جائز بمثل هذه الامراض
 لكن لسبب طبيعي قائم بنفس العليل لا بسرّ في الطبيب

(٩) ويقال ايضاً بأن وسبازيان رأى عجيبة وهي انه دخل يوماً معبد
 سيرايس للصلوة ولما انتهى الى الغرفة القصوى حيث الصنم رأى

الشيخ باسيليدس جاثياً هناك وهو يعهده طريح الفراش بعيداً ثمانين ميلاً عن الاسكندرية فلما خرج سأل الكهنة عن سبب وجود الشيخ بالغرفة فأجابوه بأن لا علم لهم باتيانه المعبد اصالةً ودخلوا الغرفة فلم يجدوا فيها أحداً فبعث وسبازيان بالحال رسولاً لحل اقامة الشيخ ويقال بأنه وجد ملقاً على فراشه وعلى آخر رمق من الحياة

(١٠) ثم ان وسبازيان ردّ ابنه طيطوس لليهودية ليم فتح اورشليم فزحف طيطوس بجنوده برّاً الى نيقوبوليس ومنها قطع التربة الى طمويس بالقرب من منديس ثم مشى ليلةً الى تانيس وليلة ثانية الى هيراقليوم وثالثة الى بلوزيوم حيث جاز النهر والرابعة كان في قاسيوم والخامسة في اوستراتين حيث أخذ مؤنته من الماء وبالسادسة كان في رنينوقولورا والسابعة في رافيه آخر حدود مصر ومنها دخل أرض فلسطين

(١١) وكانت يهود الاسكندرية لا تبالي بما حل بيهود فلسطين وهيكل اورشليم لانهم كانوا من ثلثمائة سنة وهم يحججون الى هيكلهم الجديد بعينون بالقرب من هليوبوليس ، لا بل ان أحدهم يوسف بن متياس الذي اشتهر فيما بعد باسم فلايوس يوسفوس المؤرخ كان من عدد الزاحفين مع طيطوس ، فلما وصل طيطوس امام اورشليم وأحاط بها كان المدافع عن عالي المدينة القائد سمعان وعن أسفلها والهيكل

القائد يوحنا وهما الشاهدان اللذان يذكركهما كتاب الوحي لكنهما
اختلفا على طريقة الدفاع . ورغمًا عن شجاعة اليهود أخذ الرومان
المدينة منهم وهدموا هيكلها في شهر ايلول سنة ٧٠ م او على قول
اوريجين بالسنة الثانية والاربعين من صلب السيد المسيح وقاد
طيطوس من أسارى اليهود حينئذ سبعة وتسعين الفًا لمناجم صعيد
مصر وهاجر كثيرون غيرهم لمصر هربًا من الجوع والشقاء راجين
المواساة من أهل دينهم هناك لكنهم خابوا لأن يهود مصر خافوا
لئلا ايلافهم ينكي الحكام فأنكروهم وردلوهم وطردوهم فتفرقوا
بالصحراء تائهين ذائقين كل أنواع الهوان والعذاب حتى ان قلب
يوسيفوس القاسي ذاته رقّ لهم فيما بعد

(١٢) إلا انه قد فات يهود مصر بأن سقوط عاصمة ملتهم واذلال أهل
دينهم من شأنه أن يسوق الى اهانتهم ايضًا فالتنا نراهم محتقرين من
الاغريق متهمين من الرومان حتى ان الحاكم لوبوس أقفل هيكلهم
في عينون ايضًا بأمر الامبراطور وساق كثيرين منهم بالاغلال الى
روما وساق يوسيفوس معهم فكان اسيرًا الى أن عرفه طيطوس
فأطلقه

(١٣) ونعم ان ليوسيفوس فضلًا بالتاريخ لا ينكر وعنه نقلنا بعض أخبار
اليهود إلا انه كان رجلاً بلا مروءة ولا ناموس كافرًا بدينه وقومه
وامراته الغريبة لكنه بردّه على طعن ايون باليهود واحتجابه بأقوال

فلاسفة الاسكندرية قد أفادنا أفكارهم وأفكار يهود ذلك الزمان
التي لا وصول لنا اليها الآن من باب آخر

(١٤) أما سفر الحكمة المنسوب في بعض نسخ العهد القديم الى سليمان
الحكيم فيظهر لنا بأنه من وضع أحد رجال هذا الزمان لأنه
يذكرنا بأقوال فيلو وابن سيراخ ونفسه نفس يهودي مصري متصر
قد شاهد أعمال وسبازيان باليهود وعرف اهاتهم من المصريين
ويمدح من العيشة الرهبانية ويزعم بأن الله لم يخلق الموت ويعظم
الرجل الصالح الذي شتم وعُير وعُذّب لقوله بأنه ابن الله وبكلامه
عن الخالق وحكمته وكلمته التي بها أوجد الاشياء ترى المطابقة على
أول قول جاء بذكر الثالث من كاتب مسيحي وهو تيوفيليوس
أسقف انطاكية

(١٥) ولم يكن الاغريق اكثر ارتياحاً من تصرف وسبازيان معهم
لأنهم كانوا السابقين لمبايعته فلم يروا منه من المكافأة الا زيادة
الضرائب واذا بلغه بأنهم يعيرونه بالبخل ويقولون بأنه طالب صديقاً
له بستة دوانق كان قد أقرضه اياها شاط غيظاً منهم وجباهم مثلاً
عن كل رجل منهم ثم عفى عنهم برجاء ابنه طيطوس ورحل الى روما
بلقب اليماق أي غسّال الصحون كما كانوا لقبوا سلوقوس قبله، ناهب
تابوت الاسكندر الذهبي

(١٦) ولبت طيطوس في مصر نائباً عن والده فكان لطيفاً بالمصريين

(١٧) محبوباً منهم واذ شاركهم باحتفالهم بالثور الجديد ايس لابساً التاج
الملوكي ليزيد بيهجة الاجتماع شكاه الاغريق بمزاحمة أيه على الملك
ومن آثار عهد وسبازيان في مصر كان اكمله معبد لاتوبوليس^(١)
الكبير للاله اكنيف ، وهو من أبدع بنايات مصر القديمة ، فزيد عليه
رواق قائم على أربعة صفوف من العمد رؤوسها منحوتة بشكل
زهر الفاير وعلى سقفها صورة منطقة البروج كما في معبد طنطيرا
واسم وسبازيان محفوراً فوق الباب الكبير

دوميتيان سنة ٧٩ م الى سنة ٩٧

(١٨) ولما مات وسبازيان خلفه ابنه الأصغر دوميتيان الذي أباح
للرومان دين المصريين وأقام في روما معبداً لآلهتهم ايزيس وابنها
هوروس ومعبداً آخر لسيرايس فاشتغل المصورون بعمل التصاوير
المثلة ايزيس وعلى حجرها ولدها هوروس ونقش صورهما الصياغ
على فصوص الخواتم وطفق الرومان يقدمون على اقتنائها اقداما
عظيماً وراجت تجارتها حتى ان الشاعر يوينال المجان قال بأن
الرومان قد باتوا يتعيشون من فضل ايزيس ، ولشدة حرصهم على طهارة
معبدها كانوا يستجلبون ماء النيل لغسله ولاغتسال كهنته . وبني
دوميتيان مدرسة فيه أحضر لها ما شاء من مكاتب الاسكندرية

(١) غربي منف على نحو سبعين ميلا لجهة النظرية

وزرع لنفسه بستاناً على حافة نهر تiber الذي فاق بحسن ورده
 المصري الشتوي حدائق منف والاسكندرية
 (١٩) وبزمانه كان الشاعر يوينال شيخاً وحاكماً عسكرياً على أطراف
 صحراء مصر، فيخبر بأنه وجد الجنود الرومانية هناك خالعة العذار
 لا أدب يردعها عن الفساد ولا مروءة تصدها عن الجور على السكان
 والقضاة لا يقدرون على الوصول الى الحقيقة لمجازاة الجانين لأن
 الشهود كانوا يخافون من قول الصدق ضد الجند

(٢٠) ولما كان هذا الشاعر مطبوعاً على الانتقاد رأى بعبادة البهائم من
 المصريين ما يشغذ قريحته فيقول بأنهم لعبادتهم اكثر البهائم لم
 يتركوا لقوتهم لحماً يستحلون اكله سوى لحم بني آدم ويستشهد على
 ذلك بما رواه من قتال كان بين مدينتي عمبس وطنطيرا البعديتين
 مائة ميل عن بعضهما وكان أهل عمبس يعبدون التمساح وإلهاً
 آخر برأس تمساح اسمه سواق بينما أهل طنطيرا كانوا يعبدون الثور
 ولهم براعة بصيد التمساح فالتقوا يوماً ما بسيران كان لهم وتقاتلوا
 فانهزم أهل عمبس إلا رجلاً منهم عثر وسقط فمسكه أهل طنطيرا
 ومزقوه واكلوه . ولأن اسم ملكة السماء عند المصريين هو
 ايزيس واسم الكرّاث ايزي ظن يوينال بأن معبودهم هو البصل
 فزاد بقوله عنهم انهم بعد عبادتهم البهائم والطيور والاسماك والبقول
 لم يفتهم معبود سوى إله العفة

(٢١) وحكى ايضاً عن قتال آخر شاهده بين مدينتي اخيريـنخون وقينو بوليس لأن هؤلاء كانوا يعبدون الكلاب فاصطادوا سمكةً يعبدها الآخرون اسمها اوقصيرينخوس واكلوها فقام أهل السمكة يقتلون الكلاب ويأكلونها واشتعل القتال بين الفريقين الى أن صدتهم جنود الرمان عن بعضهم

(٢٢) أما المؤرخ بلوتارخ فانه مع علمه بوجود هذه العقائد عند الجبال من الناس يقول بأن اعتقاد الكهنة انما كان بالله غير منظور وانهم كانوا لا يكتفون بالصلوة دون الحسنات ويزعمون بأن كلما لاضرر منه حلال وما ضرّ فهو الحرام^(١) فلو حركوا ناراً بالسيف كان ذلك حراماً لأن النار تضر بفرنده . ويقولون بأن ليس كل من لبس الكتان واغتسل وحلق رأسه بكاهن وان سُئلوا عن اسم الآله أجابوا بأن الشمس واحدة أما اسماءها فكثيرة بلغات الناس وهكذا الآله . وكان لهم عيد للآله طوط يحتفلون به ليلة العشرين من القمر يأكلون فيها العسل والتين اليابس وينشدون « طيبة هي الحقيقة » ولكنهم بوجه الاجمال كانوا كسائر أهل المشرق يعتقدون بوجود إله صالح وإله آخر شرير ويعتقدون بأن الآله الصالح مركب من ثلاثة بالعدد الذي هو عندهم صورة السكالم ، والزاوية التي بها يعبرن

(١) وهو مذهب فلسفي جليل عند من تبصر

عن عوزيريس وايزيس وهوروس . وكان عيدهم الكبير تذكاراً
ليوم حزن ايزيس على بعليها عوزيريس الذي قتله تيفون ونشر
أشلاءه وبددها فجمعتها ايزيس ودفنتها ثم نشأ ولدهما هوروس
وثأر بقاتل أبيه ، وانه كان لتيفون ابنان اسم احدهما هيروسوليموس
والآخر يهودا هما أعداء المصريين لكننا لا نرى أثراً يدلنا على هذه
القصة بين رسوم ثيبة القديمة فرما انها مما جد بالارياف ومنهارك
الاغريق حكايتهم اللطيفة عن حزن وينوس على معشوقها ادونيس
أو انها مأخوذة عن حكاية استارته الالهة الفينيقية (١)

(٢٣) ثم بينما كنا نرى هوروس بصورة فتي وعلى رأسه تاج صرنا نراه
بصورة ولد صغير وأصبغه على فمه ، يعنون بذلك انه قاصر عن
الكلام ، فالرومان لم يفهموا هذا الرمز وحسبوه اشارة الى الصمت
فسموه إله الصمت

(٢٤) ولما تمت الاحدى عشرة سنة لحكم دوميتيان طلب من السناتو
اقلته فلم يقلوه وباعوه لعشر سنين ثانية فاحتفلات الاسكندرية
بذلك احتفالاً كبيراً وضربت نقوداً جديدة تؤرخ جلوسه الثاني
أتت من أبدع النقود المضروبة لذلك الزمان

(١) ويمثل هذا اليوم تحتفل الان مصر بعيد شم النسيم

الفصل الرابع

سنة ٩٧ م الى سنة ١٨١

نروي تراجان هدریان والانطونین

(١) النقود هي الاثر الوحيد لحکم نروي على مصر ولكنها تكفي للثناء عليه لأنها تؤرخ رفعه الجزية عن اليهود التي كان قدرها نصف مثقال عن كل انسان منهم وهو القدر الذي كان قديماً مفروضاً عليهم لخدمة الهيكل

تراجان سنة ٩٨ م الى سنة ١١٧

(٢) اما أجمل النقود المسكوكة لذلك الزمان فكانت التي لتراجان للسنة الحادية عشرة من ملكه فانها بدلاً من تشخيصها الانتصارات الامبراطورية وفيضان النيل والالعب والتعبّد لسيرايس صارت تنقش بالرموز المصرية واليونانية لابل ان كميّتها بهذا العهد والذي بعده فاقت كمية كل النقود المضروبة قبلها واكثرها كان من النحاس بقطع صغير من وزن مائة وعشرة شعيرات الى مائتين وعشرين شعيرة وهو ما صارت العرب فيما بعد تسميه المثقال الذي

هو تسع وتسعون شعيرة وبعض هذه النقود كان من فضة لكنها غير خالصة

(٣) ورغماً عن احتقار الرومان للمصريين واعتبارهم آداب وصناعة اليونان فانهم كانوا يثقون بأطباء المصريين ويتصدقون مصر لمشاورتهم فكان أحد أطباء قيقروا منهم ولما هر بوقراط المصري شفى بليني الأصغر من مرض كان بعينه كافأه هذا بأخذه له فرماناً يجعله رومانياً ، واذ لم تجزله القضاة هذه الجنسية لسبب نسبه الشرقي تكلفوا جعله أولاً يونانياً وثم رومانياً اي حرراً

(٤) ومن اقتصادات تراجان الحسنة الذ ذكر كان تخزينه بأهراء روما خراج سبع سنين من حبوب مصر احتياطاً من جذب يطراً على زراعة مصر ويقطع واردتها فجري خلفه على هذه القاعدة سنيناً وآتى زمان أمحلت فيه مصر ورأت الاسكندرية انقلاب الآية بأن روما صارت تمدّها بالطعام وتفتخر باقتصادها وكرمها على المصريين

(٥) ولهذا الزمان كانت الاسكندرية لم تزل قطباً لتجارة المشرق مع أوروبا ومرسى لمراكب سورية تزدهم فيه السفن بشراعاتها المختلفة الالوان والاشكال وميداناً لتجار المسكونة من كل لون وزى ولسان

(٦) أما أهلها فانهم على قول أحدهم ديون الملقب بغم الذهب لم يكونوا حسني السيرة قط بل ان همهم كان بطونهم وفروجهم وسباق الخيل وحرقتهم التهريج ليضحكوا الرومان بسفاهتهم

(٧) وبعد أن كانت الرومان قد أخفقت بزحفها ضد العرب في عهد أغسطس نراها الآن قد احتلت حجر عاصمة النبط ولم تنزل آثار احتلالهم لها اربعائة سنة ظاهرة للآن

(٨) ومن آثار هذا العهد وبزمان حاكم مصر لوقيوس سوليقيوس سيميوس ما زيد على معبد بانوبوليس^(١) بالصعيد باسم تراجان بالسنة الثانية عشرة من ملكه ورواق معبد سيرابيس وايزيس بالمرج الأعلى بالسنة التاسعة عشرة من ملكه وأيام حاكم مصر مرقس روتيليوس لوبوس وكان تراجان بأول سنة من ملكه قد بنى معبداً صغيراً في دنديره بالقرب من معبدها الكبير تذكاراً لزوجته بلوتينا باسم وينوس الفتاة ومع سكوت التاريخ عن حوادث هذا الزمان نفهم من صورة تقود الاسكندرية للسنة الرابعة عشرة لتراجان قدومه اليها آيماً من فتح أرمينيا والعراق وبلاد العرب راكباً على عجلة تجرها أربعة أفيال ، ومن صورة تقوده للسنة السادسة عشرة من ملكه نفهم اقلاعه عنها بهيئة الإلهة ايزيس ماسكة شراعاً تدفعه الريح عن جزيرة الفنار

(٩) وبهذا الزمان حصل اعتناء باصلاح الترعة التي بالقرب من

(١) وتدعى أيضاً خيميس وهي الآن اخميم ومنها خرج ذو النون
الاخميمي رئيس الصوفية

بوسطى التي هي الآن تل البسطه وكان أول خرقها من نيقو ثم
اعتنى بها فيلادلفوس لكن لضعف مصب النيل اليها بهذا الزمان
رأوا أن يجعلوا رأسها فوق ما كان لحفظها من تسطي الماء المالح
فابتدأوا فيها من بابل بالقرب من منف آخذين بها إلى هليوبوليس
ثم شينا وترانوروم وهيروبوليس وسيرايون إلى البركة المالحة العليا
ومنها إلى البحر الأحمر وهناك بنوا لها سدًا بموضع سموه قليسمون
على عشرة أميال جنوبًا من ارسينويه التي كان تراكم الرمل على
ساحلها قد أبعدھا عن البحر ولا يعلم كم طال استعمالها بل المعلوم بأنها
تعطّلت من عدم الاعتناء بها حتى أصلحها العرب عند استيلائهم
على مصر. وعليها بزمانهم ركب حجاج الافرنج بطريقهم لبيت
المقدس

- (١٠) ولما كانت الاسكندرية أم التزوير الكنائسي فبلا شك أن منها
خرج تركيب وصايا الأسباط الاثنى عشر من تليق يهودي متنصر
فأثار به شجا المسيحيين لتبشيريه بعود المسيح على رأس الألف سنة
واليهود لاشارته بقرب رجوع ملكهم فهاجوا ضد الرومان وأقلقوهم
- (١١) والأرجح أنه بهذا الزمان أيضاً نشر الشاعر حسيقل نشيده الحماسي
باللغة اليونانية بخروج اليهود الأول من مصر كأنه يغريهم بالخروج
منها ثانية، لكن لم يصل إلينا من هذا النشيد سوى بعض مقاطع
- (١٢) فوجود مثل هذه التصانيف كان إما نتاج حركة أفكار يهود

ذاك الزمان إما سبباً لها لأننا نراهم بالسنة الثامنة عشرة من هذا العهد هاجمين ضد الاغريق ، وبالي بعدها عاصين على الرومان . وكانوا بأول الأمر الفئة الأقوى بالقرى فهرب منهم اليونان لالاسكندرية لكن لما اجتمع هؤلاء مع إخوانهم بالاسكندرية صاروا هم الحزب الأقوى فوقعوا على اليهود فيها وعاثوا فيهم . ولما انتصر لهم يهود القيروان تحت قيادة أحدهم لوقواس تفاقم الخطب حتى اضطرّ الامبراطور لارسال جيش جديد وأسطول لمحاربتهم فأصاب منهم عدداً وافراً وهرب الباقون للبراري والقفار تايهين يتلصصون

(١٣) فبمثل هذه الحماقات سقط اعتبارهم وضاعت امتيازاتهم بالملكة ومع خراب هيكلهم بأورشليم وقفل هيكلهم الآخر في عينون بأمر وسبازيان أصبحوا أذلاء قانطين فمالت أفكارهم للتوراة وتأويل النبوات المشيرة إلى زمان إتيان المسيح فتتصرّ منهم كثيرون إذا عصفت ريح الغنى قصفت أخا

عنائاً ولو بالفقر هبت لربّت

وربما أنهم بهذا الزمان قد كُلفوا ثانية لدفع الجزية التي كان نروى قد عفاهم منها

هدريان سنة ١١٧ م الى ١٣٨

(١٤) في السنة السادسة من حكم هذا الامبراطور النسيط نراه زائراً مصر بعد أن كان تفقد أحوال اسقوطلاندا شمالاً راغباً الاطلاع على أحوال مملكته برمتها . وربما ان الذي دعاه لزيارة مصر كان قتالاً ثار بين أهل منف وهليوبوليس لأجل عجل ادعى فريق منهم بأنه أليس والآخر بأنه مناوس بعد أن كان قد مضى لمصر عدة سنين وليس لها عجل مقدس . وإذ كان هديان صاعداً بالنيل لزيارة ثيبه سأل المنجمين عن بخته فأجابوه بأنه لا تتم له السعادة حتى يفقد أعز ما عنده وكان نديمه الشاب انطينوس يسمع ذلك فقال اجعلني أن أكون أنا الفداء ورمي بنفسه للماء بالقرب من القرية المسماة بيسه فهلك وحزن الامبراطور لفقده حزناً عظيماً فشاد بذلك المكان مدينة تكون تذكراً لمروءته سماها انطينوبوليس وزينها بالمعابد ولم تزل آثارها ظاهرة للآن ازاء هرمو بوليس على الضفة الشرقية من النيل وصار الرومان يكرمون تمثال انطينوس كأحد الآلهة ويسيّمون له عيداً بالألعاب والسباقات مما كان يستغربه أهل الصعيد باكرام الآلهة ثم بالسنة السابعة من وفاته ضربوا له تقوداً بالاسكندرية باسم انطينوس الفتي

(١٥) واجتمع الامبراطور بعلماء الاسكندرية وحادثهم وزار ضريح

يومي وأنفق مبلغاً كبيراً على زينة البلد وبنيات جديدة فيها
فأكرمهم أهلها بأن أبدلوا اسم شهر ديسمبر إلى هدریان ولكن إذ لم
تتبعهم المملكة أعرضوا عنه . ومن العلماء الذين أكرمهم
هدريان كان ديونيسيوس استاذ الفلسفة في مليتوس وافسس
وبوليمون الخطيب الذي كان يجتال في انحاء المملكة بحاشيته وخدمه
على نفقة الدولة للخطابة

(١٦) أما علماء الاسكندرية بهذا الزمان فكان منهم ابيان
مؤرخ الفتوحات الرومانية والمنطقي ابولونيوس الذي لنا منه حكاية
الراعي الذي يقال بأنه رقد سبعة وخمسين سنة^(١) ثم اتبه^(١) وحكاية
رجل مات وظل شبحه يأتي بيته إلى ان ضجرت امرأته ولم يتركها
حتى أحرقت موميته

(١٧) وعاد اليهود بهذا الزمان لعصيانهم فانهم سنة ١٣٠ قاموا بأورشليم
ضد واليها تتيوس روفوس وحشد لهم يهود مصر والقيروان لكنهم
أخفقوا ونكّل بهم

(١٨) ومن الكتابات العديدة على صنم ثيبه العظيم تعلم زيارة هدریان
الثانية لها مع زوجته صاينا بالسنة الخامسة عشرة من ملكه وهي
سنة ١٣١ التي تقود الاسكندرية تشير إلى دخوله اليها، وتعلم أسماء

(١) ولعل هذه الحكاية هي المشار اليها بخبر اهل الكهف الوارد بالقرآن
أو ان هذا خبره مما زعموا انه حصل بعد هذا الزمان

بعض ولاية مصر الذين لم يذكرهم التاريخ وإلا فإن أسماء الزائرين تكاد تغطي ساقى الصنم ولو أمكنهم ملأوا الثلاثة والخمسين قدماً منه بتفاهاتهم المعتادة أما الصنم المذكور الذي أصله من حجر واحد كان حينئذ مكسوراً ولما رآته الملكة صايينا ورآه قبلها استرابو ويويونال وبوزانياس كان نصفه على الأرض وإذا لم تسمع منه الملكة بأول صباح نغمه المشهور تكدرت فبالغد سمعته (١)

(١٩) ومن هذه الكتابات أيضاً عدة أبيات باللغة اليونانية ايولييك القديمة التي هي ألطف مخرجاً من الدوريك تؤرخ زيارة هدریان وملكوته للمدينة كما أننا نجد اشارة لهذه الزيارة بصور من الفسيفسا فى بالسترينا التي تبعد ليلتين عن روما، تمثل النيل وتمساجاً ساجاً فيه وحصان النهر وزهر البشنين والامبراطور قائماً بجذاء معبد هناك ومناظر من الصعيد والسودان وحيوانات كالزرافة والفهد ووحيد القرن والطير الخرافي فينكس وبتراً اسوان الفلكي . والافرنج تسمى الفسيفسا موزاييكا وتزعم بأنها محرفة من اسم موزيوم الاسكندرية حيث وجدوا آثار هذه الصنعة لكن لا يبعد أن يكونوا قد أخذوا هذا الاسم من العرب فيكون محرفاً من مجزّع وهو أصلاً من احجار

(١) قبل انكساره لم يكن له نغم الذي سببه امر طبيعي يصادف أحياناً بالصخور المنخورة عند الفجر من الهواء فيها متى سخن فيخرج صافراً

طبيعية أما الآن فأكثره من حجارة مُصنّعة ولها معمل بنفس
الواتيكان قد شهدناه فيه

(٢٠) وها ان سبعين سنة قد مضت للآن على التبشير بالمسيحية من
مرقص الانجيلي وصار عدد المسيحيين بالاسكندرية كثيراً إلا ان
حالة البلاد اجمالاً لم تتحسن فاننا نرى هدریان يكتب حينئذ
لصديقه سرويانوس ما فحواه

« من هدریان اغسطوس إلى سرويانوس ، سلام . أما بعد
فمصر التي كنت تطنب لي في مديحها أيها العزيز فاني أجد أهلها قومًا
بلا رصانة ولا تمييز فمنهم من يعبد سيرايس ويدعي بأنه مسيحي
ومنهم من هو من كهنة المسيحيين ويكرم سيرايس وليس منهم
كاهن ولا حاخام أو سامري إلا ويعمل بالسحر وكلهم محبوبون
على حب الفتنة والصلف والضعينة لكنهم أغنياء أصحاب همة وأهل
صناعة يعمل الزجاج والقرطاس والكتان وعندهم حُرَف للعرجان
والعميان والمكتوعين يعبدون إلهًا واحدًا هو لا شيء ، وها اني قد
أوليتهم كل إحسان وأعدت لهم امتيازاتهم وزدتهم لعلمهم يشكرون
ويحسنون طويتهم »

ونرى على نقود السنة السادسة عشرة من هذا العهد صورة
الملكة متكئة على أريكة في مركبها اشارةً إلى سفرها من
الاسكندرية

(٢١) وبالزمان الأخير إذ صار سيرايس أعظم آلهة المصريين قابض الأرواح والديان في اليوم الأخير ضعف يقينهم بغيره . ولما سُئل هاتف الغيب عن الإله أجاب « أنا را ، أنا هوروس ، أنا عوزيريس » أو كما تقول الروم « أنا أبولو أنا الرب أنا باخوص » أنا محرّك الساعات ومدبر الفصول مجري الهواء والأعصار ومعيد الليل والنهار أنا رب الأفلاك وأنا النار الأبدية القرار . فمن هذا الاعتقاد نتج اشتباه هدریان بدين القوم . وكان يريد أن يضيف المسيح إلى عداد آلهة الرومان لكنه كان يكره إقامة التماثيل بالمعابد حتى صارت العارية منها تعزى إليه فيما بعد . وكيف كان الأمر ليس من الغريب وجود نزعة من عقائد الأقدمين عند المتصرين لذلك الزمان

(٢٢) فان المسيحيين الأولين كانوا يهوداً من معاصري الحواريين وجدوا بالمسيح المنتظر تميماً لدينهم . وأما القبط والاغريق فانهم أحالوا الدين لما وافق خرافاتهم الأولى ، وإياهم عنى بولس الرسول بتحذيره تيموتاوس من المنافقين . وكان قيرنطوس أول من سعى لتطبيق المسيحية على فلسفة الأقدمين فكان يزعم بأن يسوع هو روح من الأرواح التي يبعثها الأزلي من زمان لزمان لتسوس العالم الأرضي ، وكثيرون يظنون بأن سفر الوحي هو من وضعه لما فيه من المشابهة لهذا المذهب

(٢٣) أما مؤسس المسيحية على المبادئ المصرية فهو باسيليدس القائل

(٢٤) ومن معاصري باسيليديس كان قربوقراطيس الاسكندري الزاعم بأن النفوس إذا شعرت بصفات الإلهية التي لها قبل التجسد تأهت وأن يسوع كان ممن أشعر بها، وكان يقول بأن آداب السلوك غير ضرورية. وخلفه ابنه ايفانس على هذا المذهب وزاد عليه شيئاً من الفلسفة الافلاطونية. وبعده ظهر ايزيدوروس بن باسيليديس يعلم بمذهب أبيه في هذا العهد. وبالعهد التالي ظهر والتينوس الصعيدي المولد الجاعل الإله من ثلاثين اقنوماً. وظهر غيره بمذهب يسمى عوفيتا وهو إكرام الحية فقالوا بأنها المسيح أو أعظم منه لأنها أول عارف بالخير والشر وكانوا يصنعون أحراراً بصورتها وباسم يهوه أيضاً كما باسم ابراقس

(٢٥) وكافة هؤلاء القوم كانوا يعتقدون بالسحر والرقى ولهم كتب بالتعاويد والخطاب للآلهة والشياطين والاقسام عليها لتجيب غرضهم وكتب أخرى بالتنجيم والفراسة ومكاملة الجمادات مع أن الفراسة علم طبيعي ومكاملة الجمادات من الشعوذة المحضة التي نسميها التكلم من البطن وكتب الرقى انما أساسها فكان ما نعرفه الآن « بالهينوتيسم » العلم الطبي

(٢٦) ثم اننا إذا نظرنا إلى الدين المصري القديم وجدنا بأنه قد جاز فيه بأن عوزيريس يُقتل وأن يكون مع رآ وهوروس إلهاً واحداً وأن سيكون للبشر فادٍ منهم يوم الحساب

(٢٧) أما الكاتب المسيحي الذي يعتمد عليه بعد المعاصرين للحواريين فهو يوستين اليوناني الأصل السامري المولد الذي درس الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وتنصر عن اقتناع عقلي ثم ذهب لروما مبشراً بالدين الجديد ولأنه أهان الأصنام فيها قتله الامبراطور أنطونيوس بيوس وصار يُعرف بيوستين الشهيد

(٢٨) وكانت العادة قد جرت بأن استاذ الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية يكون أثينياً فكان بالقرب من هذا الزمان استاذها اثيناغوروس، لكنه بعد قليل تنصر وهو ويوستين كانا أول العلماء المنتصرين لذلك الزمان لكنه لما خاطب الامبراطور ماركوس اوريليوس بهذا الدين لم يتجاوز فيه الشهادة بالبعث والتوحيد

و بأن المسيح هو حكمة الخالق وإرادته و بأن المحبة واجبة حتى
للأعداء .

ولا غبث والناس لم يخلقوا سدى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة
(٢٩) وبعهد هدریان كان ضرب النقود غزيراً وبشكل جديد فان
منها ما كان عليه صورة مركب يدفعه الهواء إشارة إلى قدوم
الامبراطور لمصر بالسنة السادسة من جلوسه ، ومنها بالثامنة بصورة
أنطينوس كأحد الآلهة، ومنها بالحادية عشرة عند تجديد انتخابه لعشر
سنين ثانية ما عليه اسماء بعض جهات مصر والحياة الصالحة والشريرة
وصورة ايزيس ربة العشق وسيرايس ربّ الخوف وصورتهم مع
ولدهما هوروس قائماً على نسر بعد أن كانوا يمثلونه برأس نسر فقط

انطونيوس بيوس سنة ١٣٨ م الى ١٦٢

(٣٠) ولما انتقل الملك إلى أنطونيوس بيوس صادف ذلك انتهاء
الألف واربعمئة وستين سنة من دور الشعري اليمانية الكبير (١)
وهي النجم المسمى أيضاً سيريس والكلب الذي يطلع من

(١) أي ان الشهور ترجع فيه الى مدارها الاول وهو ما تسميه الافرنج
« العام البلاطونيك » كما تسمي الهوى العذري « العشق البلاطونيك »
أما بخلاف ذلك فالنسبة الى افلاطون وفلسفته هي « بلاطونيست أو
بلاطونيسيان »

جنوب مصر بأبام قليلة قبل فيضان النيل وابتداء المصريين سنتهم من طلوعه وبدوره هذا ينتظرون رجوع طيرهم الخرافي ويتيمنون به فأقاموا لذلك الافراح وضربوا النقود بصورة هذا الطائر الميمون الذي تسميه اليونان فينيكس المذكور آنفاً وفي هذا الزمان كانت مصر بطمان وأمان وفيضان النيل لا ينقص عن ستة عشر ذراعاً في منف وهو الحد المرغوب من قبل ستمائة سنة بزمان المؤرخ هيرودوتوس ومنه يتضح بأن سطح أرض البلاد لم يرتفع عما كان قبل هذا الزمان الطويل (٣١) ولما شاعت حرفة التنجيم بين الاغريق صارت الاسكندرية تضرب نقودها بصور الابراج . وفقراء اليهود وجدوا بذلك وسيلة لاكتساب المعيشة ففسأهم كنّ يجلسن بالأسواق ينجمن للناس ويفسرن الأحلام . ومن أوراق وجدت مدفونة مع مومية في ثيابه تفصل طالعاً بتمامه بالدرجة والدقيقة مع أبراج الشمس والقمر والكواكب بذلك الوقت أمكن لنا معرفة زمان هذا الامبراطور تماماً بحساب الفلك . ووجد أوراق غيرها تفصل أبراج كل ساعة من هذا الزمان بغاية الدقة والضبط لاستعمال المنجمين

(٣٢) لكن لم ينحصر علم الفلك حينئذٍ بالتنجيم فان قلوديوس بطليموس الفلكي والجوغرافي كان إذ ذاك زينة مدرسة الاسكندرية واليه ينسب اكتشاف دوران الشمس والقمر والكواكب حوالى الارض من الشرق للغرب مرةً بالأربعة والعشرين ساعة ، والحال أن هذا

علم قد عرفه الأقدمون وهو أثبتته بالبراهين فصار ينسب اليه
وبوضعه المجسطي مدوناً الكسوفات التي عرقتها بابل والاسكندرية
في مدة الثمانئة سنة قبل زمانه قد أمكن لنا تحديد زمان ملوك بابل
والفرس واليهودية ومصر تحديداً باتناً. وبتفصيله طريقة عمل الكرة
الأرضية ورسم الخارطات يكاد أن يحيط بهذا الفن على ما نعرفه
الآن كما ان افاداته الجوغرافية تفوق بدقتها كل وصف من نوعها
ظهر لذلك الزمان. وكتابه بالانعام هو أحسن ما لدينا من آراء
الأقدمين بهذا الفن

(٣٣) وبهذا الزمان أمر الامبراطور بمساحة السكك العسكرية بالمملكة
وسموا ذلك الدليل الانطونيوني فكانت سكك مصر العسكرية ستاً
أولها من النوبة إلى بابل على طول حافة النيل الشرقية وثانيها من
منف شرقاً إلى هليوبوليس وحي اليهود وقليسمون حيث تمر بترعة
تراجان للبحر الأحمر وثالثها من منف إلى بلوزيوم متصلةً بالثانية
على مسافة ثلاثين ميلاً ثم عند بابل ومفرقة عنها عند شيناوترانوروم
ورابعها من الصحراء إلى البحر الأحمر عن طريق سيراينون خمسين
ميلاً من قليسمون وهي أقصر من الثانية بنحو مائة ميل تمر بحافة
النيل الغربية عند هيراسيقاميون بالنوبة إلى الاسكندرية منحرفة
عن النيل عند اندروبوليس على بعد ستين ميلاً من الاسكندرية
وخامسها من فلسطين إلى الاسكندرية على شاطئ البحر المتوسط

من رافعه إلى بلوزيوم صاعدةً برًّا هربًا من طوفان النيل بتلك
البقعة ثم لاحقةً بالسكة السالفة عند اندروبوليس وسادسها من
قبطوس على النيل إلى برانيقه من البحر الأحمر وبينهما عشرة منازل
أو ما نسميه أيضًا قُنَاقَات بين كلِّ منها ليلة أو خمسة وعشرون ميلًا.
نعم ان سيينه كانت آخر حدود مصر الرومانية إلاَّ إن سلطة
الرومان لم يكن لها فعل فوق هيراسيقاميون ابتعادًا عن مجاورة
عربان تلك الجهة من أسلاف البشارين وغيرهم أصحاب العيون
الخيفة

(٣٤) ومن المؤرخ الريّان نعرف كيف كانت أحوال مُدُن شواطئ
البحر الأحمر بذاك الزمان والمسافات بينها والسكان فيها وأهمية
تجارة مصر الداخلية والخارجية إلاَّ ان إذ كانت الأموال الواردة
لمصر تنتقل من يد ليد وبلد لبلد بطريقها من بلاد العرب كان
الرومان يجهلون مصدرها الهندي والحبشي ويظنونهم عربيًا. فان
المصريين كانوا يرسلون نسيج الكتان وأواني الزجاج والنحاس
والصفر لسك النقود والحديد لعمل السلاح ويستجلبون العاج
وسن الكركدن والفولاذ الهندي والخبر والحرير والعبيد
وصدف السلحفاء والمرّ والبخور والتوابل وتسهيل غايات تجارتهم
في البلاد العربية كانوا يهدون ملوكها الخيل والبراذين وأواني
الفضة والذهب. ويذكر هذا المؤرخ تجارتهم بالحبوب والزيت

والقند ومراكب الخوص وهي أول مرة عثرنا بها على ذكر القند ومع ذلك يظهر بأنه كان صنفاً قديماً معروفاً، إذ لو يكن حديثاً لكان المؤرخ أشار إليه خاصة

(٣٥) ومن بعض الكتابات على ساقى أبي الهول بالقرب من الاهرام نعلم زيارة هذا المؤرخ له وخبراً آخر كنا نجهله وهو وجود الأطباء بجمية الجيش الروماني فان أحدهم المسمى استقليبياديس الكاتب اسمه هناك يقول بأنه كان طبيب الفيلق الثاني ومن كتابة على قطع من الخزف بقلم رومي ردي بصفة وصولات بالرسومات على صادرات الحنطة والفول والجزية نعلم بأن الجزية التي كانت ستة عشر درهماً في عهد وسباريان صارت بعده سبعة عشر درهماً فضة وهي بالنسبة لحال ذاك الوقت تحسب فاحشة إلا أن تكون مضروبة على أرباب البيوت من الرجال فقط

(٣٦) وبهذا الزمان صار بناءً معبد بالمرجة الكبيرة للإله عمون اقنيف وفيه تمثال الامبراطور رافعاً قرابينه لهذا الإله ولعوزيريس وايزيس وهوروس. وبنى أيضاً هذا الامبراطور مسرحاً بالاسكندرية لسباق الخيل، وبابين للمدينة سمي أحدهما المواجه للبحر شمساً والآخر المواجه بحيرة مريوط قمراً، وفتح بينهما طريقاً واسعاً يخترق المدينة عرضاً لكنه لم يكن له ليخلو زمانه من البلابل فان أهالي الاسكندرية أثاروا فتنة فيها وقتلوا الحاكم وبنار خوص فاستحقوا عقاب الامبراطور لهم

مارقوس اوريليوس سنة ١٦٢ م الى ١٨١

(٣٧) ثم انتقل الملك إلى مارقوس اوريليوس فضربت الاسكندرية نقودها باسمه ، والتي للسنة الخامسة من جلوسه ترى عليها صورة انسان عظيم الجثة متكئاً على تمثال أبي الهول وحاملاً بيده قرناً ملؤه فاكهة وعنباً وحوالي العالج بين يديه ومن فوقه ستة عشر طفلاً تُسمى بلغة الرومان « كُوبيد » وكل ذلك رمزاً إلى النيل العظيم وبركته وارتفاعه ستة عشر ذراعاً ، وبلغة الرومان « كُوبيت ». وكان وسبازيان نقل صنماً على هذه الصورة إلى روما وأقامه في قصر السلام بصفة إله النيل . وبالسنة الحادية عشرة من هذا العهد ترى على النقود صورة الإلهة ايزيس قابضة شراعاً تدفعه الريح لجهة المنارة اشارةً لقدم الامبراطور إلى الاسكندرية

(٣٨) وفي السنة المذكورة انتقض الجند المؤلف من العربان المستأجرة وتفرق في القرى يعيث فيها فزحف القائد اوديوس قاسيوس ضدهم ونكّل بهم وإذ عاد بجيشه منصوراً لعبت الحمية برأس الجند فصاحوا باسمه امبراطوراً على المشرق فأذعن لهم ومشى بهم للاستيلاء على سوريا تاركاً ابنه ميقيانوس حاكماً على الاسكندرية فاستقبله جيش سوريا بالخضوع لكن إذ بعد قليل جاء الخبر

بزحف مارقوس ضده نكثوا عهدهم معه وقتلوه وقتلت جنود الاسكندرية ابنه وعادت البلاد لطاعة مارقوس (٣٩) وهو بوصوله للاسكندرية أعلن عفوه عما كان ، وأكثر ما فعل بأولاد قاسيوس الآخرين فإنه أبعدهم تاركاً لهم نصف ميراثهم وكان يتجول بالمدينة كأحد الأفراد ويزور المعابد ويحضر مجالس العلماء بالموزيوم وأقام تمثاله بالمدينة لباساً الجبة الرومانية لا ، الملوكية كسلفائه

(٤٠) وكانت الاسكندرية لم تزل قطباً لعلوم الدنيا بأسرها لا مثيل لمكتبتها ولم تكن بعد قد أثرت فيها المسيحية بل كانت اشتغال النساخ العديدين بجوار المكتبة ، وأكثرهم من البنات ، بنقل كتب الأقدمين بالخط الرومي الديواني والنسخي

(٤١) وأكثر كتب هذا الزمان بالخط الديواني كانت على الرق وقليل ما وصل إلينا منها ككتاب مسامرة الالباء للعالم أثيناوس من نوقراطيس بالقرب من سايس^(١) على حافة النيل الغربية الذي يقول بأنه جمعه من ثمانمائة كتاب مختلفة المواضيع . وقاموس واليريوس هر بوقراطيون الاسكندري يفسر فيه كلام خطباء اليونان العشرة .

(١) الان صالحجر

والفتاوي الاثنيّة ويذكر سير الأشخاص الذين ألع اليهم الخطباء .
 وكتاب بالعروض يُسمى الانخيريدون من تأليف المنطقي هيفاستيون .
 وكتاب باصطلاحات التعبير والكلام المنحوت بسائر الفنون لذلك
 الزمان تأليف المنطقي يوليوس بولوقس من نوقراطيس أهده
 للامبراطور قومودوس . ونسمع بكتاب من تأليف خيرون معاصر
 بولوقس بأخبار كهنة مصر وتراجم ملوكها لكنه يا للأسف مفقود
 (٤٢) ومن كتب هذا الزمان أيضاً كتاب المحاورات للوقيان كاتم
 أسرار حاكم مصر يُستنتج منه ضعف اعتقاد الجمهور بمذهبهم القديم
 لأننا نراه يتجرأ على السخرية من عبادتهم للبهائم والأباريق ومن
 حزنهم لموت العجل ايبس وتصديقهم بالسحر ونصبهم الموميات
 حذاءهم وهم على الطعام كأنها تشاركهم به ووضعها رهينة عند حاجتهم
 للاستقراض وحلقهم رؤوس شبانهم إلا ذوابة يرخونها فوق اذنه
 المني كعادة ملوكهم في ثييه من قبل الفين وخمسة سنة

(٤٣) لكن لم يتم هذا العهد حتى تواترت الدلائل على انتشار المسيحية
 في مصر وأعظم برهان على ذلك أننا نرى مطران الاسكندرية
 مضطراً لرسم ثلاثة أساقفة لمدن الداخلية. والعلماء الوثنيين أكثر
 اشتغالا بالتدبير على المذهب الجديد ومن ردّ اوريجين على
 اعتراضات أحدهم قلسوس نعلم بأنهم لم ينفوا صحة الحديث الانجيلي ولا
 المعجزات المنسوبة ليسوع لكنهم يعتبرونها من نوع السحر وينكرون

قدّامة التوراة زاعمين بأنها منقولة عن مذهب المصريين القديم بالتوحيد ويحتجون بأن علماء اليهود لا يرون بالنبوات ما يشير إلى مجيء المسيح بذاك الزمان ويدّعون بأن المذهب المسيحي يثبّط الهمم عن الاشتغال بالعلوم وغفرانه للخطاة مما يغريهم على المعاصي (٤٤) فلذلك نرى بأن رد اوريجين على هذا التقرير ينحصر بتأويله للنبوات وباستشهاده بسمو آداب المسيحيين وتمسكهم بهذا الدين رغمًا عما أصابهم من الاضطهاد والعذاب، وباستناده على النبوات يبرهن على أن الاختلاف بين اليهود والمسيحيين إنما هو على تأويلها فقط بينما قلسوس يعترض على قصص التوراة يرمته وخبر خلق آدم فيها على صورة إله لا صورة له فلولاً أن مجمع نيقيا فيما بعد يضلل ويكفر من خالف تأويله من اليهود لما آل الجدل بين أهل الكتاب إلى التلاعن والعدوان

(٤٥) ومن الحيل المصرية المنكرة كان تلفيق الكتب لأغراض الدين كالنشيد السبيلي الذي هو خلاف النشيد الوثني قبله من هذا الاسم والقليمنتينا أو اقرار قلامنس أسقف روما وكلاهما تزوير محض من عمل يهودي متصّر ولا شك لأنه ينكر الوهية يسوع التي كان متمسكاً بها قلامنس رومانوس كل التمسك

الفصل الخامس

سنة ١٨١ م الى ٢٤٩

قومودوس . پرتينكس . نيجر . سويروس . قارقلا . مقرينوس
الاجابلوس . اسكندر . مقسيمينوس . بليينوس
آل غوردیان . فيليب

قومودوس سنة ١٨١ م الى ١٩٤

- (١) ابتدا قومودوس حكمه بقتله اولاد قاسيوس الذين كان أبوه قد اکتفی بابعادهم وخلق رأسه إلا دائرةً بالوسط اقتداءً بکهنه مصر ليجوز له أن يحمل عصا أنويس بالاحتفالات الدينية
- (٢) وبزمانه كان الصعيد قد أمسى قليل السكان فقيراً لضعف التجارة مع البحر الاحمر بطريق اسوان وخراب بلاد النوبه
- (٣) لابل ان تجارة الاسكندرية نفسها كانت قد خفت عن قبل من جراء مزاحمة مدينة قانوبوس على الضفة الغربية من النيل بالقرب من ابو قير لسهولة مدخلها للمراكب الصغيرة وخلوه من صخور

مدخل الاسكندرية فصار مصب النيل هناك يعرف بالمصب القانوني وهي المدينة التي انتقل اليها عدد من الكهنة قبل انتشار المسيحية والفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وفيها كرّس قومودوس هيكلًا لسيرايس وفيها كانت تصنع الجرار القانونية لحفظ أجزاء الجسد التي لا تصلح للتحنيط، رؤوسها من أربعة أشكال، شكل برأس بومه وشكل برأس كلب وشكل برأس أسد وشكل برأس انسان

(٤) ويرى اسم قومودوس بالكتابة الكهنوتية على معبد مدينة قونتريالاتو بوليس أيضًا وهو معبد قديم من بناء البطالسة وربما انه لم يكن آخر امبراطور نقش اسمه على معابد مصر القديمة إلا ان المعابد التي من بناء الاغريق قد انمحي أثرها ومعابد الصعيد التي عليها المعول بتاريخ مصر لم يتجدد شيء منها نظرًا لفقر الكهنة أولاً، وثانيًا لظهور ضعف يقين الجمهور القديم حتى أن القضاة أصبحوا لا يقيمون حكمًا للعقائد المصرية، وعدا ذلك لانتشار المسيحية مع ما فيها من اليقين بالبعث ويوم الحساب المطابق للدين القديم

(٥) أما الكهنة فكانوا لا يزالون يفتخرون بعلومهم ويحافظون على تقاليدهم وشرائعهم فكان كل منهم يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب المختص بوظيفته من وصايا الإله طوط وهو مركور اليونان وعطارد العرب وبتطوافاتهم الاحتفالية كان المنشد بينهم يتقدم الكل حاملًا

آلات الموسيقى ويليه المنجم حاملاً ساعة الرمل وغصن النخل المرموز به عن السنة وبعده يأتي المنشي حاملاً طوماراً وشاكلاً دواة ثم الحاجب حاملاً عصا الشريعة وآناء الضحية وأخيراً يكون الكاهن رئيس المعبد وكليم الآلهة فهؤلاء الاربعة أصناف من الكهنة كانوا يحفظون عن ظهر قلبهم ستة وثلاثين كتاباً من هذه القوانين وكان صنف خامس منهم أطباء يسمونهم بستوفوري يحفظون ستة من الكتب الباقية ومن وظائفهم حمل الصنم بهذا الطواف . ومجموع هذه الكتب كان عندهم كالتوراة عند اليهود والانجيل عند المسيحيين

(٦) ولكننا رغماً عن ذلك نراهم بهذا الزمان قد أصبحوا يلتمسون عذراً لعبادتهم الأصنام والبهائم بأنها بظاهرها الحسي أكثر تأثيراً على عقول العامة وأما الباطن منها فسرّه في صدور العلماء وهو أن الألوهية الخالق غير منظور وغير محسوس وهذا عين ما نقله عنهم افلاطون بعد ما أتى هليوبوليس لدرس علومهم وما هيئاً الأفكار لقبول المذهب الناصري أولاً ثم إلى مسخه مصرياً

(٧) وكان بالاسكندرية معبد مشاد من اربعائة سنة أي في عهد فيلادلفوس مكرساً لقيريس وبرزور بين الإلهتين الخرافيتين كدير للعذارى الطاهرات اللواتي كنّ بالأعياد يطفن شوارع المدينة حاملات سلة مقدسة فشاع بهذا الزمان أن ما يحملنه ضمن السلة لم

يكن إلا الحية علّة الخطية الأولى والموت وإن طهارتن غير صحيحة
فسقط اعتبار هذا الدير

(٨) فبانحلال عرى الدين القديم على هذا المنوال لم يبق للناس ما يجمع
كلمتهم أو من إله يستجيب أدعيتهم فلما سمعوا بالانجيل ومعناه
«البشرى» بادروا اليه وترجموا منه أحداً لاناجيل الأربعة بصورة لم
تكن اليونان تعتبرها ولم تصل إلينا لنحكم بها لأنها ضاعت بعد
انتشار ترجمة الكتاب برمته للغة القبطية

(٩) ومن هذا الحين ابتدأ الانقسام والخلاف بين المسيحيين وذلك
لأن أمزجة القبط أهل الصعيد نسل عبّاد ثيبه الوريين كانت غير
أمزجة الاغريق المرحى نسل عباد قيريس وبرزور بين أو برسوفين
فالولئك تعبدوا وتقشفوا ونسكوا وقالوا حاشا للمسيح أن يُصاب بل
شبه ذلك للناظرين وأن الله رفعه اليه سالماً حياً وأولاً رأوا بالدين
الجديد ما يشحذ قريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبط
وعُدّ هذا الاختلاف بينهم كفراً من الطرفين

(١٠) ومن ترجمة الانجيل للغة القبطية كان ابتداء استعمال الحروف
اليونانية فيها فصارت من الشمال لليمين خلافاً لباقي لغات المشرق
إلا أن القبط زادوا على الحروف اليونانية ست صور من لغتهم
فصارت كلها ثلاثين حرفاً وتلك الصور التي لم يكن لها مخارج يونانية
هي $\alpha \beta \gamma \delta \epsilon \zeta \eta \theta \iota \kappa \lambda \mu \nu \xi \omicron \pi \rho \sigma \tau \upsilon \phi \chi \psi \omega$ أي ش ف ك ح خ ص ومن ذاك

الوقت لم يعد استعمال للكتابة الكهنوتية سوى بالمعابد الوثنية
 (١١) وبهذا الزمان كان الفيلسوف المسيحي بنطانوس الأثيني الذي
 حذى حذو اثيناغوروس وأسس مدرسة الفقه المسيحي بالاسكندرية
 التي خرج منها بعده بهذا القرن مشاهير العلماء المسيحيين . إنما إذ
 تكاثر عدد المتنصرين بأواخر القرن التالي وجمع أخلاط الناس صار
 العلم بنظر هذا الجمهور كالكفر والزندقة ، والجهالة جلباب المؤمنين
 وكان بنطانوس أول مبشر بالحبشة بالمسيح ويقال بأنه أحضر معه
 للاسكندرية نسخة عبرية من انجيل الحواري متى عثر عليها عند
 أحد اليهود المتنصرين الذين عرفهم بأسفاره لكنها لا أثر لها الان
 فالموجود من ترجمتها اليونانية لا سبيل للانتقاد على صحته

(١٢) ومن معاصري هذا الاستاذ كان العالم اقليمس الاسكندري
 وقد خلفه برئاسة المدرسة المذكورة وربما انه كان أول من فسر
 الكتابة الكهنوتية بالكلام اليوناني بوجه يقرب من الاكتشافات
 الحديثة . وله تأليف كثيرة لا يأنف فيها من الاستشهاد بأقوال
 افلاطون وهذا الصنف من العلماء هو ما تسميه الافرنج اقلتيق
 والعرب التصوف إذ إن الاعتبار فيه إلى حسن السلوك وصفاء
 الجنان وحصر الجدل بالأعمال لا الأقوال لأن العمل هو نتيجة
 العقل والجوهر أما القول فنتيجة الحس والعرض

برتينكس سنة ١٩٤ م ونيجر سنة ١٩٤ م الى ١٩٦

(١٣) وقتل قومودوس خلفه برتينكس على كرسي روما ولا أثر له في

مصر إلا بالنقود لأنه لم يعيش سوى ثلاثة أشهر

(١٤) وكان قومودوس قد استعمل قائداً يدعى بشينيوس نيجرأي

الأسود للمحافظة على الصعيد من تعدي العربان الذين كانوا

يسمونهم شرقيين^(١) وكان هذا الرجل عاقلاً حازماً ساهراً على القيام

بوظيفته يشارك أنفاره بأعمالهم الزراعية ويمنعهم من شرب المسكرات

حتى انه لما حامية اسوان سأله يوماً أن يمدّها بشيء من الخمر أجابها

بأن ماء النيل يكفيها وكذلك لما كانت موقعة مع العربان انهزمت

فيها جنوده وشكت من عدم وجود الخمر عندها قال لها مه فان

العرب لم يكن لهم خمر أيضاً

(١٥) فلما مات برتينكس كان الاسود والياً على سورية فرفض مبايعة

سبتيموس سويروس وأعلن نفسه امبراطوراً وبايعته جنود مصر

فحشد جنوده ومشى بها لمحاربة خصمه سويروس في بانونيا من بلاد

النمسا الحديثة فالتقى الجيشان في ميزيا على الساحل الجنوبي من بحر

مرمر وقتل الاسود في مدينة قيزيقس التي العرب اخربتها سنة ٦٧٥

م ومحت أثرها وهي مدينة قديمة كانت على لسان من بحر مرمر

(١) سرازن بلغات أوروبا لا تسميته سراقن

سبتيموس سويروس سنة ١٩٦ م الى ٢١١

(١٦) ولما مات الاسود أتى سويروس زائراً مصر واهرامها وثيبه ومعابدها وضحك من عبادة سيراييس والبهائم فيها ومنح الاسكندرية استقلالها الاداري لأنه لم يعد يحسب للاغريق حساباً يقلقه بعد انكسار شوكتهم وبني فيها معبداً للإلهة الارض رحيا اليونان واوئس الرومان وحمماً سماه باسمه

(١٧) وبهذا الزمان هاجر الاستاذ بروقلوس من نوقراتيس لعدم الراحة فيها من تقلب الأحكام قاصداً اثينا حيث أقام مدرسته وكان يأخذ من الطلبة مائة درهم أي نحو أربع ليرات انكليزية من عملتنا الدارجة مرة واحدة على تعليمه وبانتقال هذا الاستاذ من البلد المذكور مسقط رأس اثينايس ويوليوس بولفس أفل نجم العلوم فيها

(١٨) والمؤرخ الوثني اسبارطيانوس يقول بأن سويروس حرّم على الناس مذاهب اليهود والمسيحيين وأما المؤرخ المسيحي عوزيبوس فيقول بأن اضطهاد المسيحيين بالسنة العاشرة من هذا العهد قد كان فظيماً جداً في كل انحاء المملكة وفيها استشهد بالاسكندرية ليونيدس تاركاً سبعة أولاد أكبرهم كان اوريجين الشهير فيما بعد. إذ ان الله سبحانه سخر له امرأة غنية ربه وعلمته فحشاً نابغة زمانه عالماً باللغة العبرية التي لم يكن يوناني يلتفت اليها وتمكن من قراءة

- التوراة بلغتها الأصلية وذلك في مدرسة اقليمنس
ومهما كان من الحديثين فاننا نعلم بأن الوثنيين لم يكرهوا اليهود
والمسيحيين عن غير دينية بل مجرداً عن أمر سياسي كانوا يخافون
معه من عصبية اليهود ودعوى المسيحية للمساواة بين الناس
- (١٩) فقال حينئذٍ ترتوليان القرطاجني ان الامبراطور يرضى من عبادة
المصريين للبهائم ويغضب من عبادتهم لاله غير منظور. ولما أغلقت
مدرسة الاسكندرية ظل اوريجين يعظ بالدين سرّاً إلى أن
انفجرت الازمة فعُيّن رئيساً للمدرسة بأمر المطران ديميتريوس ثم
اختلف معه واستعفى من وظيفته
- (٢٠) فخلفه بالمدرسة الاستاذ هيراقلاس وبزمانه ابتداء اقدم الاجانب
للالسكندرية لدرس هذا الدين ومن جملتهم كان يوليوس الافريقي
أتياً من فلسطين ليأخذ دينه عن الاسكندرية بدلاً من الجليل
وانطاكية وهو الذي وضع تاريخه المسيحي مستنداً فيه على تاريخ
مصر لما نيطو وكلاهما مفقود الآن ولولا نقل عوزيبوس عن الافريقي
لما عرفنا عنه شيئاً ولا عن مانيطو
- (٢١) وبرهاناً على فقر مصر بهذا الزمان هو أن النقود التي ضربت
بالاسكندرية بعهد سويروس كانت كلها من النحاس أو مطلية فضة

قراقلا سنة ٢١١ م الى ٢١٧

(٢٢) ولما مات سويروس خلفه ابنه قراقلاً وجيكا لكن بوصولهما لروما قتل قراقلاً أخاه واستبد بالملك وحده وكان قصيراً ضئيلاً وكان اليونان بالاسكندرية قد عرفوا سوء خلقه وبلغه بأنهم قد هجوه فلما كان بانطاكية بعث يخبر أهل الاسكندرية بأنه سيأتي لزيارتهم وليستشير الإله سيرابيس بأموره

(٢٣) فاستعد القوم لاستقباله باللياقة والاكرام وهيباً وأهلياً كل لقرايينه وبوصوله للبلد دخلها بين المشاعيل والمصاييح والزينة والأنعام الموسيقية والروائح العطرية والزهور المنشورة وبعد أخذه الراحة قدّم ذبيحته بمعبد سيرابيس وزار ضريح الاسكندر وخلع عليه منطقتيه الملوكية وزناره المحلى بالجواهر وخواتمه الثمينة فعجب الناس من خشوعه وتقواه وتعشموا خيراً

(٢٤) وإذا كانت المدينة غاصة بالمتفرجين وزاهية بالملاعب والأفراح ليلاً ونهاراً أمر الامبراطور بأن يجمعوا له شبان الاغريق بفسحة في ظاهر البلد ليستعرضهم وينتخب منهم فيلقاً وطنياً لها، فخرجت الوف منهم واصطفيت لاستعراضه يحفهم جمهور من أقارب وأصدقاء أتين للفرح معهم بهذا الامتياز فمشى الامبراطور بين الصفوف والجموع تهتف له بالنصر والبقاء بينما جنوده الرومانية تحيط بهؤلاء الشبان

عن بعيد ثم بدأت تتقدم رويداً رويداً إلى أن دنت منهم وأتمت
الحلقة عليهم فانسل قراقلاً من بينهم وباعطائه اشارة للجند صوبوا
حراهم نحوهم وصدموهم صدمة من لا يخشى قوداً وأعملوا سيوفهم
بهم حتى صبغ الدم وجه الشاطئ وامتلاً قعر البحر من الفارين
وعاد قراقلاً لانطاكية مشتغياً من اغريق الاسكندرية . ولكونهم
عذلوه على قتله أخيه وضع سيفه الذي قتل به أخاه قرباناً على
هيكل سيرايس وأمر بتسكير مراسح العابهم وقطع عنهم هدية
الطعام المعينة لهم من الخراج ومدّ سوراً وسط المدينة يقطعها نصفين
لزيادة تحصينها منهم إذ أصبحوا هم الأعداء والقبط الأصدقاء ومن
أعضاء مجلس روما يدين الامبراطور بدينهم ويشيد معبداً لالهتهم
ايزيس في وسط روما

مقرينوس سنة ٢١٧ م الى ٢١٨

والاجابلوس سنة ٢١٨ م الى ٢٢٢

(٢٥) ثم إذ كان قراقلاً زاحفاً ضد الأكراد قتله أحد الجند ، يقال
بدسياسة من رئيس جنوده مقرينوس ، فأعلن هذا نفسه حينئذ
امبراطوراً وطار الخبر لمصر فضربت تقودها باسمه ولكنه بعد
شهرين انتقض عليه الجند وقتله ، ويقال بأن صاعقة هبطت عند

موت قراقلا على هيكل سيرايس ولم تضر منه شيئاً سوى سيف
قراقلا الذي كان هناك فاذا بته

(٢٦) ولما مات مقرينوس بايعت جنود سورية باسيانوس بن قراقلا
وأخذت له بيعة مصر وأخذ هو لقب الاجابولوس أي كاهن معبد إله
الشمس الفينيقي الأجل وحكم في روما إلى أن انتقض عليه الجند
وقتلته سنة ٢٢٢ وفي مدته أفرغت أنابر روما من خراج مصر المخزن
فيها وتعطل ما كان يراد من اقتصاد سلفه

اسكندر سنة ٢٢٢ م الى ٢٣٥

(٢٧) ولما مات الاجابولوس غير مأسوف عليه، خلفه اسكندر سويروس
وكان شاباً لطيفاً حليماً فاستهان به اليونان ولقبوه بالسوري والكاهن
والخام

(٢٨) وبهذا الزمان اشتهر الاستاذ الافلاطوني عمونيوس سقاس
بغزارة علمه وعقله وصار تعليمه يُعرف بالافلاطونية الجديدة لكنه لم
يترك لنا من كلامه شيئاً نحكم به سوى شهادة تلامذته بلوتينوس
وحيرينوس واوريجين الافلاطوني ولونجينوس الذين أخذوا عنه
أجمل الصفات. ومن مدارسهم خرج فيما بعد أولئك اليهود
الافلاطينيون الذين كادوا أن يدعوا مسيحيين لولا ان مجمع نيقيا
يلعن اليهود وينفّرهم من الالتساب لهذا المذهب

(٢٩) وأفضل علماء هذا الوقت كان اوريجين المسيحي السالف الذكر لكن لانكاره العذاب المؤبد والصلوة ليسوع أغضب أسقفه وتخلّى عن رئاسة المدرسة لتلاميذه هيراقلاس وهاجر للقيصرية سنة ٢٣١ ومنها انتقل إلى صور حيث أكرمه السوريون وكان يدحض مذهب مرقيون الذي اختلط بالقرن السادس بالمذهب المانوي وهو أن إله الخير نور وإله الشر ظلام وفيه يقول المتنبّي ماجناً :
وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب
(٣٠) وبعد قليل مات المطران وانتخب هيراقلاس لهذا المنصب وهو لما رأى ثقل الوظيفة من عظم انتشار المسيحية في مصر باشر برسم عشرين أسقفًا جديداً لمدن البلاد فصار هو أكبرهم فلقبوه بالبابا أي الأب الأكبر

(٣١) واشتهر بهذا الزمان أيضاً من علماء الوثنيين هيروديان صاحب تاريخ روما من عهد ماركوس اوريليوس وهو زمان قلت مؤرخوه . ولوالده ابولونيوس قبله تأليف عديدة بعلم المنطق

غوردیان سنة ٢٣٨ م الى ٢٤٣

(٣٢) ومات اسكندر سويروس تاركاً ايتاليا عرضةً لمطامع القواد فدام التنازع بينهم لسنة ٢٣٨ حيث استقر الامر لغوردیان بيوس حفيد غوردیان حاكم قرطاجنه . فترى تقود الاسكندرية للسنة ٢٣٧ باسم

مقسیم و باسم ابنه مقسیموس و باسم اثنين من آل غوردیان
لسنة ٢٣٨ و باسم مقسیم و مقسیموس و بلینوس و بونیینوس
نیوس و غوردیان لسنة ٢٣٩

(٣٣) ولأن الفرس رأوا تضعضع المملكة الرومانية بهذا الزمان ابتدأوا
بالتسطي على أملاكها الشرقية فزحف غوردیان ضدهم موقنا بالنصر
حسبما تعودده الرومان من قبل لكنما فاته بأن جنوده كأخصامه كانوا
غير اولئك الذين عرفناهم قديماً ، فلاقى من جنود الفرس والعرب
والسوريين أنصارهم المجريين ما لم يكن بالحسبان فانهمز من وجههم
ويقال بأن قائد جيشه فيلبوس قتله . ولم يمض زمان بعد ذلك حتى
خرجت مصر وباقي البلاد الشرقية من يد الرومان ليد الفرس
وكان الفيلسوف بلوتينوس قد ترك مدرسة الاسكندرية ذاهباً بجمعة
الجيش الروماني ليدخل بلاد فارس ويكتشف على علومهم لكنه لما
رأى فشل الرومان نجى بنفسه إلى إنطاكية بعد مشقة عظيمة ومنها
انتقل إلى روما حيث أخذ بتدريس الفلسفة الافلاطونية

فيلبوس سنة ٢٤٣ م الى ٣٤٩

(٣٤) وآل الحكم إلى فيلبوس فضربت الاسكندرية تقودها باسمه
وكان أصله عربياً من بصره ويذهب البعض إلى أنه كان مسيحياً
ولما لم تطعه أهل الدانوب أرسل عليهم القائد دقيوس ، لكن هذا

انتقض عليه سنة ٢٤٩ وأعلن نفسه امبراطوراً فمشی فيلبوس ضده
وتلاقيا بالقرب من ويرونا على بعد اثنين وسبعين ميلاً من وينيس
فانكسر فيلبوس وانتقض عليه جنده فذبحوه واستقر الملك لخصمه

الفصل السادس

سنة ٢٤٩ م الى ٣٢٣

ديقيوس . غالوس . واليريان . غليانوس (عصيان)
 قلوديوس . اوريليان (عصيان) طاقيطوس . پروبوس
 (عصيان) قاروس . ديوقليتيان . (عصيان الكبير)
 غاليريوس . ليقينيوس

ديقيوس سنة ٢٤٩ م الى ٢٥١

- (١) وكان اضطهاد المسيحيين مستمرًا لهذا الزمان لا لغيره دينية بل كما قلنا قبلاً لغرض سياسي وهو الخوف من أن المسيحية بدعواها إلى المساواة تنقض سيادة الرومان والاغريق على الشرقيين فكانت بنظرهم مزعزةً للأحكام ومحركة للعصيان كالكومونيسم بهذا الزمان
- (٢) فلما تواترت السعايات بهم لحاكم الاسكندرية اميليانوس بحجة إفسادهم أخلاق المصريين أخذ باضطهادهم فهرب منهم كثيرون للصحراء وطور سيناء حيث صاروا غنيمة باردة للعربان ولكن

أكثرهم أنكروا دينهم ليتخلصوا من العذاب وكان من جملة
 الفارين ديونيسيوس أسقف الاسكندرية . ثم ان اميليانوس مات
 فعاد الأسقف لكرسيه ولما ذاك الجمهور الذي أخفى دينه أراد
 الرجوع للكنيسة وقبل الأسقف توبتهم ، اعترض عليه بعض
 المسيحيين البعيدين عن الاسكندرية وجورحا كمها وشكوه لأسقف
 روما فحشد هذا أساقفة الملة ليفتوا بالخلاف فحكموا لديونيسيوس
 مصوبين رأيه

(٣) وكان ديونيسيوس خلفاً لهيراقلاص برئاسة المدرسة أولاً ثم
 بالاسقفية ومن كتبه العديدة نفهم مذهبه بالتثليث ردّاً على من
 ذهب إلى أن الأقانيم هي ثمانية ومن قال انها ثلاثون وعلى مذهب
 بولس أسقف ساموسطا على الفرات بأن الكلمة والروح القدس
 هما صفتان لفعل صادر من الأزلي لا اقنومان مميزان عنه . ومذهب
 سابيلْيوس أسقف بطليمائس بالقرب من القيروان بأن الإله واحد
 أحد وهو نفسه الظاهر بصورة يسوع .

واليريان سنة ٢٥٣ م الى ٢٦٠

(٤) وخلف دقيوس غالوس وهذا خلفه اميلْيوس اميليانوس . ثم انتقل
 الملك إلى واليريان سنة ٢٥٣ لكنّ تماذي هذه الانقلابات السياسية
 من عهد سويروس للآن معما نتج منها من القلق والاضطهاد لم

يكن ليرك غير تأثير سيء على حالة مصر الاقتصادية فاننا نرى
حركة تجارتها وصناعتها قد توقفت وعمالها افتقرت وجاعت واجتحتف
الوباء نصف سكانها

- (٥) وكان القسم الشرقي من مملكة الرمان متروكاً بالسنين الاخيرة
لعهد اوديناطوس السوري ملك تدمر الذي بحكمته وحسن تدبيره
رفع شطره بمدة قصيرة لدرجة الممالك العظمى ووقى البلاد من تعدي
الفرس ، فلما آل الحكم إلى غليانوس بن واليريان وكان منهما
بلذاته وشهوته لم يرَ بدءاً من اتخاذ اوديناطوس شريكاً له في الملك
(٦) لا سيما وان الخبر بموت واليريان على يد سابور ملك الفرس
كان قد زعزع أركان المملكة وصارت كل ولاية تباع حاكماً .
فجنود سورية بايعت قائدها مقرينانوس امبراطوراً على المشرق
وتبعها جنود مصر ، وكان شيخاً كبير السن فأشرك ابنه مقرينانوس
الأصغر وقتيوس معه بالملك . وضربت الاسكندرية تقودها باسمائهم
مدة سنتين من الزمان لكنهم قتلوا ثلاثتهم لما أتى دوميتيانوس
قائداً جيوش اوريليوس امبراطور البلقان وطرق سورية بمساعدة
جيوش اوديناطوس

غليانوس سنة ٢٦٠ م الى ٢٦٨

- (٧) وعند موت واليريان خلفه ابنه غليانوس على كرسي روما . وكان

حينئذ حاكم الاسكندرية اميليانوس، فيوماً ما ضربت الجنود خادماً له يونانياً لأنه قال لهم بأن حذآءه أحسن من أحذيتهم فتجمعهم الاغريق حوالى قصره يشتكون من تعدي الجند ورشقوا نوافذه بالحجارة لكنه لم يعبأ بهم بل استدعى الجند لكفهم فشمت الجند بالاغريق وصاح باسم الحاكم امبراطوراً

(٨) وبايعته بقية جنود مصر فأعلن نفسه امبراطوراً باسم اسكندر وأظهر حزمًا فائقًا بسياسة البلاد وأراح ثيبه من تسطي العربان وقطع الخراج عن روما لكن بعد قليل حضر القائد تيودوتوس بجنود غليانوس وحاصره بالبروخيوم إلى أن ظفر به فأماته خنقاً

(٩) وكان هذا الحصار طويلاً بذل باثنائه رؤساء المسيحيين وسعهم لتخفيف بلايا الحرب فعلى طلبهم أذن تيودوتوس لغير المحاربين بالخروج من البروخيوم وكان أحدهم عوزيبوس الذي صار فيما بعد أسقفًا على انطاكية، يتجول بالخنادق لاغاثة الجرحى، وأحدهم أناتوليوس يسعى داخل الحصن بالصلح حقناً للدماء

(١٠) وكان واليريان قد أظهر أولاً رفقته بالمسيحيين إلى أن لوته حماقة الاغريق عن عزمه فعاد إلى اضطهادهم، أما غليانوس فانه لشعوره بضعف المملكة حينئذ ونظره كثرة المسيحيين والاعتبار الذي لهم بالبلاد رأى الترفق بهم أولى فأكرم أساقفتهم كرؤساء دينيين

محترمين من الدولة فتحسنت إذ ذاك حالة المسيحيين لدرجة لم تعهد من قبل

(١١) وعاد الأسقف ديونيسيوس لكرسيه فرأى الاسكندرية كالرجمة من أثر الحصار والطرقا مملوءة من جثث ضحايا الجوع والوباء رغماً عن اهتمام المسيحيين بدفن الموتى وعيادة المصابين غير مبالين بالعدوى التي ذهبت بكثيرين منهم ضحية مروءتهم وتقواهم

(١٢) ولقصر مدة مقرينوس واميليانوس واضطراب الاسكندرية لم تضرب بها تقود باسم أحد منهما بل ظلت باسم غليانوس كشريك والده أولاً ثم كامبراطور واوديناطوس شريكاً له

(١٣) وبأثناء هذه الحوادث تتهقرت مدارس الاسكندرية من مسيحية وغيرها علماً وعملاً ما عدا مدرسة أناطوليوس المذكور بحصار البروخيوم الذي كان يميل إلى فلسفة اريسطو وله كتابات في الرياضيات وميعاد الفصح وصار فيما بعد أسقفاً على انطاكية بعد غوزيوس فانها كانت محط هذه الفلسفة بينما عمونيوس الوثني كان يفضل فلسفة افلاطون (١)

(١٤) وبهذا الوقت كتب نيقوس أحد أساقفة مصر ردّه على قول الزاعمين بأن لقصاص التوراة رموزاً روحانية واستشهد بكتاب الوحي

(١) والفرق بينهما ان اريسطو كان دهريةً وافلاطون الهيةً

فأجابه رئيس الأساقفة ديونيسيوس بأن كتاب الوحي المنسوب إلى الحواري يوحنا ليس له فلا يُستشهد به ، على ان كثيرين يعزونه الى قيرنطوس الغنوسطي^(١) لما فيه من المشابهة لأقواله وتوفي ديونيسيوس سنة ٢٦٥ ولـكبر سنه لم يحضر مجمع انطاكية الذي حكم على بولس من ساموسطه بالكفر

(١٥) ومن علماء هذا الزمان الوثنيين كان الاستاذ بورفيري الافلاطوني تلميذ بلوتينوس وخلف عمونيوس له تاريخ مفيد جداً عن زمان البطالسة، وغيره بالفلسفة المصرية وكتب طوط ونفاستها وكتاب في الطريق المؤدي للسعادة الحقيقية

(١٦) ولما كان اوديناطوس بقيد الحياة كانت هيئته ساطية على الفرس أعداء الرومان لكنه إذ قتل غيلة مع ابنه هيرودوس سنة ٢٦٦ واستلمت أرملته زينوبيا زمام الملك فقدت المملكة حسن تدبيره ورأيه فلم تستقم الامور بين الملكة وغليانوس ولما أرسل جنوده ضدها هزمتهم ، وإذ مات هو سنة ٢٦٨ زحفت على مصر مدعية أنها من نسل قلاو فطرا وان البلاد إرث لها ولولديها هيرينوس وتيمولوس

(١٧) فكان أمير جيشها زبده وانضم اليه القائد المصري تيموجين

(١) غنوسطي هو ما نسميه « العارف بالله » وضده اغنوسطي أي الكافر

ومعهما من العرب والسوريين سبعون ألفاً فلاقاهم القائد الروماني
بروباتوس بخمسين ألف وهزمهم لكنه باثناء القتال رأى بعض
جنوده ترتد فظن بأنها تهرب من العدو ولعظم تأثره من جبايتها
قتل نفسه

قلوديوس سنة ٢٦٨ م الى ٢٧٠

(١٨) فانقادت مصر حينئذٍ لرأي روما وبايعت قلوديوس وضربت
الاسكندرية تقودها باسمه

زينوبيا سنة ٢٧٠

(١٩) ومات قلوديوس سنة ٢٧٠ وخلفه أخوه قنطيلوس لكن هذا
مات أيضاً بعد سبعة عشر يوماً فاغتتمت زينوبيا هذه الفرصة
وزحفت ثانية على مصر وامتلكتها فضربت الاسكندرية النقود
باسمها وازدانت تدمر بسكك مصر ولم تزل تُرى فيها ثمانية أساطين
من رخام مصر السماقي طول كل منها ثلاثون قدماً كانت قديماً قائمة
امام بابي معبدها الكبير

(٢٠) وكانت زينوبيا امرأة جميلة المنظر سمراء عيناء قنواء الانف لها
صوت كصوت الرجال تقية العرض لا كنسيتها قلاو فطرا وكانت
تتكلم بلغة الرومان ولغة الاغريق التي كانت لغة دولتها الرسمية ولغة

القبط عدا لغتها السريانية، وكانت بمعیشتها و بلاطها تجمع بين عظمة ملوك الفرس واقتصاد البداوة . فمثلها امرأة ومثل حزمها جعل الناس بذلك الزمان أن يعجبوا من رجل كغليانوس ضعيف العزم وامرأة تسوس نصف المملكة بعزم وحزم الأبطال

(۲۱) وجعلت زینویا انطاكية و بلميرا عاصمتي مملكتها ، احداهما لمقام الصيف والاخرى لمقام الشتاء وتركت مصر ولاية تابعة لمملكتها وكان دينها كلغتها سوريا صابئاً ، فان اسم زوجها معناه بغية الالهة ادونيظ واسم ابنها وبعلاطوس معناه بغية الإله بعل ، وبما أن الكثير من جيشها كان من العرب افتخرت بانتصارهم عربان الصعيد وأصبحت أصعب انقياداً للاغريق وأعلى أنفًا

اوريليان سنة ۲۷۰ م الى ۲۷۵

(۲۲) لكن بجلوس اوريليان على كرسي روما نراه أولاً راضياً أن تكون زینویا شريكة له بالملك فضربت الاسكندرية تقودها بصورته من جهة وصورتها من الجهة الأخرى لكنه ما لبث قليلاً حتى اختلف معها فحاربها بحمص وأسرها وحملها إلى روما مكرماً مشواها إلى أن ماتت بعد أن كانت الملكة أربع سنين في تدمر وبضع أشهر في مصر

(۲۳) وترك اوريليان مصر لحكم ابنها وبعلاطوس وضربت

الاسكندرية تقودها بتلك السنة بصورة اوريليان من جهة لأول سنة من جلوسه وصورة وبعلاطوس من الجهة الأخرى للسنة الرابعة من ملكه كانه يعد سني ملكه من موت أبيه . أما اسمه عند اليونان فهو أثينودوروس والتاريخ لا يذكر لنا قبل الآن ولداً بهذا الاسم لاوديناطوس

(٢٤) ولما كانت سنة ٢٧١ استبد وبعلاطوس بالملك وأسقط اسم اوريليان من تقود مصر وأخذ لقب اغسطوس فكان ذلك سبباً لسقوطه وموته وبه انقرض نسل زينوبيا بالشرق

(٢٥) وعادت مصر لحكم اوريليان لكنها لما كانت قد اعتادت على العصيان لم ترضخ لسلطته طويلاً لا سيما وأن اليونان كانوا قد قتلوا وذلوا والمصريين والعرب قد زادوا وعزوا بانتصار زينوبيا فأنفوا أن يحكمهم غريب عنهم فبايعوا رجلاً من سلفكيه يُسمى فرموس على الأمانة وهو اتكالا على قوم كان قد مضى عليهم ستمائة سنة بالعبودية والهوان طمع أن ينال بهم سلطنة الاسكندرية

(٢٦) وكان فرموس رجلاً قوي الجأش هماماً عظيم الثروة من وراء تجارة واسعة مع الهند وصناعة الورق ، وداره في سلفكيه من أجمل دور ذلك الزمان مزينة كوااتها بالزجاج الملون المحكم التركيب بالحمير إلا أنه كان فظاً جافياً غليظاً وكانت قوته بعربان الصعيد والبدو أنصار زينوبيا فجعل عاصمته قبطوس ولما جاء أوريليان يحاربه خاض

المعمعة مع رجاله لكنه أخذ أسيراً وتفرقت جنوده فأمر اوريليان بتعذيبه وقتله ، ولأن روما كانت بوجل لثلاث يفوتها خراج مصر من الحبوب بعث لها اوريليان بشارئ انتصاره بسرعة لتطمأن

(٢٧) ويظهر من تاريخ الرومان بأن اوريليان قتل قائداً في مصر يسمى دوميتيانوس أما وجود البعض من نقود الاسكندرية باسم دوميتيانوس للسنة الثالثة من ملكه فلا علم لنا من هو إلا أن يكون رجلاً آخر بهذا الاسم لا سيما وان كتابة هذه النقود هي بالحرف اللاتيني الذي لم يكن دارجاً بالاسكندرية بذاك الزمان ، والنقود التي باسم اوريليان ترى غير منقطعة سنة بعد سنة من موت قلوديوس لسنة ٢٧٥ وكلها من النحاس تبرهن عن افتقار البلاد التي كانت روما لا تنفك عن استنزاف ثروتها

(٢٨) وأقام اوريليان القائد پروبوس حاكماً على مصر وكان رجلاً حازماً هابه الافريقيون بالقيروان والعرب والسوريون بتدمر وبأوان السلم كان يشغل جنوده بترميم الترع والقناطر والمعابد . وفي مدة ولايته زاد اوريليان نصف السدس بخراج الحبوب عدا زاده بخراج الزجاج والقرطاس والسكر حتى انه اضطر لزيادة المراكب لنقلها الى روما

(٢٩) أما المسيحيون فكانوا بهذا الزمان بأتم الراحة والطمأن حتى ان البطرك نيروتجاسر على بناء كنيسة بالاسكندرية باسم القديسة

مريم وربما انها كانت أول كنيسة رسمية بُنيت في مصر وكانت
الصلوة فيها كما في سائر البلاد لذلك الحين باللغة اليونانية إلى أن
افترق القبط عن اليونان وصاروا يصلون بلغتهم
(٣٠) ومات اوريليان ولم يوص فقامت أرملته بآدارة المملكة بصورة
وقتيّة لأن القانون الروماني عسكري لا يسمح بالملك للنساء. أما
الاسكندرية فانها ضربت حينئذ نقودها باسم الامبراطورة سويرينا

پروبوس سنة ٢٧٦ م الى ٢٨٣

(٣١) وفي سنة ٢٧٦ لما انتخبت روما تاسيطوس امبراطوراً ضربت
الاسكندرية النقود باسمه على ستة أشهر وكان هذا حد ذكره بها
(٣٢) ومات تاسيطوس وخلفه أخوه فلوريان وبايعته روما، أما مصر فانها
كانت تريد حاكمها پروبوس امبراطوراً وهو لا يرضى إلى أن
وهو يستعرض الجند في أحد الأيام خطف بعضهم جبة حمراء عن
صنم هناك ورمها على ظهر پروبوس فحياه الجند بالامبراطورية
ثم بثوا دعوته في اسيا الصغرى وسورية وإيطاليا فبايعته جنود هذه
البلاد أيضاً وقُتل فلوريان وبعد قليل مشى پروبوس بجيشه لبلاد
الغال وجرمانيا لتوطيد السلم

(٣٣) لكنه بعد سنة أو سنتين إذ بلغه تعدي العربان على الصعيد
واحتلالهم البطلسية عاصمة أرض ثيبه عاد إلى مصر فردّهم ونكّل بهم

وبايابه إلى روما دخلها بصفة غازٍ برهاناً على أن انتصاره كان أمراً خطيراً

(۳۴) وكان اوريليان قد أقام أيضاً القائد ساطورنينوس محافظاً على الحدود الشرقية محرّماً عليه دخول أرض مصر لكنّ پروبوس لانهما كه بأطراف المملكة دعاه لولاية مصر وكان رجلاً شريفاً للغاية شهيراً بخدمته للمملكة في اسبانيا والغال وافريقية فدخل الاسكندرية بجيش كبير فطاش اليونان من رؤية موكبه وسلموا عليه امبراطوراً باسم اغسطوس أما هو فأنكر ذلك، ولقطع الاسباب رحل عنهم بجنوده إلى فلسطين لكن إذ بلغه انتشار الخبر ووقوعه تحت الشبهة خاف أن يُعذّره فاعلن نفسه امبراطوراً ثم بعد قليل طرّقه جنود پروبوس فوق اسيراً ومات خنقاً خلافاً لقصد پروبوس ورغبته

(۳۵) ولما توفّي پروبوس سنة ۲۸۳ قام بالسلطة قاروس وإيناه نوميرانوس وقارينوس وأثرهم الوحيد في مصر كان النقود المضروبة باسمائهم بالاسكندرية وبعض نقود هذا الزمان كان أيضاً باسم فيلق تراجان الثاني المصري الذي كان مقيماً على الدوام بالاسكندرية وكانت له الرخصة بضرب ما يلزمه من النقود لحاجته فكان يضربها صحيحة بينما نقود البلاد كانت كلها مغشوشة

عصيان وفوضى سنة ٢٨٣ م الى سنة ٢٨٥

ديوقليتيان سنة ٢٨٥ م الى ٣٠٥

(٣٦) ثم آل الحكم إلى ديوقليتيان سنة ٢٨٥ لكن سنة ٢٨٨ خلع الصعيد طاعته وبايع أخاوس امبراطوراً شرقياً. فبعث ديوقليتيان القائد غاليريوس ضده ولما لم يقدر على تطويع العصاة حضر ديوقليتيان بنفسه سنة ٢٩٢ فدوخمهم ولحقهم إلى قبطوس وبوسيريس فهدمهما

(٣٧) ولما بلغ حدود مصر الجنوبية رأى انه من العبث دوام التثبيت بالسودان، والخراج منها لا يفي بنفقة جبايته، فصالح البلاد التي بين الشلال الأول والثاني تاركاً لهم ما كان من أرض النوبة على سبعين ميلاً من اسوان ومتعهداً بامدادهم بمبلغ سنوي ماداموا محافظين مع جيرانهم عربان الصعيد على السلم. ثم أحكم تحصين حدوده الجديدة بالفيلية ولم يزل أثر سوره بطرف الحقول من حافة النيل الشرقية شمالي الشلال ظاهراً للآن

(٣٨) لكن لسبب ضعف العنصر اليوناني بالبلاد بذاك الزمان مع ازدياد حمية المصريين وكرههم للدولة لم تلبث الاسكندرية إلا قليلاً حتى هي أيضاً بايعت أخاوس فاضطر ديوقليتيان أن يعود ثانية

لمصر وامتنعت عنه الاسكندرية فحاصرها ثمانية أشهر ثم دخلها وقبض على اخلوس وقتله واحترق قسم كبير من المدينة وبدخوله للاسكندرية سكب فيه فرسه فتفأل من ذلك وظن أنه يفدي نفسه باستعمال الرحمة فحرّم على جنوده القتل والسلب وأعطى الناس الأمان فشكروه على إحسانه ثم نصبوا له ولفرسه تمثالاً من القلْب على العمود المعروف بعمود بومبي بساحة معبد سيرابيس وكتبوا على قاعدته ما تقرأه الآن « إلى الامبراطور المعظم راحم الاسكندرية ديوقليتيان المنصور » أما التمثال فلم يبق له أثر الآن

(٣٩) ولما كان تمادي العصيان قد طال ورأى ديوقليتيان بأن نفقات الحرب لم تعجز المصريين ظن بأن لهم سرّاً بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة فأمر بجمع كتب السحر والكيمياء التي عندهم وأحرقها . انما حقيقة الأمر هي أن اليأس وحده كان السرفي هذا الجلد الطويل وهو الذي أدّى أخيراً إلى خراب البلاد التام من توقف التجارة بالنيل وتعطل الثرع والزراعة والصناعة لحدّ لم تكن مصر تعرفه من زمان احتلال الفرس لا سيما وانها كانت بالسنين الستين الأخيرة قد عصت على روما ست مرارٍ وقلّ فيها العنصر اليوناني واعتزل ألوف عديدة من القبط رجال ونساء بالاديرة من جرّاء عدم الامن وضيق المعيشة

(٤٠) فلتقوية العنصر اليوناني رأى ديوقليتيان أن يزيد بالاحسان

لفقراءهم من خراج الحبوب فأنت النتيجة بخلاف القصد لأنهم
أخلدوا حينئذٍ إلى البطالة وزادوا تنمرًا على اليهود والمصريين
وتسافهوا على الحكام وكانوا الأدنى سبب يتجهرون ويثيرون
الشغب والفتنة بالمدينة مشهرين سلاحهم بوجوه اليهود والمصريين
الذين لم يكن جائز لهم حمل السلاح ولا اقتناؤه

(٤١) ثم انه الغى رخصة ضرب النقود المصرية وأبدلها بالنقود الرومانية
فانقضى بذلك عهد تلك النقود التي كانت بنفسها كتابًا مفتوحًا
للتاريخ وقد جمعها العالم سويغا بكتابه المسمى « نومي اجبتي
امبراطوري » أي أسماء امبراطورات مصر

(٤٢) ومن أشنع حوادث هذا الزمان كان اضطهاد ديوقليتيان
للمسيحيين ، فانه سنة ٣٠٤ حرّم على الناس اتباع هذا الدين بسائر
المملكة وهدّم الكنائس وأمر بحرق كتبها ونفي أو قتل من تمسك
بهذا الدين ، فكثيرون من المسيحيين هاجروا لسورية ولكنّ العدد
الأكبر كان يستحيل عليه أن يهاجر أو أن يقاوم فاستشهد منهم
كثيرون إلّا أن يكون المؤرخون الكنائسيون قد بالغوا بما نقلوه
عن عدد هؤلاء الشهداء

(٤٣) ولكن لا يمكن إلّا تصديق المؤرخ عوزيبوس الذي يخبرنا عما
رآه بعينه من الاعداد بيوم واحد قتلاً وحرقاً حتى كُِّلّ الجلادون
وذابت قلوب القضاة من الشفقة على هؤلاء المساكين وبينهم كثيرون

من أهل العلم والشرف والمال كبطرس أسقف الاسكندرية وكنيته
فوستوس ودايوس وعمونيوس والعالم فيلياس أسقف طمويس
وحزقييوس جامع القاهوس الرومي وناقل الكتاب السبعيني
والاسقفين باخوميوس وتيودوروس ووكيل الخراج فيلوروموس
الخطير المنصب النقي العرض

(٤٤) اما بعض المستشهدين كعيديسيوس الذي شتم القاضي ورد
نصيحته بالجفاء واطمه على وجهه ففعله هذا بحمد ذاته يستوجب
القتل في مثل هذه الظروف

(٤٥) وكان المولجون بتنفيذ هذا الامر السلطاني الشنيع قوليانوس حاكم
مقاطعة ثيبه وهييروقليس حاكم الاسكندرية مؤلف الكتاب المسمى
فيلا ليتيس أي محب الحقيقة نعرفه فقط من رد عوزيبوس عليه
وفيه يكذب الحواريين ويزعم بأن المعجزات المنقولة عن ابولونيوس
هي أصدق خبراً وأعظم خطراً من المعزوة ليسوع الناصري

(٤٦) فكان هذا الاضطهاد أشد ما عرفه المسيحيون من الرومان ومع
ذلك فاننا نراهم سنة ٣٠٥ مهتمين بانتخاب اسقف جديد للاسكندرية
وبينهم الكاهن اريوس الذي اشتهر فيما بعد اشتهاراً سيئاً بالتاريخ
الكنائسي

(٤٧) ولما في سنة ٣٠٥ تنازل ديوقليتيان عن كرسي روما ، استولى

غاليريوس على مصر وباقي مملكة المشرق واستولى قسطنطين
خلوروس على مملكة اروبا فغاليريوس ترفق نوعاً ما بالمسيحيين
اولاً

مقسيم سنة ٣٠٥ م الى ٣١٢

(٤٨) ويعرف غاليريوس بمقسيم ثم انه أعاد الاضطهاد على المسيحيين
واتخذ الجواسيس ضدهم فكثرت الوشايات والسعايات واشتبه الجار
بالجار وصارت الناس تطلب من الحكام ابعاد كنائس المسيحيين
لوراء اسوار المدن . واذ صار علماء الهيئة يؤرخون السنين من عهد
ديوقليتيان سمي المسيحيون ذاك العصر عصر الشهداء

(٤٩) واذ كان لا بد من وجود كثيرين من المسيحيين ممن كتموا
دينهم وقت الاضطهاد فانهم عند انكشاف الازمة أرادوا الرجوع
لكنائسهم فحصل ضدهم ما حصل في عهد ديقوس وكان من
أشد أخصامهم أحد أساقفة الصعيد المسمى ملاتيوس لكن باقي
الاساقفة والجمهور كانوا على قبول توبتهم ولما أصر على رأيه كفره
وطردوه وحزبه من الكنيسة الجامعة

(٥٠) لكنه لشدة رفضه ظل يترب مسيحياً يجرحه فسمع بأن اريوس
كاهن كنيسة البقاله يعترض على القول بالوهية يسوع فشكاه
للاسقف واضطر هذا الى مرافعته فهرب منه الى فلسطين وظل

هناك الى أن دعاه مجمع نيقيا (وهي الآن ازنيق) بالعهد التالي لمثل
هذه المرافعة

(٥١) وبهذا الزمان وما كان فيه من انحطاط اليونان مادياً وأدبياً
واضطراب البلاد المتوالي شاعت عبادة مترا ، إله الشمس الفارسي ،
بالاسكندرية وكان مثاله كشاب ينحر عجباً وبجانبه كلب وحية
وكان معبده المسمى مترايوم بصحراء البلد بمكان قذر . وشاع ايضاً
مذهب ماني الفارسي بواسطة تلامذته پاپوس وهرمز وهو ان إله
الخير من نور وإله الشر من ظلام

(٥٢) ولهجت الناس كثيراً بمذهب هيرافاس القبطي بأن الاجسام
لا تُبعث بل الارواح فقط فخير المسيحيين الذين كانوا يستندون
ببقيتهم بالبعث على يقين المصريين وتحنيطهم موتاهم من الفي سنة

(٥٣) وبهذا الزمان كان تعويل المسيحيين المصريين على النقل
السبعيني المصحح من حزقيوس الاسقف المستشهد بالعهد السالف
ولشهرة الاسكندرية العلمية كانت الكنائس البعيدة تطلب هذا
النقل منها ما عدا القسطنطينية وانطاكية فان اعتمادهما كان على نقل
لوقيانوس وفلسطين ايضاً التي كانت تعتمد على نقل اوريجين القديم
ولكن فيما بعد صار نقل حزقيوس الاكثر استعمالاً الا انه لتفنن
النسّاخ فيه وتعليقهم عليه الحواشي صار التابعون يعتبرونها كالأصل

كما فعل قبلهم اليهود بنقل التوراة فأنت الترجمة اللاتينية منه اكبر
من اصلها اليوناني

(٥٤) وبهذا الزمان ايضاً ترجم القبط النص السبعيني لغاتهم المنفية
والصعيدية والبشمورية حرفاً بحرف من اليوناني لا بل ان كل كلمة
من خمس منه كانت يونانية

ليقينيوس سنة ٣١٣ م الى ٣٢٢

(٥٥) ولما مات مقسيم بطرسوس على يد ليقينيوس خلفه هذا على
مملكة الشرق ودخلت اروبافى حكم قسطنطين بن قسطنطيوس
وبالعشر السنين الاولى كان قسطنطين يحاول الغدر بليقينيوس الى
أن ضاق صدر هذا منه فزحف ضده الى تراسيا بمائة وخمسين الفا
من المشاة وخمسة عشر الفا من الفرسان وثلاثمائة وخمسين مركباً
لكنه اضطرّ فيما بعد الى المهادنة وطلب الصلح فلم يرض منه
قسطنطين الا التسليم ضامناً له الحياة فسلم له على هذا الشرط . ثم
ان قسطنطين غدر به واماته شتقاً فعادت المملكة كلها بيد
امبراطور واحد

الفصل السابع

سنة ٣٢٣ م الى ٣٧٨

قسطنطين . ابنه قسطنطيوس . يوليان . يويان . والتس

قسطنطين سنة ٣٢٣ م الى ٣٣٧

(١) يمتاز حكم هذا الامبراطور عن غيره بالانقلاب العظيم الذي حصل فيه بدين المملكة وهيئتها عند تنصره سنة ٣٢٣ ، فان اضطهاد المسيحيين قد توقف بالحال واعفيت كهنتهم من كل التكاليف الملكية والعسكرية . أما تنصره فغير معلوم ان كان عن اقتناع أم سياسة ، انما المعلوم هو ان المسيحية لم تصل لكرسي الملك حتى كانت دين الاكابر والاغنياء فيه و بعد أن رأيناها تنمو وتعلو تحت الالهانة والجور من الحكام سنهاها الآن وسيلةً للقرب منهم والتزلف لهم فان كثيرين اعتنقوا الدين الجديد عند تنصر الملك ولما يدخل الايمان في قلوبهم واصبحت الاغلبية المصرية منهم تقدر أن تصف الاقلية اليونانية من هذا الدين بالكفر كما سبق للفئة اليونانية عينها مع الفئة اليهودية المنتصرة قبلها

(٢) أما تنصر اليونان بالاسكندرية فانه كان أولاً من نوع الفلسفة

وليس عن اقتناع بدور رباني، كما انهم بدخولهم مصر مع الاسكندر تركوا مذهبهم ومعابدهم في نوقراطيس واتبعوا اديان سيرابيس وميترا، ثم صاروا يضحكون منها الى أن شاعت بينهم فلسفة افلاطون التي هيأت أفكارهم للمسيحية. وقبل تنصر قسطنطين كانت المسيحية قد عمت كل بلاد مصر، وترتيب كنائسها كان قد تم تقريباً على ما نراه الآن. فلزمان هيراقلاس وديونيسيوس كانت الكهنة تنتخب الاساقفة والشمامسة تنتخب الكهنة فديونيسيوس كان يصدر بلاغاته الاسقفية باسمه واسماء كهنة أبرشيته لكن بعد ذلك تغير هذا الحال الى الاستبداد ولما التقى قسطنطين جليلابه على رؤساء الكنيسة كثير منهم زادوا على امتيازهم الكبير ياء والبخل وحب الجاه

(٣) فلعبت بهم الاهواء النفسانية وابتدأت الانقسامات الكنائسية

وانفصمت عرى ذلك الاتحاد الذي كان الاضطهاد يربطهم فيه . فان قسطنطين كان قد آمن اما بالوهية يسوع واما برسالته ولكنه اذ صار يسأل أساقفة الاسكندرية عن مذهبهم بصفة ملك الحب والرحمة وجدهم يتشاحنون ويتلاعنون فيما بينهم على آرائهم فيه بعيدين عن مباديء ذلك الشارع الوديع الحنون

(٤) ومع وجود مصر زماناً طويلاً برقّ العبودية لليونان والرومان

فانها كانت قدوتهم بالدين أولاً وآخرها وفيها نشأ الانقسام بين

فئة تذهب الى أن يسوع الابن هو من جوهر واحد مع الآب .
 وفئة تذهب الى انه من جوهر يماثله بينما هذا البحث لم يكن قد
 خطر بفكر العلماء الاولين ولا بفكر اليهود المتصرين اولاً المؤمنين
 بأنه المسيح المنتظر . وبينما اليونان يعتقدون به كالحكمة الربانية ،
 والكلمة على مذهب افلاطون . والمصريون الاولون يعدونه من
 احدى الآيات الربانية فان اقليمس رومانوس صديق الحوارى
 بولس يدعو الكاهن الاعظم والربان لا سوى . وحينما دعاه
 الوثنيون المتصرون إلهاً متجسداً انكر ذلك عليهم اليهود
 المتصرون ، وديونيسيوس أسقف الاسكندرية يدعو بكر الخليفة
 واوريجين لا يرى أن يُصلى له . فالاسكندرية حولت الافكار إلى
 الجدال بالصفات والتجبر بالآراء والمنازعات إلى حد الطعن والاضطهاد
 شنيعة عرفناها من اليهود الذين صلبوا المسيح فكأنه لم يأت

(٥) فلما بلغ الامبراطور وجود هذه الحال ولا سيما ما كان بين أسقف
 الاسكندرية اسكندر والكاهن اريوس ساءه ذلك وطلب من
 الاسقف أن يكف عن مناظرة هذا الكاهن حباً بالسلامة لكن
 لما بلغ الخبر كهنة الاسكندرية هاجوا وماجوا خوفاً من أن يقوى
 حزب اريوس بذلك وأصروا على طلب مرافعته فاضطر الامبراطور
 لحشر أساقفة المملكة ليحكموا على الخلاف فاجتمع منهم في نيقيا

سنة ٣٢٥ مائتان وخمسون اسقفًا وعدد كبير من كهنة المشرق
وأسقف أم اثنان من الافرنج

(٦) وهناك احتدم الجدل وكاد يأول إلى المضاربة والقتال لولا ان رغبة
الامبراطور وحلمه يضعان حداً للخصام . وامتاز حينئذٍ الشماس
اثناسيوس بجرارة مقاومته لآريوس ثم عاد المجلس للوقار وجرى
أخذ التصويت لآراء الخصمين فنجم عن تضليل اريوس والحكم
بأن يسوع الابن هو إله من جوهر واحد مع الأب وسموا هذا
المذهب « الهوموسياني » وقرروا قانون الايمان المعروف الآن
بالنيقي وعينوا وقوع الفصح الذي تقيمه اليهود ليلة تمام القمر
الربيعي ، بأن جعلوه يقام بالأحد الذي يتلو تمام هذا القمر ولعنوا
اليهود وانفض المجلس مكشفيًا بنفي اريوس غير مدركٍ ما أثاره
بصدور المصريين من الخيلاء بانتصار حزبهم مما جعلهم فيما بعد
شوكة بجانب الامبراطور ناصرهم على اليونان أصدقاء دولته
بالاسكندرية

(٧) وبهذا الزمان كان أسقف الاسكندرية هو الذي يعين لاساقفة
البلاط حلول الفصح فيجري بلاغه مجرى الامر لمسيحي المسكونة
لأن روما كانت قد فقدت كرسي الملك واورشليم سقطت من
عزها والقسطنطينية لم تبنى بعد

(٨) ثم بعد زمان قدّم أريوس استرحامًا للامبراطور بالعفو عنه مبرهنًا

بأنه لم يَحْدُ عن قانون ايمان الرُّسل فعفى الامبراطور عنه وكتب
 لاسقف الاسكندرية بلياقة ردّه لكنيسته لكنّ الاسقف كان
 إذ ذاك عين ذلك الشماس اثناسيوس خصم أريوس الالذ بمجمع
 نيقيا فأبى الامتثال لطلب الامبراطور مدّعياً بأن قبول هذا الكاهن
 عضواً بالكنيسة غير جائز ديناً ، فرفض الامبراطور اعتراضه وطلبه
 للوقوف بين يديه ولما وجده مصرّاً على رأيه أبعده الى صور وهناك
 أقام مجعاً من الاساقفة سنة ٣٣٥ لمرافعته فحكموا بفساد رأيه واعادة
 أريوس لوظيفته فظلّ مُبعداً مدّة هذا العهد كلها

(٩) ولكنّ أقلّ ما يقال عن شناعة الاستبداد من الرؤساء المسيحيين
 هو أنه بازدياد سلطتهم دخل الكنيسة رجال غير لائقين بها اتخذوها
 وسيلة للحصول على غايات زمنية وأغراض ذاتية بعيدة عن التقوى
 والرافة المسيحية

(١٠) وكان أولاً الاسم العام للمسيحيين « النصارى » وذلك لان
 أولهم كانوا من اليهود قوم الناصري يسوع ، ثم لما شاعت المسيحية
 بين المصريين وذهبوا مذاهبهم فيها كفروا أولئك اليهود القائلين
 بأن يسوع هو المسيح والنبي الاعظم المنتظر ، فلما مجمع نيقيا لعن
 اليهود كره الجمهور الانتساب للنصارى وانحصر هذا الاسم بعد زمان
 قسطنطين بيهود الحبشة واليمن المنتصرين

(١١) ومن مآثر هذا الزمان كان بناء القسطنطينية سنة ٣٣٨ وانتقال

كرسي الملك اليها فهانت روما حينئذ بأعين الناس وقلقت الاسكندرية خوفاً من تحول رياستها الدينية لعاصمة المملكة واحتفاف علمائها بكرسي الملك لا سيما وانها لضعف العنصر اليوناني فيها كانت قد أمست تدعى من زمان ديوقليتيان المدينة المصرية بعد ان كانت تدعى المدينة اليونانية على حدود مصر وفعلاً هكذا جرى فاننا نرى عند بناء القسطنطينية ان جاذب اليونان لحرّ مصر قد خفّ وانقطعت مادة هذا النسل فيها

(١٢) ونقل قسطنطين احدى مسلات مصر لزينة عاصمته الجديدة وجلب مسألة أخرى من هاليوبوليس للاسكندرية لينقلها للعاصمة ايضاً لكنه توفي قبل أن يفعل ونقلها ابنه فيما بعد الى روما . وأخذ قسطنطين مقياس النيل ايضاً من مسجد سيرايس ووضعه باحدى كنائس العاصمة ليُطل احتفال المصريين الديني بفيضان النيل فتفاءل كهنة مصر الوثنيون من عمله لكن اذ تمّ الوفاء بتلك السنة صار المسيحيون يحتفلون به كعيد كنائسي . وأحضر الامبراطور من الاسكندرية خمسين نسخة من الانجيل لاستعمال كنائس القسطنطينية محررة على الرق من تصحيح عوزيبوس أسقف القيصرية .

(١٣) ولم يبق حينئذ للعلماء الوثنيين من عضد ، فقل الاقدام على مدارسهم وصار عليبيوس وصديقه يامبليخوس مدرسي فلسفة عمونيوس وپلوتينوس يتجولان بين الاسكندرية وپرغاموس وروما

وكل ما وصل اليها من تأليف أولهما هو كتابه بمباديء الانعام مرتبة على خمسة عشر رسداً وعلاماتها على سطرين كأن سطرًا منها للصوت والآخر للعود يقال بأنها علامات يثاغورية . وأما ثانيهما فيوجد له للآن عدة تأليف مذهبه فيها يشبه مذهب أفلاطون

(١٤) وأقام الاستاذ سوطا تر بتدريس الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وكان يدعي بأنه أفلاطون الثاني ، ولمدة من الزمان كان قسطنطين يودّه ويكرمه ثم أنكر عليه مذهبه وقتله وعلى قول المؤرخين الوثنيين انه نقم عليه رفضه ان يُبريء ذمته من قتله ابنه

قسطنطيوس سنة ٣٣٨ م الي سنة ٣٦١

(١٥) ولما مات قسطنطين خلفه بالملك أولاده الثلاثة مقتسمين المملكة بينهم فجلس قسطنطين الثاني على كرسي القسطنطينية وكونستان أصغرهم على كرسي روما وقسطنطيوس على كرسي انطاكية كعاصمة المشرق ، فزاد بذلك انحطاط مقام الاسكندرية السياسي . ولما أصاحت أنطاكية سفر التكوين بترك عشر سنين منه تبعها بذلك الاسكندرية لكنها فيما بقي ظلت مدة حياة هذا الامبراطور تدعي الاسبقية بأمور الدين

(١٦) وكان قسطنطيوس على مذهب اريوس بينما أخواه كانا على مذهب اثناسيوس فتجاسر هذا تحت حمايتهما على الرجوع للاسكندرية

لكن لما بعد قليل نشبت الحرب بين هذين الاخوين وقتل قسطنطين
الثاني تنشط قسطنطيوس لدفع مداخلة كونستان في أمور مملكته
وعزل اثناسيوس من كرسيه وأقام مجمعا من الاساقفة بانطاكية
لينتخب أسقفًا عوضه فانتخبوا أولاً عوزيليوس من حمص لكنه
استعفى مشعراً بأن المصريين لا يرضون أن يكون عليهم أسقفًا
أريوسياً ولم يكن من رأيه اكراههم على ذلك فانتخب المجمع حينئذ
أسقفًا على الاسكندرية غريغوريوس الجسور على أي مقاومة تصدر
ضده من أهلها

(١٧) ثم انه قرّر الغاء « إله من إله جوهر واحد مع الاب » وابداله
« بىكر المخلوقات وصورة جوهر الاب » وبعد بضع سنين التأم
هناك مجمع آخروسنّ قانوناً أقرب الى مذهب اثناسيوس لكنه
لأنكاره أيضاً وحدة الجوهر مع الاب رفضه المصريون واللاتين
وصار كل فريق يضلل الآخر ويلعنه

(١٨) ولم يجسر غريغوريوس على القدوم لكرسيه حتى أمر الامبراطور
القائد سيرانوس بخفارتة فأدخله الاسكندرية ليلاً وبالغد أتى به
للكنيسة مخفوفاً بالجنود فوجدوا اثناسيوس قد سبقهم اليها مع
أتباعه وأغلق أبوابها ، لكن لما تهددهم القائد خرجوا من باب السرّ
حنقين وتبع ذلك اضطراب بالمدينة وشغب واتقطع وارد الخراج عن
البلد اياماً فخاف اثناسيوس من المسؤولية بذلك وهرب الى روما أما

حزبه فلكونه اكثر من الحزب الارويوسي فزال هائجاً حتى انه احرق الكنيسة مؤثراً ذلك على تركها بيد الارويوسيين ثم انه قوي عليهم الى أن امكنه طردهم من كل كنائس وأديرة مصر

(١٩) وبعد سبع سنين من هذه الحال مات غريغوريوس و برجا اسقف روما وكونستان أعاد قسطنطيوس اثناسيوس لكرسيه مشروطاً عليه عدم التحرش للارويوسيين

(٢٠) لكنه برجوعه لابرشيته أظهر الاستبداد . فقسم من حزبه من القبط لم ترضهم معاملته لمواطنيهم الارويوسيين فانتقضوا عليه وانفصلوا عن كنيسته منضمين الى كنيسة الاسقف ملاطيوس

(٢١) وبهذا الزمان بدأ الحكم يشعرون بالانقلاب الناتج من انتشار المسيحية أولاً ثم من دخول الامبراطور في دينها واعطائه للاساقفة رتبة الامراء

(٢٢) ثم مات كونستان فعاد قسطنطيوس لعزل اثناسيوس سنة ٣٥٤ لكنه لاقى بذلك تبعاً جماً الى أن في سنة ٣٥٦ اختفى اثناسيوس وظل مستتراً عن الحاكم سيرانوس في غرفة صبية اجارته لاخر هذا العهد

(٢٣) فلما أعجز سيرانوس أمره أرسل الامبراطور القائد سباستيانوس حاكماً على مصر ومأموراً بالقبض على اثناسيوس حياً أو ميتاً . فرفع

حينئذٍ حزب أريوس قرنه وانتخب جرجس من قبادوسيا أسقفًا
على الاسكندرية

(٢٤) وكان جرجس رجلاً عالمًا همامًا لكنة أقل حكمة وسياسية من خصمه
وكان أبوه خياطًا من ابيفانيا في آسيا الصغرى فلما رأى نفسه بهذا
المقام الخطير تجبر وترنح بسلطته فاضطهد أخصامه بكل أنواع العذاب
والقتل والابعاد حتى كاد أن يحاكي عمل ديوقليتيان بالمسيحيين
فكره الناس اسم الامبراطور ناصره وحط من شأن الاسم المسيحي
بين أعداء هذا الدين

(٢٥) وبهذا الزمان كانت البلاد التي على الطرف الجنوبي من البحر
الاحمر قد ابتدأت أن تُعرف أكثر من قبل بالاسكندرية فان الرحالة
ميروبيوس وصل اليها في عهد قسطنطين ودخل اخضم عاصمة
الحبشة وفرومنطيوس رفيقه سعى بارشاد أهلها للمسيحية والمتاجرة
مع مصر وعاد اليها أسقفًا بأمر اثناسيوس وقسطنطيوس بعده أرسل
بعثًا مع الراهب تيوفيليوس لاهل حمير الصابئين نسل اولئك اليهود
المستوطنين البلاد من عهد سايمان فبنى لهم الكنائس ثم انتقل
للحبشة عوضًا عن فرومنطيوس الذي عزله جرجس الاسقف الاريوسي
فأحكم فيها ربط عرى الوداد مع شعبها اليهودي الاصل أيضًا الذي
كانت العربان تحجز بينه وبين مصر. ووجد هناك بجنوب العاصمة
مستعمرة سورية يُقال بأن الاسكندر أسكنها تلك البقعة. وكانت

لغة تلك البلاد كلها عربية غير لغة السودان وبها تُرجم لهم الانجيل من اليوناني لكنّ انتشار الدين الجديد بينهم لم يتمّ لقرنين بعد هذا الزمان لسبب الموانع التي كانت تطرأ من وقت لآخر فتقطع مواصلاتهم مع الاسكندرية

(٢٦) وها اننا نرى كلما تقدمنا بتاريخ المسيحية في مصر كلما بعدنا عن أزمنة العلم ودخلنا غياهب الجهل الممتد منها الى أوروبا فان الرهبانية التي نشأت من نساك انطونيوس وتولي المصريين في عهد فيليبوس قيصر على حافة بحيرة لوط لم تكن الا تقليد رهبانية الوثنيين واليهود من قبل ، والمعجزات المنسوبة لبعض الرهبان المسيحيين من بين الالوف من رجال ونساء في عهد قسطنطين وعهد اولاده ليسها جزءاً مما نقل عن رهبان الوثنيين قبلهم

(٢٧) لا بل ان هؤلاء الرهبان المسيحيين تقلدوا عادة رهبان الوثنيين السافين بخلق رؤوسهم الا دائرة في وسطها وحلق لحاهم وشواربهم فحرم عليهم ذلك اثناسيوس وحرّم أيضاً عليهم استعمال الرق والافراط بالصوم للتفاخر به ومكاملة النساء والاعتسال بالحمامات العمومية وحفظ السبت . وبعد هذا الزمان بسنين قليلة صار وضع قانون الرهبنة المطول المعمول بأكثره للآن

(٢٨) ومن الاخبار عن بعض هؤلاء الرهبان خبر أحد هم عمون الذي يقال بأنه كان رجلاً ذا نعمة اقترن بصبية حسنة لكنه باليوم

والساعة أغراها بالتزام العفة وهجران العالم ناذراً بالاً يغتسل طول حياته ولا يغير ثوبه كي لا يرى جسده عرياناً . وعلى قول مؤرخه الكنائسي انه كان اذا اضطر أن يقطع ساقية تأتيه الملائكة فتحمله كيلا يبلل وفاءً بنذره

(٢٩) واشتهر بعده الناسك انطونيوس المقيم في ذاك الوقت بالقرب من هيراقلو بوليس الزاعم بأن روح عمون أخته وعلمته الفرائض الدينية فكان سكنه بين القبور حيث أتاه الشيطان بأشكال شتى منها انه أتاه بشكل اسود ونمور وذئاب وحيات وعقارب وزناير كثيرة واذا انتصب ليصلي هربت من وجهه تَوّاً . ومنها انه أتاه بشكل زائر لكنه اذ سمع اسم يسوع ولّى هارباً . ويزعمون انه كان يشفي المرضى ويخرج الشياطين بعلامة الصليب ويعلم بالغيب وينكر فائدة العلوم لمن اهتدى للدين ، وهكذا لما شاع ذكر فضائله ومعجزاته كتب له الامبراطور كتاباً فلم يمكنه أن يرد له الجواب بلغة اليونان لكنه قد خلف بعض وصايا للرهبان باللغة القبطية ترجمت فيما بعد لليونانية وبواسطتها عُدّ من الآباء اللاهوتيين . وبعد أن قضى بهذا النسك عشرين سنة خرج يعظ الناس ضد المذهب الارويوسي

(٣٠) وبالأجمال فان تاريخ الكنيسة بهذه الازمنة يرى مفعماً بمثل هذه الاخبار ولكل زمان حال تُحاربها الافكار

(٣١) ومن علماء المسيحيين بهذا الزمان كان سيرايون استقف طمس

وصديق انطونيوس ، له كتاب نفيس ضد المذهب المانوي ، انما العالم السني فكان الاعمى ديدميوس رئيس المدرسة اللاهوتية الرياضي البليغ المتبحر في الفلسفة الوثنية واليه كانت تشد رحال الطلبة من كل فجٍّ وكان مولعاً باثناسيوس وعلى مذهبه حتى قال الاريسيون بأن كل عالم لذاك الزمان كان على مذهبهم الا هذا . وله شرح على الانجيل ومقالة ضد المانوية

(٣٢) وفي كل هذه الجدالات الدينية وثنية كانت أم مسيحية ، نرى روما في غالب الأحيان تابعة لآراء مصر ، فان كونستان لما أراد أن يهدي بعض نسخ من الكتاب المقدس طلبها من اثناسيوس . وكانت روما مثل مصر تكره مذهب اليونان الاريسي وهكذا لما جيروم الروماني زار مصر قال بأنه وجدها على المذهب الحقيقي الرسولي . ولكنه مع اعتراضه على مذهب اوريجين يشهد له بالعلم والفضيلة والتقوى

(٣٣) أما علماء ذاك الزمان الوثنيون فمنهم المنطقي افتونيوس الذي اكتسب شهرة عظيمة بحكمته وفصاحته وكان يميل الى مذهب ماني فأتاه طالب علم يدعى عطيه ، اريوسي المذهب ثم صار يجادله بالدين الى أن طلبه للجدال بمحضر من الجمهور فتجادلا ولكن قبل

(١٠)

أن تظهر النتيجة اعتلَّ الأستاذ ومات فقال الاريسيون بأن
حجَّتهم قتلته

(٣٤) وسنة ٣٤٧ تمت الاحدى عشر قرناً من بناء روما فضربت تقودها

بتلك السنة وعلينا صورة الطائر الخرافي « فينكس » بصورة نسر
بريش أحمر وأصفر وهو المسمى عند العرب العنقاء وأهل الصين
يزعمون بأنه طائر ميمون يظهر بالبلاد عند اكتمال سعداها

(٣٥) ومن كلام يوليوس فرميقيوس بالوثنيين يظهر بأنهم كانوا بذلك

الزمان قد تركوا عبادة البهائم وغيرها وحصرها عبادتهم بايزيس
وعوزيريس والنيل . وكان عيدهم الكبير يوم حزن ايزيس على
زوجها عوزيريس الذي قتله تيفون الشقي حسداً فيحلقون فيه
رؤوسهم ويطوفون بالمدينة باكين منتحبين يضربون على صدورهم
ويقطعون جلودهم ثم يزعمون بأنهم يبحثون عن اشلاء القتيل التي
القاها تيفون بالنيل فتردهم اياها ايزيس بمساعدة اختها نفطيس
والقناص انوبيس فيدفنونها ثم يعيدون فرحين . واسم ايزيس باللغة
الكنهوتية حيز

(٣٦) وبهذا الزمان اشتهرت ايدوس^(١) الصعيد بمعبدها للإله ييسا

العجائبي فقصده الناس من مصريين واغريق يستشيرونه في

(١) هي المسماة الآن المدفونة

حظوظهم ويقدمون له الضحايا ومن جملتهم كان أحد ولاية مصر
بارناسوس فلما بلغ الامبراطور خبره عزله ونفاه ولكنه لم يتحرش
لكهنة المعبد لما كان لهم من السلطة على عقول كثيرين من ذاك
الجمهور

(٣٧) وربما انه بهذا الزمان ايضاً ألف هيفستيون الرياضي الشبي كتابه
الذي يزعم فيه بأن لأبراج الفلك فعلاً يؤثر بأجسام الناس وطبائعهم
فأعطى لكل بلاد برجاً لكن بدون اعتبار خط الطول كأنه قسم
الأرض كالفلك الى شرق وغرب ثم قسم كل برج الى ثلاثة منازل
كل منها عشر درجات كما هي بالمنطقة المرسومة على سقف معبد
دنديره من زمان تيريوس المؤلفة من اثني عشر برجاً فزعم بأن
صفة كل انسان تتبع صفة النجم الطالع مع الشمس يوم ولادته .
وقد رأيت بزماننا هذا كتاباً اميريكيًا يسند هذا الزعم

(٣٨) أما الحكم بهذا الزمان فانه كان قد ضعف لدرجة انه اصبح
كالعدم ، لا يضر ولا ينفع ، فاستقلت فيه اكثر المدن والقرى
بالصعيد أو احتمت الصغيرة منها بالكبيرة تحت سيطرة أحد الاساقفة
حتى صارت اوامر الامبراطور نفسه لا تعمل فيها

يوليان سنة ٣٦١ م الى ٣٦٣

(٣٩) ولما مات قسطنطينوس خلفه يوليان وهو آخر امبراطور وثني فلم

يرضه تصرف المسيحيين ضد أخصامهم الوثنيين . واذ أرسل هؤلاء
بعثاً للقسطنطينية يتظلمون من حاكمهم ارتقيوس ومن الأسقف
جرجس ، طلب الحاكم اليه وبعد محادثته في خلقيدونيا أمر بقتله
فطمع الوثنيون بانتصاره لهم وثاروا ضد المسيحيين بالاسكندرية
فقبضوا على الأسقف وداسوه بأرجلهم حتى الموت وقتلوا أيضاً
رئيس دار السكة دراقونيتوس لانه كان قد هدم لهم معبداً بتلك
الدار واهلكوا معه أحد الاعيان ديودوروس لانه كان قد نكاهم
بقص نواصي الشبان المصريين المختصين به بحجة انها أثر وثني وقد
كانت أصلاً عادةً عندهم مختصة بالنسل الملوكي من عهد رمسيس
ثم صارت بزمان البطالسة علامةً لشرف النسل ثم أصبحت عمومية .
وحملوا جثث الثلاثة على الجمال الى حافة البحيرة فأحرقوها هناك
وذروا رمادها بالهواء حتى لا يتركوا لها أثراً يرجع اليه المسيحيون
لينبؤوا فوقه كنيسةً

- (٤٠) واذ بلغ الامبراطور خبر جنائياتهم أنبهم عليها وتهددهم بالعقاب
لا اكثر ان عادوا لمثلها ثم جعل كل اهتمامه بالاستيلاء على مكتبة
الأسقف المقتول متهدداً وكيهه بقطع رأسه ان فاته كتاب واحد منها
(٤١) أما حزب اثناسيوس فلم يعبأ بمقتل هؤلاء الاريسيين بينما
الامبراطور مع عدم مبالاته بما حل بهم كان يكره اثناسيوس

وحزبه أشد الكره فلما عاد اثناسيوس للاسكندرية بدون اذنه غضب عليه وأمر بطرده من كل أرض مصر

(٤٢) ولم يتحرش لجمهور المسيحيين أكثر من نظره اليهم بعين الاحتقار وعدم قبولهم بالمدارس السلطانية. فسأ ذلك مسيحي الروم وسورية واسيا الصغرى. أما القبط فانهم كانوا بعد سقوط الاريسيين لا يهمهم علم أبداً لا بل انهم أمسوا بعد قليل يكرهون العلم والعلماء ككرههم للشياطين

(٤٣) لكن حب الامبراطور للعلم وتشيده مدرسة جديدة بالاسكندرية لغن الموسيقى ووضعها لها الجوائز لم يفد الوثنية شيئاً إذ كان الخراب قد عم وطم بلاد ثيبه مقر هذا الدين من جراء تسطي العربان عليها، والقيروان أصبحت قاعاً صفصفاً. والذل صار مزية للقبط حتى أصبح الفلاح يؤثر الجلد على اداء الخراج واذا تخلص من الدفع بشكوى الفاقة هز عطفه مفتخراً بنفاذ حياته على الدولة. أما الاسكندرية فكانت لم تزل أول مدينة بالعلوم ومكتبتها ذات السبعائة الف كتاب لم تزل اعظم مكتبة بالدنيا كما ان السيرايوم حاويها كان اعظم بناية على وجه الارض بعد القبتول معبد يوبتر في روما، وهو المشتري وبرجيس العرب

(٤٤) أما السيرايوم فكان معبد سيرايس على التل غربي المدينة وله مدخلان احدهما للعجلات والآخر للرجل من مائة درجة كل

درجة أعرض من التي تحتها و باعلاه رواق على اربعة أعمدة وصحن
البناء مشكوف تحوطه رواقات على صفين من العمدة وفي البعض منها
خزانات الكتب وعلى سطحه قبة مذهبة ورؤوس أعمدته محلاة
بالصفر والذهب وجدرانه زاهية بالنقوش والصور وفي وسط ساحته
عمود شاهق يستهدي به الملاحون عن بعد . وكان صنم الإلهة
القائم داخله من عهد البطالسة خشباً مكسواً حلةً مجوهرَةً ، ولقاعته
كوّة يقع منها شعاع الشمس على فم الصنم في وقت معين عند
الصلاة فتوهم الناس بأن هناك سرّاً إلهياً . أما رجلاه فلمظنون بأنهما
كانتا من الرخام . ولا يوجد الآن أثر لشيء من هذا البناء سوى
عموده المسمى عمود يُمَي الموازي فخامة اثار القبط الاقدمين

يوليان سنة ٣٦٣ م الى ٣٦٤

(٤٥) ولما مات يوليان خلفه يوليان وكان مسيحياً على مذهب المجمع
النيقي فأعاد اثناسيوس لكرسيه بالاسكندرية لكنه ترك للاريسيين
أسقفهم لوقيوس غير متعرض لهم

(٤٦) ونعم ان الاختلاف بين المذهبين بظاهر الامر كان دينياً إلا ان
اكثره كان لاسباب مرجعها النسل واللسان والوطن فكان
اليونان اكثر إدعاءً بالفهم يحقرون مذهب المصريين بالطبيعة
الواحدة يسوع ويقولون بالطبعيتين وكان كل فريق يكفر الآخر

الى أن بتكاثر عدد القبط المنتصرين تغلبوا على اليونان ولم يمض
قرن بعد هذا الزمان حتى تحرروا منهم مادياً وادبياً

والنس سنة ٣٦٤ م الى ٣٧٨

(٤٧) واذ تُوفي يويان خلفه والتينيان وهذا أعطى أخاه والنس مملكة

المشرق وكان اريوسي المذهب فرفع الاريسيون رؤوسهم
بالاسكندرية وأرادوا الاستيلاء على القصر الروماني المسمى قيصرية
ليجعلوه كنيسة فقاومهم الوثنيون سنة ثم أحرقوه. لكن الامبراطور
بعد سنة بنى للمسيحيين كنيسة بتلك البقعة عينها

(٤٨) ثم ان اثناسيوس وجد مركزه حرجاً بالاسكندرية فرحل عنها

لكن إذ هاجت رعيته أعاده الامبراطور وأمنه فاستراح وأراح إلى
أن مات مخلفاً ذكراً أشهر من ذكر ملوك زمانه وملقياً أساس تلك
السلطة الكنائسية التي رفعت وحطت ممالك عديدة في مستقبل
الايام واهتز لها الخافقان. اما التأليف التي لنا منه فكلها جدلية
بالمذهب واكثرها ضد الاريسيين. ولكن القانون المنسوب اليه
فالصحيح بانه ليس منه ، لا لأن اللعن الموجود فيه كثير على طبع
اثناسيوس بل لأن لا ذكر فيه لوحدة جوهر الاب والابن التي
كان أعظم تشبث اثناسيوس بها قبل كل شيء

(٤٩) وعند موته انتخبت رعيته بطرس اسقفًا عوضه فادّعى بأن
الكرسي الاسقفية بالمدينة هي حقّه وان لوقيوس الاريسي معتصبها
فغضب الامبراطور وأمر بالقبض عليه وسجنه وضبط كنائسه
وأحالتها لأخصامه والغى شريعة قسطنطين التي تعفي الرهبان من
الخدمة العسكرية والتكاليف الجمهورية فرفضوا الامتثال لأوامره
لكنهم إذ كانوا على مذهب الطبيعتين تجرّد لوقيوس لا كراههم
تنفيذاً للشريعة الملك فصيح له استخدام الجنود فكبس أديرتهم
وقتل وهدم ما استطاع من رجالهم ومنازلهم

(٥٠) وهذا بينما كانت الرهبة قد شاعت جداً في مصر واستعرقها
الدولة وسمحت لها باستملاك العقارات والاراضي ومنحها والنس
حق الارث من الرهبان الذين لم يتركوا وصية ولا وارثاً شرعياً.
ومن أعظم أديرتها كان دير طيناً بالصعيد الذي رئيسه باخوميوس
كان اولاً ناسكاً بكهف هناك ثم التفّ حوله الوف من العباد
ينظرون اليه كني، منهم الف وثلاثمائة بهذا الدير وستة آلاف بغيره
لباسهم الجلود وشغلهم الحرث والصلاة. وطيناً او بالحري طينز
يعني مدينة ايزيس، والدير ربما هو المعروف الآن بالدير الابيض
بالقرب من عفروديتوبوليس وفيه كنيسة على الهندسة اليونانية
وشكل الصليب وأما ظاهره فكمعابد مصر القديمة التي أعارتها
أحجارها

(٥١) وكان صنف آخر من الرهبان يرأسهم زاهد آخر يدعى عنوف يزعم بأنه ينال ما شاء بصلاته ^(١) وغيرهم يرأسهم راهب أمي اسمه هوز مولع بانشاد الزبور، وآخرون يرأسهم سيرايون كانوا أهل كدّ وتعب ومواساة للفقراء حولهم. وكان بالقرب من نظريه (التي وجدوا بجوارها البورق فسموه نظرون) جهة مريوط خمسون صومعة بنسائها وأما الأشد زهداً فكانوا يتوغلون بالتقار لحد سطيس مقام أنطونيوس على حافة بحيرة مالحة جذباء حيث الهواء كلهيب النار والسماء كالمهل المرفوع وهناك كان يقيم الناسك موسى التائب من ما ثم شبابه الذي يقال بأنه قضى ست سنين لا ينام فيها أبداً وأنه اذ طرقة ليلة ما أربعة لصوص شدهم ببعضهم بجبل ورفعهم على ظهره وسار بهم لدير بالقرب منه ليقتاصصوا لأنه كان قد نذر بالآل يوجع إنساناً بيده. وكان هناك ناسك آخر يدعى بنيامين الذي اشتهر بزيته المقدس لشفاء الامراض فكانت المرضى تأتيه ليمسحها به حتى لما كان على فراش مرضه بالاستسقاء وكان ناسك آخر يدعى هالاس يحمل النار في جيبه ولا تحرقه ^(٢) وكان بالصحراء العربية بالقرب من أنطينوبوليس إيلياس الزاهد أقام فيها سبعين سنة. وبالقرب من أخوريس كان أبياس الحداد الزاهد الذي يقال بأن الشيطان أتاه

(١) أو بالحري بتقصده وهو مذهب والقول فيه كل من جدوصل وكل من قصد حصّل

(٢) كانه اكتشف على المعدن اسبستوس الذي يحاك ولا تؤثر فيه النار وقد

بصورة امرأة جميلة المنظر فكوى وجهها بالحديد المحي . وكان هناك
أيضاً الناسك أبولوس متهجداً وقاهراً ذاته مدة أربعين سنة وأخبار
عجائبه منقولة لنا من تيموتاوس أسقف الاسكندرية . وكان بالقرب
من الاسكندرية الناسك دوريتوس وبولس ناسك فرما الذي كان
يعيد صلاته ثمانمائة مرة باليوم ويعدها بحصى يحملها لهذه الغاية وكان
من أصدقاء أنطونيوس الذي أهدها جبة كان اثناسيوس أهدها له
فلما كانت بولس على فراش موته طلب أن يلقوا عليه تلك الجبة
ويقال بأنه أول مسيحي تنسك اذ هو ابن ست عشرة في عهد
واليريان وزمان الاضطهاد ومات وهو ابن مائة وثلاث عشرة سنة
فتكون مدة تنسكه سبعاً وتسعين سنة

(٥٢) فصبر هؤلاء الرهبان والنساك على ضنك المعيشة بالفقر ومشايرتهم
سنيّاً على التعب والصلاة جعلهم محلاً للاعجاب والاكرام لأن
الناس لا يرون إلا ظاهر الاشياء . وإلاّ فإن حاجة الكون الى راهب
المعمعة اكثر منها الى راهب الصومعة ، لاسيما وان المصريين قد
فرطوا بصفات هؤلاء العباد وغالوا بأخبار عجائبهم واكثرهم كانوا
هوموسيين يقولون بالطبيعة الواحدة والجوهر الواحد للآب والابن
البعض منهم على مذهب اثناسيوس بالتثليث والبعض يعتقدون بأن
يسوع لم يُصلب بل شُبه للناظرين ورفع الله اليه حياً ، والبعض
يعتقدون بأنه صورة الخالق . وكلهم يكفرون الاريسيين واغريق

الاسكندرية القائلين بالطبيعتين ولذلك غريغوريوس النازينزي يقول بأن مصر هي محجة الدين المسيحي ومذهب التثليث الصحيح وبغض النظر عن أساليب كثيرين من هؤلاء الرهبان فإننا نجد بينهم من يُشهد له بالعلم حقيقة كالراهب مكاروريوس المصري من دير نظريه (وهو غير مكاروريوس الاسكندري) صاحب كتاب الكمال المسيحي الذي هو من خيرة الكتب بالفضل والتقوى

(٥٣) وكان كثيرون من أغنياء المسيحيين الاجانب يقصدون مصر لزيارة أديرتها، فأحدهم المسمى روفينوس من جوار المدينة الحديثة تريسته يخبرنا بأنه تجشم مشقة السفر للصعيد مع بعض رفقائه وشاهد هناك مدينة أوخيرنيقوس وفيها اثنتا عشرة كنيسة وعشرة آلاف راهب وعشرون الف راهبة ويقيم ثيون العالم باللغات اليونانية واللاتينية والقبطية، وقابل في ضواحي مدينة ليقوبوليس ^(١) الناسك يوحنا الذي كان القائد الروماني يعتبره ويستشير به ضد السودان والعربان بتلك الاصقاع. ووجد في دير طيناً ثلاثة آلاف راهب رئيسهم عمون ناذرين الصمت، وخمسمائة راهب في دير بالقرب من هرموبوليس ^(٢) رئيسهم أبولونيوس رجل ذكي عاقل، أثوابهم بيضاء نظيفة وقلوبهم مثابرة. ويقول أيضاً بأنه وجد الوثنية لم تنزل شائعة بجوار هرموبوليس ولها تناوش مع أهل ذلك الدير. وانه زار بصحبة ثلاثة

(١) هي اسيوط الحديثة (٢) هي اشمونين الحديثة

من الرهبان عدة أديرة أخرى بقرى لا يعرف أسماءها منها فوق
صخرة على حافة النهر ومنها ضمن جدار عال وله بستان فيه أبار
وفاكهة. وواجه إيلياس الناسك بالقرب من أنطينو بوليس. وزار ديراً
بالقرب من هيراقلو بوليس. ورأى في الجهة الارسينوتية بلاداً كل
أهلها رهبان أصحاب كدّ وعمل بالحقول وتجارة مع الاسكندرية
ووجد ضواحي منف وبابل غاصّة بالرهبان. وزار الاهرام وقيل له
بأنها كانت الاهراء التي خزن فيها يوسف غلات سني الخصب.
وأخيراً زار دير جبل نظريه الذي كان أشهر أديرة مصر ثم زار بيت
المقدس وعاد راجعاً لبلاده حامداً مما شاهده وعرفه

(٥٤) فبديهيّاً ربما أننا نستغرب وجود هذا الجمهور من الرهبان بين سكان
مصر، إلا أن بالنظر لأحوال ذاك الزمان وما عرفناه من الأسباب
الجارية فيها يرتفع باب العجب ويتضح بأن تلك الرهبنة لم تكن
أولاً إلا ردّ فعل من عظم فساد اخلاق أكثر الناس بتلك الايام
ودواء لداء لا ينفع فيه غير السمّ فارت شيطان الطيش والبطر
والسفاهة وحب الذات كان قد أخذ بكامل حواس القوم وأصبح
غايتهم الوحيدة بالدنيا، فنفر البعض إلى البراري والقفار مبتعدين عن
هذه الخساسة والدناءة. ولما أحبوا الفقراء أحبهم الفقراء والفلاحون
ووازرهم على أعمال الخير والاحسان متبرعين لهم بالعشر من غلاتهم
اقتداءً بالشرعية الموسوية. وبتمادي هذا التبرّع صارت الكنائس

تعتبره فرضاً وبعد إن كان يصرف كله على الفقراء والبائسين صار
يصرف عليهم منه ثلثه فقط ثم أحاط به الكهنة برمته لفائدتهم الذاتية
(٥٥) وكان صنف من الرهبان يُسمى ريموبوت مؤلفاً من الثلاثة
والاربعة يعيشون بالمدن لكنه لا اختلاطه بالجمهور لم يسلم من عدوى
الفساد فسأت سيرته وسقط وتلاشى ذكره

(٥٦) وبهذا الزمان أمر والنس باستيفاء الخراج عيناً من الفلاحين
وجعله كسوة جندي عن كل ثلاثين فدائاً فضايقيهم بذلك. ونرى فيه
بقية من الوثنيين بسباقات الخيل في غرة قائمهم كانوا يتسابقون فيها
مع المسيحيين، فيعودون خيلهم بالهتهم والمسيحيون يرشونها بالماء
المصلّى عليه من كهنتهم وبالأخص من راهب يُسمى هيلاريون الذي
كان لماآته شهرة بالفوز على الاخصام^(١)

(٥٧) وقبل هذا الزمان كانت سطوة العرب تمتد شيئاً فشيئاً بالحدود
الشرقية وانما تجمل القسطنطينية للعرب كان يوقفهم عن التوغل بأملأك
الرومان. لكن إذ مات ملكهم قادتهم الملكة ماوية لخرق معاهدتهم

(١) ومن هذا النوع ما يحكى عن سكان الكونكو بأفريقيا الشرقية وطريقة
دخولهم بالاسلام ان احدهم طلب من الشيخ حرزا يعلقه على ديكه اذا قاتل
ديكا آخر فكتب له الشيخ آية من الفاتحة ولما غلب ديكه اقبل جيرانه على
الشيخ يشترون منه هذا الحرز فاعترض عليهم الرجل بأن الحرز خاصته فصار
الشيخ يكتب لهم احرازاً من آية بعد آية من الكتاب الي ان علمهم
القرآن برمته

مع الرومان فاجتاحوا أرض فلسطين وفينيقيا وتخطوا إمارة حَجَر
 متهددين مصر من جهة رأس البحر الأحمر فهادنهم والنس وعمل
 معهم معاهدة جديدة . ولأن كثيرين منهم كانوا مسيحيين من مذهب
 المصريين اشترطوا عليه اقامة اسقف منهم بالاسكندرية وبعثوا لها
 كاهناً يدعى موسى الذي بوصوله أراد لوقيوس أن يرسمه لكنه أبى
 الا أن يكون ارتسامه من الأساقفة الهوموسيانين المبعدين بالصعيد
 (٥٨) ومن هذا الوقت خرجت حَجَر من ملك الرومان وبعد ان كانت
 أسقفية عامرة بالسكنائس ولها باب نصر جميل ومرسح للالعب لعبت
 فيها ايدي سبا وأهملت حتى صارت ركة يعوي فيها الذئب ثم
 انتست من الناس اعصاراً إلى ان اهتدى اليها الرحالة بركبرد
 وكشف عما بقي من أثارها من وراء الاثل والدفل والشوك

الفصل الثامن

تيودوسيوس الاول . ارقاديوس . تيودوسيوس الثاني

سنة ٣٧٩ م الى ٤٥٠

تيودوسيوس الاول سنة ٣٧٩ م الى ٣٩٤

(١) يمتاز حكم تيودوسيوس بضربته القاضية على الوثنية ، لا سيما وان هذا الدين كان قد ابتداءً ان يسقط حتى من قبل ان صارت المسيحية دين الملوك وكان قسطنطين قد زرع أركانه بقفله عدة من معابذه لكن تيودوسيوس فانه بأول سنة من ملكه سنّ شريعة بأن دين المملكة بأسرها (ما خلا من كانوا يهوداً) هو الثلاث ، وبعد قليل أمر بحفظ يوم الاحد عن العمل فيه دون السبت وبعث حاجبه قينجيوس لمصر مأموراً بتنفيذ هذه الاوامر

(٢) فاستقبل أسقف الاسكندرية تيوفيليوس هذه البلاغات بأعظم الفرح والسرور وبادر حالاً بتطهير معبد مترا وكسر الأصنام بمعبد سيراينس الشهير وعرض ما كان فيه من آلات العبادة لسخرية المسيحيين رغماً عن وجود كثيرين من اهل المدينة ممن كانوا لم يزالوا

يكرمون هذا المعبد فاجتمع منهم جمهور عظيم وثار مدافعاً عن دينه
وتقاليده من هذا التعدي فاصطدم الفريقان حتى جرى الدم كالسيل
إلا أن الوثنيين كانوا أقل عدداً فاضطروا للانهمزام وهرب زعماءهم
من الاسكندرية خوفاً من الحكماء

(٣) ثم استأنف الأسقف هدم معابدهم وكسر أصنامهم فصب منها
أجراساً، إلا صنماً واحداً أبقاء ليكون سخرية لرجاله. وقطعت الجنود
صنم سيرابيس الخشبي بالفؤوس وأحرقوه أما رجلاه فيظن بأنهما
كانتا من الرخام واحداً الآن محفوظة « بالبريتش موزيوم » في
لندن ولا دليل على أصلها إلا كبرها

(٤) وعند انتهاء معبد سيرابيس تشتت السبعائة الف كتاب التي
كانت فيه لأن المؤرخ الاسباني أورو سيوس الذي زار الاسكندرية
بالعهد التالي لم يجد فيه لهذه الكتب أثراً سوى الخزانات الخاوية

(٥) وهنا يجبرنا الانصاف أن نقول بأن كل اضطهاد ديني هو ممقوت
أكان من وثنيين أم مسيحيين لا سيما وأنه يصيب أحرار الناس
أكثر من سواهم فإن الذين اضطهدهم أسقف الاسكندرية كانوا
من علماء ذاك الزمان حنفاء، وأحدهم أولمبيوس كاهن معبد سيرابيس
كان مع كبر سنه ومقامه رجلاً وديعاً حليماً عاقلاً مسموع الكلمة
لا عيب فيه كفضل شهداء المسيحيين ومثلهم حر الأفكار. لا بل ان
الفرق بين الاضطهادين هو بعيد جداً لأن الوثني كان عن سياسة

واققتصاد فقط . واما المسيحي فكان عن غلوّ بدين اساسه الرحمة
والوداعة سليم دواعي الصدر لا باسطاً اذى ولا مانعاً خيراً ولا
قاتلاً هُجراً

(٦) وبعد هذا الاضطهاد لم يبقَ للوثنيين معابد ولا مدارس يأوون
اليها بالاسكندرية فانسحب البعض منهم الى قانوبوس وفتحوا
هناك مدرسة لتعليم الكتابة القديمة وبالاخص للسحر والطلاسم .
وتحولت معابدهم لكنائس طُمست نقوشها وصورها بالطين والكلس
ولكن الآن وقد مات اهلها فقد قُشط عنها الطين وها هي ترى
الآن فلا تحرك عاطفة ولا ساكنًا

(٧) وثابر المصريون المسيحيون على تحنيط موتاهم كالسابق ، رغمًا عن
تحریمها عليهم من انطونيوس . أما اغوستين فكان بالضد يحمّد
من ثباتهم عليها ، يقينًا منهم بالبعث . وكانوا قبلاً يصورون ايزيس
كالنجم سيروس طالعًا مع الشمس عند اول فيضان النيل ،
فصاروا يصورون العذراء فوق هلال صاعدة للسماء . وكانوا
يشعلون الشموع بمعابدهم المظلمة ، فصاروا يشعلونها بالكنائس الغير
مظلمة . وكان لهم عيد يُسمى عيد الشموع ، فصار عيد الشعانين .
وكانوا في الخامس والعشرين من شهر طيبي الموافق عشرين من
كانون الثاني يعيدون بأكلهم الحلاوى فصاروا يأكلونها في
(١١)

السادس من هذا الشهر بعيد الظهور . كما انهم بوضعهم بالقرن الرابع رتبة كهنوتية قد اتبعوا بذلك الطريقة المصرية القديمة التي لم تكن تعرفها الاغريق ولا الرومان وبينما كهنة مسيحي الدنيا تلبس الصوف كان لباس كهنة مصر من الكتان النقي البياض كلبس كهنة الاوثان من قبل ، او لأنه كما جاء في كتاب الوحي «لبس الابرار» . ثم انهم قلدوا اولئك الكهنة بمخلق واسط رؤوسهم . ومن قبل الف سنة كان للمصريين كاهن في ثيبه لقبه حاجب باب السماء ، فصار حامل مفاتيح السماء البابا

(٨) وبعد أن صار الايمان بالتثليث اجبارياً انتدب الامبراطور مائة وخمسين اسقفًا للقسطنطينية لتقرير قانون الايمان النقي فصادقوا عليه ولعنوا الاريسيين وطردهم من كنائسهم ففرح بذلك المصريون والعرب وازدادوا محبة وولاءً للامبراطور حتى انه لما احتاج لجند يثق به ليرسله لتساليا لم يجد أوثق من المصريين لهذه الغاية

(٩) وإذ حان الوقت لفيضات النيل بتلك السنة ولم يفر ، ضجّ الوثنيون وتفاءلوا من خراب معابدهم وهياكلهم حتى خشي الحاكم اواغريوس ان يعقب ذلك شغب وقتال فكتب يخبر الامبراطور بالامر لكن اذ بعد قليل فاض الماء زال البأس وسكن الناس

(١٠) وبعد زمان اثنا سيوس وسقوط الاريسيين بالاسكندرية

انحصرت العلوم عند الوثنيين كشيون وفافوس وديوقنطوس ممن وصلت اليها كتبهم بالحساب والجبر والهندسة والاسطرلاب الصغير وفيضان النيل والسنة المصرية من ٣٦٥ يوماً، اما بولس الاسكندري فانه يحسب السنة من ٣٦٥ يوماً وربع يوم على التقويم اليولياني مبتدئاً من عهد ديوقليتيان . ومن تفصيله عن كيفية معرفة يوم الاسبوع من معرفة يوم الشهر وطريقة معرفة رأس السنة بأي يوم يقع من الاسبوع نعلم بأن تقسيمنا الايام الآن هو عين تقسيم المصريين . كما ان من سرده اسماء الآلهة المختصين بايام الاسبوع نعلم بأن تسميتنا لها منقولة عنهم ايضاً . وقبل ذلك كان المؤرخ هيرودوتوس قد أشار الى مثل هذا ، وديون قاسيوس يزيدنا بأن كل يوم من اسبوع المصريين هو باسم نجم وان سبت اليهود كان يُسمى « سب » وهو ساتورن الرومان وزحل العرب

(١١) ومن كتبة هذا العصر كان المنطقي هورابولو احد أساتذة الاسكندرية ثم القسطنطينية ، ألف كتاباً بلغة القبط يفسر فيه الكتابة الكهنوتية ترجمه لليونانية كاتب يدعى فيليب ولكنه لم يحسن الصنعة فأتت ترجمته قليلة الفائدة

(١٢) ومن نتائج اضطهاد الاريسيين بأول هذا العهد كان تعطيل المدرسة العليا المسيحية التي كان يرأسها غودون خلف ديديموس الاعمى والثالث عشر من رؤسائها الفضلاء مدة القرنين الاخيرين

منهم اثنان ام ثلاثة على المذهب الهوموسياني بينما اكثر التلامذة كانوا اريوسيين ، فلما عادت السلطة للهوموسيانيين انسحب غودون مع تلامذته الى صيدا من بفيليا ولم يبق بالاسكندرية مدرسة عليا الا عند الوثنيين وضاعت حينئذٍ منها تعاليم اقليمس واوريجين وهيراقلاس وديونيسيوس

(١٣) فلم يخرج بهذا الزمان كاتب من مسيحي مصر البتة انما يوجد لمطران الاسكندرية تيوفيليوس رسالات سنوية كان يصدرها لاساقفة مصر معينا لهم فيها يوم الفصح وفيها طعن بحق اوريجين ترجمها جيروم للاتينية . وكان بالصعيد الراهب يوحنا الموصوف بالقداسة وروح النبوة وكان الامبراطور يعتبره ويستشير به بمخطوطة

ارقاديوس سنة ٣٩٤ م الى ٤٠٨

(١٤) ولما تُوفي تيودوسيوس انقسمت المملكة مرةً اخرى ، فان ابنه الاكبر ارقاديوس استولى على القسم الشرقي منها وابنه الأصغر هونوريوس على القسم الغربي ، اما الحاكم فعلاً في مصر فكان الأسقف تيوفيليوس خصم الاروسيين مذهباً والاغريق سياسةً وبذلك استمال عواطف المصريين لجهته . ولما رهبان الصعيد زعموا أن بسفر التكوين وقانون ايمان نيقيا تصريحا بتجسد الخالق ، وانكر عليهم ذلك ديوسقوروس اسقف هرموبوليس ورهبان شطيس

مستشهادين بقول اوريجين ان الخالق هو روح لا غير، رأى تيوفيليوس أن يطاوع الاولين وحزبهم الأقوى. ولكونه لم يجترأ على تكفير اوريجين بالاسكندرية فطلب من ايفانوس أسقف قبرس أن يسنده وهذا جمع في سلاميس اساقفة الجزيرة وقرر معهم تكفير اوريجين، ذاك الفاضل الذي ظل مدة قرنين من الزمان قدوة المسيحيين وامامهم

(١٥) ولم يكن هذا الخلاف لينتهي بالجدل فقط بين المصريين اكان الموضوع مسيحياً أم عاجلاً أو تمساحاً فان اثناسيوس قام بمجنود الاسكندرية الى جبل النطرون واجتمع اليه رهبان الصعيد فكبسوا منازل رهبان شطيس وأحرقوها وعاثوا في اهلها

(١٦) وهكذا نرى اننا كلما تقدمنا بتاريخ المسيحية المصرية كلما زدنا حزناً وأسفاً فان الناس شرعوا بهذا الزمان ينبشون قبور الشهداء والتديسين ليتبركوا بعظامهم ويستشفون بلمسها وازدحت كنائس القسطنطينية بالموميات حتى ان يوحنا فم الذهب شكر من مصر لتغذيتها اجسام فقراء العاصمة بمخنطتها وقلوبهم بايمانها، وقال هذا وهو ليس من مذهب المصريين

(١٧) ومن تقاليد المسيحيين الوثنية بذاك الزمان كان اكرامهم لبعض اشجار بأنها مقدسة. فقالوا بأن اللبخ (برسيا) هي شجرة يسوع المقدسة لأنها أظلمته وابويه حينما أتوا مصر وسجدت له. وان شجرة

منها في هرمو بوليس كانت تشفي مرض لامسها وان الامبراطور
يوليان أمر بقطعها نكابة بالمسيحيين وكانوا يزرعون هذه الاشجار
في حدائقهم واذا ذبلت قالوا بأن الوثنيين كانوا يؤذونها فأمر
ارقاديوس بأن كل من قطع أو باع شجرة منها يغرم بدفع جزاء
قدره خمسة ارطال من الذهب، ولكن رغمًا عن ذلك فان وجودها
انقرض مع الزمان ربما لعدم معرفتهم بطريقة تربية شجرة غريبة
لا علم لنا بحقيقة جنسها الآن انما اكثر الظن بأنها كانت شجرة
السَّكَم (ميموزا) التي اذا مسَّها يدٌ حنت أغصانها كأنها تسلم
ولذلك تحبها العرب وتحرم أذاها

(١٨) وقد رأينا انحطاط العنصر اليوناني بالاسكندرية بسقوط الحزب
الاريوسي بالمائة السنة الاخيرة فالآن نرى ايضاً انحطاط الاسكندرية
من ثروتها وعجزها عن نفقة تنظيف النهر والترع بجوارها لأننا نرى
الامبراطور أمراً بتخصيص اربعماية صولدي من مدخول كماركا لهذه
الغاية وذلك عبارة عن مائتين واربعين ليرة من عملتنا الدارجة

(١٩) وبهذا الزمان اشتهر قلوديان اليوناني الاسكندري بشعره اللاتيني
حتى كاد أن يُعدَّ من طبقة ورجيل ولوقريتيوس واويد وكان
ارقاديوس واخوه هونوريوس يكرمان منزلته كثيراً

(٢٠) وكان بهذا الزمان من مشاهير الغرباء بالاسكندرية النطاسي
بولس من اجينا، جزيرة بالقرب من اثينا، له كتاب بالطب مفيد

وسيزينيوس الفيلسوف الافلاطوني المنتصر على يد البطرك تيوفيليوس الذي لم يعترف بالبعث الا بعد أن صار أسقفًا على البطلسيه ، بالقرب من القيروان ، وهو رجل متزوج مع ان القانون يستدعي عفة الأسقف . وكان البطرك قد سأله أن يترك زوجته لدى ارتسامه اسقفًا لكنه أبى هجرها ، لابل قام معها يخدمان الدين والرعية أحسن خدمة . وكان قد درس الرياضيات بصباه على الاستاذة هبأثيا ابنة ثيون الوثنية فظل يكاتبها من البطلسيه بالمسائل العلمية ويكلفها بارسال آلات الرصد التي أهدى منها اسطرلابًا للقائد الروماني رفيقه هناك

(٢١) أما من وجه الحالة الاقتصادية فان مصر كانت حينئذٍ بأسوأ الحالات . فمن جهة كانت قبائل افريقيا تسطوا على ليبيا وبعض الارياق فتسلب وتتهب ما امكنها ومن الجهة الاخرى كانت الرمال تسطوا على المزارع فتعطلها حتى ضاقت الاماكن على الفلاحين فهجروها وتحول اعظمها الى مستنقعات وبائية وأهملت المقالع لتوقف البناء ، ومناجم الذهب لفراغها منه . وكان سيزينيوس يرى هذه الحال بعين ملؤها الدموع من فقر البلاد ويسأل الله لطفه بالعباد ليلاً ونهاراً

تيودوس الثاني سنة ٤٠٨ م الى ٤٥٠

(٢٢) واذا مات ارقاديوس خلفه ابنه تيودوسيوس وهو بسن الثاني

سنتين وبعد ذلك بخمس سنين مات البطرك تيوفيليوس فتجدد النزاع بين الاريسيين والهوموسيين على خلفه فالولاك كانوا يريدون تيموتاوس وهؤلاء، وهم الاكثرون، كانوا يريدون كيريل نسيب البطرك المتوفي فتجادلوا وتشاحنوا وتضاربوا بالأسواق ورغماً عن ميل القائد ابوندتينوس للاريسيين فان الفوز كان لحزب كيريل فأقاموه بطركاً

(٢٣) ولم يكن كيريل أقل بغضاً من سلفه للاريسيين وللإهود أيضاً وكثيراً من الأوقات كان المسيحيون يتعدون على الإهود لا سيما في مرسح الالعاب والرقص يوم السبت فتخاصموا يوماً وفصلت الجنود بينهم قبل أن يؤل الامر الى قتال لكن المسيحيين ادّعوا بأن الإهود تهددوهم بحرق بيعهم فتجمعوا باليوم التالي وعلى رأسهم البطرك وهجموا على كنائس الإهود فتهبوا وأحرقوها وطردها كافة الإهود من المدينة

(٢٤) فاستاء الحاكم اورستيس من تصرف البطرك ولا سيما من خسارة الجزية اليهودية ولكن لما بلغ رهبان جبل نظريه بأنه يرغب التعرض للسلطة الكنائسية هرولوا للاسكندرية وتجمعوا بأسواقها. واذا مر بهم الحاكم بعجلته شتموه صارخين بوجهه «يا وثني يا اغريقي» لا بل ان احدثهم عمونيوس رماه بحجر أدماه فسل حرسه سيوفهم وبددوا هؤلاء الرهبان وطردهم من البلد وقبضوا على المجرم وقتلوه فاعتبره

البطرك شهيداً وابنه باسم القديس توما. لكن لما الجمهور لم يطاوعه على ذلك برجل أحق عدل عن رأيه والغى التابن المذكور

(٢٥) إنما كل هذه الشناعات لا تُعد شيئاً إزاء ما كان من جناية هذا الأسقف ورعيته فيما بعد. فان هبائثا ابنة ثيون المذكورة آنفاً المولودة سنة ٣٧٠ زوجة ايزيدور الفيلسوف البديعة الحسن والكمال ومعدن اللطف والدكاء، ومن علماء زمانها المفلقين، وخطباء المدرسة الأفلاطونية المعدودين، كانت عن غير قصد منها قد أثارت حقد الهوموسيين عليها لعدم اتباعها دينهم فعمدوا نيتهم على هلاكها وترقبوها يوماً وهي مارة بعجلتها فهجموا عليها وسلوها من مركبتها وجروها وراءهم على الأرض إلى معبد قيصر وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها إرباً إرباً وحملوها لأتون خارج المدينة أحرقوها فيه وذلك في الصوم الكبير سنة ٥١٤ ولضعف الحكم ذهب دمها هدرًا

(٢٦) وبهذه الأيام انحصر المذهب الأريوسي بين الجنود اليونانية، فالذين كانوا يحصن بابل أقوى حصون مصر بنوا فيها كنيسة لهم باسم القديس جرجس أي الأسقف الأريوسي الأخير، والذين كانوا بالبطلسية فعلوا نظيرهم ولم يزل اسم هذا المكان جرجا وصاروا يرسمون صورته كفارس يشك برمحه تنيناً هو أثناسيوس الهوموسياني كما هي صورته على بعض النقود الانكليزية. أما اتخاذ الانكليز القديس جرجس شفيعاً لمملكته لا يُعرف له باب إلا أن تكون الصورة

أعجبته فمقلوها . ولكن القديس الذي يستحق أن يسمى شفيعاً لهم فهو
غريغوريوس لأنه كان أول مبشر لهم بالمسيحية فرمما انهم قديماً قد
اشتبهوا بالاسمين لقرب مخارج حروفهما فبدلوا أحدهما بالآخر وهم
لا يشعرون

(٢٧) أما الهوموسيون فكانوا يبنون كنائسهم على اسم القديس
اثناسيوس وصاروا يسقفونها بالخشب عوضاً عن الصفاح القديم ثم ان
تيودوسيوس لكثرة الوفود التي كانت تأتيه من الاسكندرية
بسعايات ضد البطرك أو الحاكم أمر بأن لا يخرج اليه منها وفد إلا
بإذن الحاكم ورأي المجلس البلدي فاستراح هو ولكنه فتح باباً
لاستبداد الحكام لا طريقة لسده

(٢٨) وبهذا العهد نفى يوحنا فم الذهب من أسقفية القسطنطينية لأسباب
لا تعلق لها بتاريخ مصر سوى أن المحرك فيها كان أيضاً أسقف
الاسكندرية . ونفى معه بلاد يوس أسقف غلطة مبعداً إلى اسوان
وهذا له كتاب تراجم كثيرين من نساك الصعيد الذين عرفهم قبل هذا
الوقت ثم لما أفرج عنه سار قاصداً بلاد الهند ليطلع على حكمة براهمتها
وبوصوله إلى عدوله على البحر الأحمر وجد هناك أسقفها موسى راغباً
بمرافقته فركبا مركباً تجارياً سار بهما طويلاً وبعد مشقة بلا فائدة
عاد بهما خائبين من غرضهما فصعد بلاد سيوس إلى ثيبه وهناك تعرف
بتاجر اسمه قوسماس وقص عليه خبر سفره فأجابه هذا بأنه قد أفلت

(٢٩) من بلاء عظيم لانه هو أيضاً سافر مرّة قاصداً الهند لكنه أخذ أسيراً في جزيرة سيلان ولم يتيسر له الهرب منها الا بعد ست سنين مرّة جدّاً وكان أسقف القسطنطينية بهذا الأثناء نستور يوس ولأنه أنكر على الجمهور قولهم مريم أم الله وقال بل هي أمة الله واضطرب الناس لذلك حشد الامبراطور مجمعاً من أساقفة المملكة بافسس ليحكموا بالخلاف فحكموا بتضليل نستور يوس فنفاه الامبراطور إلى حبيبه بالمرج الكبير بين أخصام مذهبه لكن لما بعد ذلك سطت العربان على المرج هرب منهم إلى بانو بوليس وتوفي فيها على أثر مشقة الفرار إلى الصحراء

(٣٠) وبالقرب من هذا الزمان جاء مصر الراهب الغالي قاسيانوس ليدرس قوانين الرهبنة الصعيدية ومن كتاباته لآخوانه في إيتاليا وغيرها من بلاد المغرب يظهر بأنه كان يجب لهم هذه المعيشة لان كثيرين منهم أتوا مصر وقطنوا الصعيد ، ولعدم معرفتهم لغات القوم القبطية أو اليونانية وجب إرسال قوانين الرهبنة لجيرون في روما ليترجمها لهم وهم الذين نشروا في تلك الجهة من مصر رسم الحواري بطرس قابضاً مفتاحاً . ويرى الآن رسمه على جدران معبد السبوعة القديم بالنوبة مواجهاً صورة رمسيس الثاني الذي أصلاً كان يواجه أحد الآلهة مقدماً له هداياه

(٣١) وللرهبان فضل لا ينكر لانهم ترجموا العهد الجديد للثلاث لغات القبطية وهي الصعيدية والبشمورية والقبطية الصحيحة لغة الارياف

وترجموا قوانين مجمع نيقيا وأخبار الشهداء والآباء الاولين وقوانين الكنيسة القبطية وكتاب الحكمة الدينية المسمى بستيس صوفيا الذي ينكر معجزة الحمل ليسوع ويزعم بأنه إذ درج أتاه الروح القدس بصورة صبي من سنه وعاتقه فامتزجا وان من هذا الامتزاج كان اتحاد الطبيعتين ليسوع

(٣٢) وترجموا التوراة والانجيل لليوناني مكتوبين على جنس من الورق لكن أقدم صورة وصلت إلينا من هذه الترجمة هي على الرق . صورة منها بالواتيكان وأخرى بمكتبة باريس وأخرى في بطرسبرج وأخرى بالبرتش موزيوم جميعها من نقل الاسكندرية . والاوليتان ربما هما أقدم هذه النسخ . وبمقابلة النسخة التي في لندن على التي بالواتيكان يظهر لنا كيف كان التدرج للجدال بين علماء اللاهوت عن يسوع لقول بعضهم « نُنْ بوسِه بكاره » وقول آخرين « بوسِه نُنْ بكاره » اي لا يقدر يخطيء أو يقدر ألا يخطيء . أما الترجمة اللاتينية المسماة « ولجات » فانها منقولة عن ترجمة يونانية قديمة ولضعف لغتها وترجمتها الحرفية بدون اعتبار وضع الكلام بين لغة ولغة يظهر بأن مترجمها كان يونانياً من الاسكندرية

(٣٣) وبهذا العصر تقدمت صنعة عمل الورق من الفافير (ومنه اسم الورق بلغات الافرنج لكون الفاء والياء مترادفتان) حتى جاز أن يسمى ورق الكتاب أي الكاغد اما ورق الفافير المستعمل بأول

قرن من هذا التاريخ فكان يؤخذ على طبيعته ويلصق بمادته ، ثم بالقرن الثالث صار يلصق بالغراء انما ورق هذا الزمان لم يكن بقوة القديم منه فلم يبق له أثر . وبوجه الاجمال لا يوجد كتاب مسطر قبل القرن الحادي عشر إلا ما هو على الرق

(٣٤) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقدس وكان بينهم موسى الخوريني الذي عرف فيما بعد بمؤرخ الارمن . وكلهم كانوا مرسلين بعناية البطررك اسحق والعالم مزروب ، رجالين من أهل الفضل والذكاء ، وغايتهما كانت إبدال حروف لغتهم المنقولة عن لغات الفرس والاغريق والسريان بحروف يونانية تناسب مخارج لغتهم وأيضاً تصحيح ترجمة الكتاب المقدس المنقولة عن العبراني والسرياني على الصورة اليونانية فلما وصل هؤلاء الشبان للاسكندرية لم يجدوا فيها أستاذاً مسيحياً فاضطروا لدخول المدرسة الافلاطونية التي كان رئيسها سيرانوس فقرأوا فيها كتب اللغة اليونانية والتاريخ . وتاريخ أرمينية لموسى يشهد باستفادته كثيراً من هذه المدرسة . ولما اكملوا دروسهم عادوا لبلادهم فازدهت أنديتها بعلومهم وآدابهم ولم تزل مؤلفاتهم بأيدي رهبانهم بدير القديس اليعازار بالبندقية واكثرها منقول على رق قديم مغسول يظهر فيه أثر من آيات الكتاب المقدس بلغة اليونان القديمة

(٣٥) أما كتبة هذا الزمان المسيحيون فما منهم من يستحق الذكر . فان

كيريل البطرك لم يترك لنا سوى تشنيعه على النسطوريين ويوليان
والرهبان المجسمين . وايزيدوروس ترك رسالات دينية جدلية كتبها
من بلوزيوم ونونوس من بانوبوليس الذي ترجم انجيل يوحنا شعراً
وله نشيد بوصف باخوص الاله الحمر اليوناني

(٣٦) وكانت رهبان جبل سيناء عرضة بذاك الزمان لتعدي العربان
لا حصن لهم سوى الفقريين تلك الجبال حول وادي فاران وسفح
جبل سربال وكان جبل سربال يسمى أولاً جبل سفر والعرب
للآن تسميه وادي المكتب . انما اسمه الاول فلاعتباره منزل الوصايا
العشر والثاني فلسبب الكتابات التي تركها الزوار على صخوره من
الف سنة أو اكثر قبل هذا الزمان ، بعضها رومية وبعضها عبرية
من زمان حزقيا لا يفهم منها الا القليل

(٣٧) وكما كان الطب قديماً من اختصاص الكهنة كان صنف من الرهبان
أيضاً مصلحة الطب يُسمى فارابلاقي لمداداة وخدمة المرضى المحتاجين
مجاناً . فحصل له اعتبار من الحكام وحاز على امتيازات وعلوفة من
الدولة مما جعل كثيرين يرغبون الاستخدام فيه حتى من ذوي الثروة
لكن الدولة رأت أن تحصره بستائة نفر من ذوي الحاجة . وكان صنف
آخر من الرهبان يعتني باسعاف الفقراء والغرباء البائسين

(٣٨) ورأى الامبراطور فقر الاسكندرية بهذا الزمان فأمر بزيادة مائة
وعشرين أردباً من القمح للاحسنات اليومية ومنح أعضاء مجلس

البلدية امتيازات تنشطهم على الخدمة وبنى كنيسة كبيرة على اسمه وأمر الحاكم بترميم الكنائس العتيقة وبناء كنائس جديدة بقدر الامكان

(٢٩) نعم ان الوثنية كانت قد ضعفت جداً بعد هدم معابدها إلا أن علماء الفلسفة الغير متنصرين كانوا لا يزالون من مدرسي العلوم الرياضية واللغة والتاريخ بالاسكندرية لكنهم لانكسار شوكتهم واهمالهم من الدولة صدمت قرائحهم فانحصر اشتغالهم بتفسير أرسطو وأفلاطون والجدال بأيهما الأفضل . ثم لما انتقل سيرانوس رئيس المدرسة الافلاطونية إلى أثينا صارت هي الكرسي لهذه الفلسفة

(٤٠) أما فلسفة أرسطو فكان الاستاذ فيها بالاسكندرية أولميودوروس الصعيدي المولد الذي نعلم منه ان بزمانه كانت الزراعة بالصعيد نامية جداً وانها كانت تُسقى كل ثالث يوم مرة بالصيف وكل خامس يوم مرة بالشتاء من آبار عمقها مائتان الى ثلاثمائة قدم فتعطي موسمين من الشعير وثلاثة من الدخن بالسنة . ويقول بأنه زار أرض النوبة قاصداً جبل الزمرد بالصحراء العربية بين قبطوس وبرينقة التي هي الآن ساقية القبلة بالجهة الغربية من البحر الاحمر ، لكنه لم يصل اليه لاعتراض العربان بتلك الجهة . ويوجد له كتاب بالكيميا في مكتبة باريس لم يطبع بعد

(٤١) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية فروقلوس للدرس فيها ، فقراً

فلسفة أرسطو على أولمبيودوروس والرياضيات على هيرو والبيان على ليوناس والمنطق على اوريون الذي كان يفتخر بأنه من نسل كهنة ثبية ، ودرس اللغة اللاتينية بمدرسة الرومان ونبغ فيها ثم مال لدرس فاسفة أفلاطون فلهق بسيرانوس في أثينا وفيها صنف كتبه بالرياضيات والفلسفة الأفلاطونية على منهج خاص له ربما شط فيه أكثر من شط بلوتينوس بالموضوع . وهذا شأن كل مذهب اما بالزيادة اما بالنقصان يضيع معهما القصد الاول

(٤٢) وممن هاجر من علماء ذاك الزمان لاثينا فمفريتوس وأوريون وأسقليبيودوتوس الكاتب بالطب والرياضيات والآداب وهو برهان على وجود بقية لم تعتق الدين الجديد، لا بل ان كثيرين من الناس كانوا لم يزالوا على اعتقادهم القديم لأننا نراهم سنة ٤٣٦ مجتمعين سرًا بالليل باحدي مراسح الاسكندرية للاحتفال بعيد النيل لما سقط بهم المكان وهلك منهم بسقوطه خمسمائة نسمة أو أكثر

(٤٣) وبهذا الوقت كانت إدارة الأمور الخارجية بالقسطنطينية متعلقة بوزيرين من الأعيان أحدهما للمشرق والآخر للبلقان وكانت مصر حينئذٍ مقسومة إلى ست ولايات ، القيروان والمرج والصعيد والأرياف الغربية والأرياف الشرقية وليبيا . وكل وال من ولايتها له دائرة من مستشارين وقضاة ومحاسبين وكتبة . أما الجنود فكانت موزعة بين خمسين من مدنها كلها تحت قيادة أمير كبير ودوقين لو كانت

قوتها بنسبة عددها لكان حكم هذا الامبراطور يُعدُّ بعظمة حكم اغسطوس لكن الجنود الرومانية واليونانية كانت بينها قليلة والباقي كانوا اخلاطاً اكثرهم من رعايا الافرنج والمغاربة والصرمط والاشوريين والبلقانيين والافريقيين والسودان ، بينما حامية العراق كانت من السودان وحامية تراسيا اكثرها من عربان الصعيد بخيلهم وجمالهم ، لان القبط كانوا قد نسوا الرجولية من زمان طويل لا يصلحون للجنديّة . وكان جبي الخراج مناطاً بعدة امراء ومستخدمين بكل من هذه المقاطعات ما عدا الاسكندرية التي كانت لا تعطي خراجاً بل تستفيد منه

(٤٤) ثم بعد قليل من هذا الزمان انقسمت الولايات الى ثمان ، الصعيد الأعلى وفيه احدى عشرة مدينة والصعيد الأوسط والمرج الكبير وفيهما عشر مدن ثم القيروان ثم شطر من ليبيا جهة مصر ثم شطرها الآخر جهة الصعيد ثم النصف الغربي من الارياف ثم نصفها الآخر ثم بوبسطي التي هي الآن تل البسطه الى البحر الاحمر منها ما كان تحت حكم دوقا ومنها تحت حكم قائد عسكري ومنها تحت حكم متصرفين ، أي ان مصر اصبحت اقليماً رومانياً

(٤٥) ولكن بينما كانت دولة المشرق تزداد ضعفاً ونحولاً كان المغرب يهرول الى الخراب التام هرولة بسبب انتقاض الولايات الاوربية

وشطوط افريقيا على الدولة . فالغوط اهل جنوب الدانوب سطوا
 بأول هذا العهد على ايطاليا ونهبوا روما تحت قيادة ملكهم العريق
 وبعدهم جاء الهن من شمالي الدانوب تحت قيادة ملكهم اتيلا
 واستولوا على شمالي ايطاليا بعد موت تيودوسيوس الثاني بسنتين
 ولولا ان التليان يرضونهم بالمال ويموت اتيلا لكانوا دخلوا روما
 ايضاً ونهبوها ولكن لم تكن هذه الوسائل والمرققات مما يفيد المرض
 العضال ، فانشقت المملكة الى نصفين وانفصلت مصر عن روما
 انفصالها الاول بعد ائتلافهما مدة سبعة سنة وعادتا غريبتين
 بعضهما عن بعض كما بالزمان الذي فيه ارسلت سناطوريا بعثاً
 لبطليموس فيلادلفوس تخطب مصادقته

الفصل التاسع

مرقيان . ليو . ليو الثاني . زينو . باسيل . انستاس

سنة ٤٥٠ م الى ٥١٨

مرقيان سنة ٤٥٠ م الى ٤٥٧

(١) ولما مات تيودوسيوس الثاني استولت اخته بولشيري على زمام الملك وعمرها اثنتان وخمسون سنة واختارت مرقيان احد الاعيان زوجاً لها واصله كان جندياً ككثيرين من ملوك الرومان ، فوجد المنازعات الدينية قد عادت بصفة جديدة بين المسيحيين بعد ان كادت بزمان قسطنطيوس ووالنس ، بالتحزب للهوموسيين والاريوسيين ، ان تفصل مصر عن جسم المملكة لولا تلافي هذا الخطر من تيودوسيوس الأول وسلفائه بحسن سياستهم . فان كاهناً يدعى اوتيخيوس اخذ يعظ بهذا الزمان بالقسطنطينية بالطبيعة الواحدة ضداً لمذهب رؤسائه القائلين بالطبيعتين ، واذ طرده البطررك من الكنيسة انتصر له ديوسقوروس بطرك الاسكندرية خلف كيريل ، وكفر اسقف القسطنطينية فرأى الامبراطور ان يحشد اساقفة

المملكة للنظر في هذا الخلاف فاجتمع منهم ستمائة واثنان وثلاثون اسقفًا في خلقيدونيا وحكموا بضلال الكاهن المذكور واسقف الاسكندرية فعزله الامبراطور واقام بروتيروس عوضاً عنه (٢) وكانت مصر إذ ذاك قد تبرأت تماماً من مذهب اريوس واتحدت على مذهب الطبيعة الواحدة الذي صار فيما بعد يُعرف بالمذهب اليقوي فأبت أن تأخذ دينها عن اغريق القسطنطينية وانكرت قرار مجمع خلقيدونيا

(٣) وهكذا عند دخول بروتيروس للاسكندرية محفوفاً بالجيش استقبله الجمهور بالرحم والسهام. ولما التجأت عصابته الى معبد سيرايس الشهير اضرم المصريون فيه النار وأبادوهم عن آخرهم واستبدوا بالمدينة حتى اضطرَّ الامبراطور ان يبعث جيشاً ضدهم ، فحاصروا المدينة وهدموا اسوارها وارقروا الاسقف على كرسيه. ثم امر الامبراطور بتسكير مراسح الالعاب وقطع الاحسان من الخراج مدةً من الزمان عقاباً للمدينة

(٤) وبينما هذه الحوادث تعرقل الحكام وتزعزع اركان الدولة كانت العربان تكتسب جرأةً لتشويش اطراف المملكة والتعدي عليها حتي في جنوب الشلال. ولمدة ما كانت الحامية الرومانية المقيمة في اسوان قادرةً أن تصدهم عن التوغل بالبلاد ، لكن إذ انضم اليهم النبط دخلوا الصعيد وامتلات ايديهم من الغنائم حتي حسبوا

أن لا قوة تقدر على ردّهم. فخرج اليهم القائد مقسيمينوس ونال منهم فطلبوا الصلح خالفين بأنهم لا يتخطوا حدودهم ما دام مقيماً في ثيبه فأبى مصالحتهم على هذا الشرط واشترط عليهم ردّ السلب والاسرى والمهادنة لمائة سنة ووضعهم الرهائن من اكبرهم بين يديه، فرضوا بذلك وصالحوه

(٥) لكنّه بعد قليل مات فتحرك النبط من جديد وخرقوا المعاهدة

واستعادوا رهاينهم وعاثوا في البلاد كالأول

(٦) فبانتصار هؤلاء النبط تلاشت المسيحية من الصعيد وعادت

الوثنية الى ما كانت من قبل سبعين سنة، لابل ان البعض ممن

كانوا قد تنصروا رجعوا يصلّون لايزيس وسيرايس

(٧) اما النوب، مجاوري هؤلاء العربان، فيظهر بأنهم كانوا ارقى منهم

بالمدينة لاننا نجد كتابة رومية بلغة رديّة من هذا الزمان أم بعده

قليلاً على جدار معبد طاميس التي هي الآن قرية قلابشي، تشير الى

ان ملكهم سلخو قد حارب هؤلاء العربان اسلاف البشاريّة

الحديثين مراراً عديدة واطاعته البلاد من طاميس الى فرميس

وكان يوصف بالمريخ والاسد ومن اعظم ملوك الدنيا، انما تلك البلاد

كانت بتوالي الاضطراب المحيط بها قد تعطلت زراعتها بنصف

مساحتها والرمال غطت على النصف الآخر منها مع ما فيه من المعابد

والاصنام كأنها تخفيها عن انظار لم تعد تعرف لها قدراً لتبقى عبرة
لقوم آخرين

ليو سنة ٤٥٧ م ٤٧٣

(٨) ولما مات مرقيان خلفه ليو وكان اول امبراطور قسطنطيني توَّجه
اسقف. فاغتم الاسكندريون فرصة غياب القائد ديونيسيوس بحرب
النبط واسقطوا بروتيروس من كرسي الاسقفية ونصبوا عوضاً عنه
الراهب تيموناوس العروس اليعقوبي وبلغ ذلك ديونيسيوس فهرول
مسرعاً للاسكندرية لكنه لم يصلها حتى كان العصاة قتلوا بروتيروس
بصومعته وعلقوا جثته بالتترافيلون ، ولأن الأعيان شاركوا الرعاع
بهذه الجناية خشي الامبراطور لئلا تكون الحركة سياسية تحتاج
لتدبير سياسي فاستشار الاساقفة كي يمدّوه برأيهم لكنهم كانوا
كالمصريين لا يهمهم شيء سوى المذهب فألحوا عليه بالتمسك بقرار
مجمع خلقيدونيا وعزل الاسقف اليعقوبي فاضطر الى مطاوعتهم
واقام اسقفًا آخر اسمه ايضاً تيموتاوس الذي صار يعرف
بالامبراطوري

(٩) ثم انتقضت ليبيا عليه فأخضعها بقليل من الجند تحت قيادة
هيراقليوس ، الا انه لما كان على شطوط قرطاجنه ليسترد البلاد من
الوندال فقد عمارته كلها وبعد قليل توفي

زينو سنة ٤٧٤ م الى ٤٩١

(١٠) ولما مات ليو سنة ٤٧٣ خلفه حفيده ليو الأصغر لكنه بعد سنة مات هو ايضاً وخلفه ابوه زينو وكان رجل لهُو ولعب فانتقضت عليه فئة بايعت باسيل صهر ليو الاول ومن المذهب اليعقوبي فاستولى على العاصمة بدون قتال ونفى منها زينو وردَّ الاسقف تيموتاوس العروس لكرسي الاسكندرية سنة ٤٧٧ والغى قرار مجمع خلقيدونيا ، فلما عاد هذا الاسقف للاسكندرية دخلها كفتاح فاستبدَّ بالامر وعزل ونصب وقطع ووصل كما شاء واعاد لمدينة افسس مقامها البطريكي الذي كان مجمع خلقيدونيا حرّمها منه . لكن لسوء حظ المصريين لم تمض سنتان حتى تغلب زينو على باسيل وقتله

(١١) ثم عزل الاساقفة اليعقوبيين من كراسي مصر وجدّد العمل بقرار مجمع خلقيدونيا اما تيموتاوس العروس فكان بهذا الاثناء قد توفي وخلفه بطرس منجوس فأبدله زينو بتيموتاوس الامبراطوري ليكون طوع يده ومراقباً سياسياً على المصريين

(١٢) الاّ ان لما كان مصدر المداخل الكنائسية هو الشعب جاز له الاعتراض على تأديتها لاسقف من غير مذهبه فبعث للقسطنطينية كاهناً اسمه يوحنا يسترحم الامبراطور بابدال الاسقف ، فوعده

الامبراطور انه سيفعل متى سنحت الفرصة وبعد قليل مات تيموتاوس
وأراد الشعب يوحنا اسقفًا لكنَّ الامبراطور لم يرده فدعى للاستقفة
بطرس منجوس مختار الرعية سالفًا واتفق معه على العمل بقرار مجمع
نيقيا وترك اللدد بشأن قرار مجمع خلقيدونيا

(١٣) فهرب يوحنا الى روما كعادة سالفه يتظلم لأسقفها فيليكس

فخاطب هذا القسطنطينية بأمره وكان بطرس بهذا الاثناء قد تنص

عهده مع الامبراطور وباشر باضطهاد الرهبان المتمسكين بقرار مجمع

خلقيدونيا فبعث له الامبراطور حاجبه قوسماس ينصحه ان يعتدل

ولما لم يرتدع بعث القائد ارسينوس فسحبه مقيداً للقسطنطينية ليُحاكم

(١٤) لكنه بعد قليل مات فيها فتوفى المصريون لانتخاب اسقف

وديع ذكي يُسمى اثناسيوس فضمدَّ جراحات الكنيسة بحلمه وراح

الامبراطور من اخبار النزاع والشناعات لأجل المذهب

(١٥) وكان بهذا الزمان فيلسوف افلاطوني يُسمى هيروقليس وكانت

الناس تقبل عليه لاستماع فصاحته التي لم يتعرض فيها للمسيحية قط

فأراد الحاكم اكراهه على اعتناق هذا الدين لكنَّ الامبراطور أمر

بالعفو عنه. والمؤلفات التي تركها لنا تشهد له بسمو الآداب وحسن الطوية

(١٦) والمظنون انه بهذا الأوان وجد ايضاً المنطقي تريفودوروس

الاسكندري ناقل اوديسه اوميروس متكلفاً فيها عدم استعمال

حرف السين اقتداءً بالمنطقي نسطور قبله الذي يقال بأنه نقل

الاي اذا متكلفاً فيها الاستغناء عن بعض حروف كالألف والباء وهو تكلف ان صحَّ عديم الفائدة ومن عبث الامور (١٧) وبهذا الزمان صنف العالم فلوطوس الصعيدي في ليقوبولي حكايته

الشعرية باختطاف هيلانه وهي حكاية عن ثلاث إلهات ، وينوس ويونو وهيلانه ، يتخاصمن أيهنَّ الأجل فيحكم بينهما فارس خاطف هيلانه واخذها الى تروادا حيث كانت الحرب الشهيرة بسببها ، وهي حكاية من خرافات اليونان القديمة الا ان حكاية فلوطوس اكثر احتشاماً مما أتى قبلها اذ الحكم فيها لجمال الوجه فقط واكثر ما كان من تهتك وينوس امام الحكم انها كشفت له عن ثديها (١٨) ولعدم وجود من يستحق الذكر من علماء المسيحيين بهذا الزمان نكتفي بذكر عوطاليس اسقف سولقة بالصعيد الذي خلف بعض ملاحظات على رسالات الخواري بولس اهداها للبطررك اثناسيوس وبعده بقليل جمع المنطقي حرقوس قاموسه اليوناني الذي كان اوفى قاموس لذاك الوقت . ومن استعاراته له بعض امثال من الانجيل يُستفاد بأنه كان مسيحياً

(١٩) ومن كتب هذا الزمان ايضاً كتاب طويل بالطب للنطاسي عيتيوس الاسكندري يصف فيه علاجات الاولين والآخرين حتى ما هو لتطرفة جمال المرأة ، وينقل عن الملك نخفسوس فائدة خاتم اليصب الأخضر لبعض العلل

انستاس سنة ٤٩١ م الى ٥١٨

(٢٠) ولما آل الحكم الى انستاس جرى بسياسته على قدم سلفه في مصر فان الاربعة الاساقفة الذين تداولوا كرسي الاسكندرية بزمانه كانوا يعقوبيين ، وهم يوحنا ويوحنا آخر وديوسقوروس وتيموتاوس حتى توهم المصريون بأنه من مذهبهم ، فأراح البلاد من المنازعات الدينية . انما اساقفة باقي المملكة فلم يكونوا راضين عن نفوذ اليعقوبيين لابل ان المؤرخ الكنائسي يصف تلك الازمنة بأزمة الضلال والفتور بالدين . واسقف تونس يزعم بأن المصريين ابتلوا حينئذ بمرض تركهم ينبحون بالاسواق كالكلاب ولم يكن له دواء الا الرجوع لمذهب مجمع خلقيدونيا

(٢١) لكنه لم يتم له تنصيب الاسقف ديوسقوروس بدون مقاومة من الشعب بدعوى ان ارتسامه لم يكن على السنة الرسولية فاضطر حاكم الاسكندرية الى خفزه حتى أجلسه على كرسيه في كنيسة مارمرقص ومع كل لطف هذا الامبراطور بالمصريين لم يقدر على إزالة كرههم للاغريق فكان آخر امبراطور بيزنطي ساسهم بالحكمة

(٢٢) وبالسنة العاشرة من هذا العهد اغار الفرس على المملكة فدخلوا سورية . وسنة ٥٠١ خيم قائدهم قبّادس تحت اسوار الاسكندرية لكنها أعجزته فارتد عنها خائباً إنما لا تقطاع الطرقات بسبب دخول

الفرس البلاد انقطعت عنها واردات الطعام فحصلت مجاعة بالمدينة وفشى بسببها الوباء حتى ضجَّ الناس بالعويل والبكاء فانبرى لمواساتهم رجل غني من اليهود المنتصرين اسمه اريبب واذا جاء احد الفصح اخذ يوزع عليهم حسناته بكنيسة ارقاديوس لكنهم لشدة حاجتهم وجوعهم كان ازدحامهم عليه عظيماً حتى مات منهم فيه فوق الثمائة نسمة

(٢٤) ومن آثار هذا الزمان النفيسة نسخة بديعة الخط والتصوير من كتاب ديوسقوريدس بالنباتات ونسخة بصقتها من سفر التكوين كتأها الان في مكتبة ويناً (ثيناً) ليس لهما نظير

(٢٥) وابتشار المسيحية تعطلت المراسح اليونانية القديمة وابدلت تلك الطراغديات الشعرية اللطيفة لاسقيلوس وسوفول وعربيدس بسباقات الخيل ما خلا مراسح الاسكندرية التي ظلت مفتوحة لآخر هذا العهد للالعاب والرقص

(٢٦) وكانت المنارة القائمة على جزيرة فاروس من عمل بطليموس الثاني قد اهملت وكادت ان تخرب فأمر انستاس بالاعتناء بها وترميمها وهي العلام الذي اهتم به الملاحون للمرفأ مدة سبعمئة سنة. وعن اسم هذه الجزيرة نقل الفرنسيون اسم « فار » للمنارة بلغتهم

الفصل العاشر

يوستن الاول . يوستينيان . يوستن الثاني . طباريوس

موريقي . فوقاس . هيراكليوس

سنة ٥١٨ م الى ٦٤٠

يوستن الاول سنة ٥١٨ م الى ٥٢٧

(١) وخلف انستاس على كرسي القسطنطينية يوستن الاول بينما كانت
الفرس تشن الغارات على اطراف المملكة التي كانت قوتها من سنة
لسنة تقل وتضعف نظراً لضعف العنصر اليوناني بالقسم الشرقي منها
فان تجزئة المملكة بين اولاد قسطنطين كانت تتيجتها تحويل العاصمة
من الاسكندرية لانطاكية . والآن اذ بدأ اليونان يهاجرون ايضاً من
انطاكية اخذت فئة من كنيسة سورية واسقفها سويروس باتباع
مذهب مصر اليعقوبي ولكن الجمهور انكر عليهم ذلك وتهدد الاسقف
بالقتل فهرب للاسكندرية ، انما بوصوله لها وجد بأنه لا يمكنه ان
يصادق على مذهب المصريين برمته ايضاً . فان مذهبهم كان بأن

يسوع لم يُصلب بل شُبّه للناظرين كما جاء فيما بعد بالقرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك . ولنا من تصنيفه شروط العماد باللغة السريانية يستفاد منها وجوب مسح جسم الطفل بالزيت المقدس قبل تغطيته بالماء ولحق به كثيرون من رهبان سورية ونزل اكثرهم بدير جبل نظرية فصارت كتبهم فيه عربية وسريانية ولم يبق للغة اليونان استعمال البتة

(٢) لكننا بالسنة الثانية من هذا العهد اذ توفي الاسقف تيموتاوس ، نجد المصريين منقسمين الى فئتين فئة تقول بمذهب سويروس وفئة تقول بالضد . فأهل المذهب الأول انتخبوا غيانا اسقفاً عليهم وأهل المذهب الثاني انتخبوا تيودوسيوس . وتجدد النزاع بينهم لعدة سنين فتارةً يسود حزب وتارة يسود الآخر وكلما ساد فريق اجلى الخصم عن الاسكندرية

(٣) وكان الامبراطور السالف قد اجتهد ان يحرك عرب حمير اليهود اصحاب تجارة الهند والحبشة مع مصر ضد الفرس وانصارهم عرب اليمن فيوستن ارسل الآن لهم بعثاً ينشطهم على ذلك وكان رئيس وفده يوليانوس فاستقبله ملكهم الحارث بأوفر حفاوة واكرام وهو راكب عجلة تجرها اربعة افيال ، عاري الصدر والاكتاف وعليه ازار من الحرير الموشى بالذهب وذراعه محليان بالدمالج المجوهره ويديه مجنّ ورمحان واكابر دولته حوله بالعدة الكاملة من السلاح وهم يرددون بحضرته اناشيد المديح . ولما ناوله الرسول كتاب الامبراطور

اخذَه فقبَّلَ ختمه ثم عانق الرسول واستلم منه هدية يوستن ثم فضَّ
الحتم وقرأ الكتاب وأجاب بقبول ما اقترح عليه من مقاومة الفرس
شمالاً وخفارة طريق التجارة مع الاسكندرية جنوباً

يوستينيان سنة ٥٢٧ م الى ٥٦٦

(٤) ولما آل الحكم الى يوستينيان دعى الاسقفين من الاسكندرية
للعاصمة ثم ابعدهما واقام بولس اسقفًا واحداً عوضهما ليعمل بقانون
مجمع خلقيدونيا. وبعد سنتين ابدله بالاسقف زويلوس ايضاً بالرغم
عن ارادة المصريين فاحتملوه ست سنين ثم طردوه وطردهوا كافة
اساقفة المذهب الاغريقي

(٥) واذ بلغ الامبراطور ما اجراه اليعقوبيون بعث ابوليناريوس اسقفًا
وحاكماً على الاسكندرية فدخلها على رأس الجند بزيه العسكري
ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسكري ولبس بدلته الاسقفية وباشر
تلاوة الصلاة لكنه لم يفتح فاه حتى اتاه الرجم من كل مكان
واضطرَّ الى الفرار من الكنيسة فمكث ثلاثة ايام ثم ارسل منادياً
بالاسواق يدعو الناس للكنيسة لاستماع قراءة كتاب الامبراطور
بالاحد المقبل فاجتمعوا واذ افتتح خطابه يتهددّهم بالقتل ، والنساء
بالسبي ، رجموه كالاول لكن باشارة منه دخلت الجنود الكنيسة
شارعة سيوفها فوقعت على القوم تضر بهم بها حتى جرى الدم للركب

وانصرف منهم من سَلِمَ . وبعد ذلك لم يجتريء احد على مقاومة الاسقف الاغريقي الملكي وهذا كان اصل الروم الملكيين

(٦) ومن ثم استتب الامر للاساقفة الملكيين بصفة كهنة وولاة الا ان مصالحهم الملكية كانت تشغلهم اكثر من الكنائسية لاسيما بتحصيل الاعشار والمتاجرة بها مع اوربا . وبعد زمان صار مدخول البطركية وزن الفي رطل مصري ذهباً او ثمانين الف ليرة انكليزية من عملتنا الآن اما اليعقوبيون فكان بطركهم من صنف الرهبان لا شاغل له عن الدعاء لام الله والحواري مرقص . واختلف الطقس الكنائسي بين الفريقين فالملكيون ثابروا على تلاوة الصلاة القديمة المنسوبة لمار مرقص زائدين عليها الشهادة بوحدة جوهر الاب والابن . واليعقوبيون صاروا يتلون الصلاة الجديدة المرتبة لهم من كيريل وباسيل القيصري وغريغوريوس النازينزي باللغة القبطية والشهادة بالطبيعة الواحدة الالهية كاتمين غيظهم من الاغريق وكلما سمعوا من جيرانهم العرب عدم تعرض الفرس لمذهبهم وكنيستهم كلما ازدادوا كرهاً وبغضاً لولاتهم

(٧) فاتتبه الامبراطور اخيراً لهذا الحيف وشعر بضعف مملكته والخطر الذي يهدده من جهة الفرس فأعرض عن الجور على اليعقوبيين لابل انه اعتنق مذهبهم ومذهب العرب جيرانهم رغبة في اكتساب ولائهم

(٨) اما الفرس فبعد استيلائهم على سورية وانطاكية دخلوا حجر عاصمة النبط فأمر يوستينيان ببناء حصن بالقرب من جبل سينا . وبالسنة الثلاثين من ملكه تم البناء فشحنه بالرهبان على نفقة الخزينة ثم وجده منكشفاً من تلّ اعلى بالجبل فغضب على بانيه وقتله وبنى قلعة اصغر على ذاك التل . ومن كتابة الرهبان الباقية على جدران هذه القلعة يستفاد منها اعتقادهم بأن هذا التل هو المكان الذي فيه وقف موسى الكليم وانزلت الوصايا العشر

(٩) وبالقرب من هذا الزمان كان ايضاً بنيان ديرين اشبه بالحصون على نحو عشرين ميلاً من البحر الاحمر وثمانين جنوباً من اسوان لا ابواب لهما ، الا ان جدرانها كانت من اللبن . وكان احدهما على اسم مار انطونيوس والآخر على اسم مار بولس اول النساك المسيحيين . ومن ذاك الوقت الى يومنا هذا لم تخل هذه الاديرة من الرهبان وفقيرهم وسلامة طويتهم لم يتحرش بهم باغ بينما حصون الظلم والعدوان من حولهم قد دكها الغزاة دكاً وابدوا اهلها

(١٠) ولذلك العصر كانت تجارة الشرق الاقصى والصين مع مصر تمر بجزائر سيلان وسوقطرا ليد عرب وزنوج اميين لا يستفاد منهم شيء عن تلك البلاد فظل الافرنج زماناً يظنون بأن مصادر تلك الاموال من الحرير وغيره هي بلاد العرب اما سيلان فكان فيها كنيسة للسريان من رعايا مملكة فارس . والعملية الجارية فيها كانت رومانية . فبهذا

الزمان زادت حركة التجارة معها ، بعد ان ملك الحبشة حداد اليهودي
كان قد زحف ضد يهود حمير وقتل ملكهم داميانوس (١) لما
كان يصدر منه من التعدي على قوافل التجار . ثم قام بخفارة الطرقات
وطلب من الامبراطور ان يبعث له مرشدين للدين المسيحي فبعث
له الراهب يوحنا رجلاً صالحاً ذكياً ، الذي صار فيما بعد اسقفاً لعدولا
وربما ان هذا الانتصار هو المنوّه عنه بكتابة على قاعدة من الرخام
قرأها التاجر قوسماس الاسكندري تقول بأن الملك جاز البحر الاحمر
ووضع الجزية على العرب والصابئين وأذل قبائل الشمال وفتح الطريق
لمصر وقهر الافريقين شرقاً على شطوط ارض البخور ومرّ بجبال
الثلج التي تخرج منها احدى شعب النيل ، وهذا اول خبر سمعناه عن
وجود الثلج بالقرب من خط الاستواء . اما اسم الملك فلم يعرف لانه
كان مقطوعاً منها

(١١) فالآن ارسل يوسطينيان بعثاً لحير وبعثاً آخر للحبشة فدخل رسوله
اولاً عدولا على طرف بلاد الزنج البحري ومنها صعد بخمسة عشر
يوماً الى عاصمة البلاد اخضم . وشاهد بطريقه قطعاناً من الفيلة يحسب
انها كانت تزيد عن خمسة آلاف رأس وبعد تأدية رسالته قطع

(١) لعله دونواس

البحر الى ملك حمير قيس حفيد الحارث الذي كان يوسطن
راسله قبلاً

(١٢) وبعد هذا الزمان انتقض الحميريون على الحبشة فجرد ملك الحبشة
جيشه ضدهم وأخضعهم وأقام عليهم ملكاً مسيحياً اسمه غطيافوس
الذي استدعى الاسقف غريغنتوس ليرشدهم للمسيحية فكانوا
يمجادونه ويعترضون على التثليث الى انهم اتفقوا على مجادلة عليّة
تكون ببلاط الملك بين الاسقف والحاخام هربان . والمؤرخ الكنائسي
يقول بأن لما هربان أنكر التثليث ضربه الله مع رفقائه اليهود بالعمى
لكنهم بدعآء الاسقف عاد لهم بصرهم وتنصروا عن آخرهم
وهم وقوف

(١٣) ثم انهم بعد قليل انتقضوا على غطيافوس فبعث ملك الحبشة
جيشاً ليخضعهم لكن لما وصل الجيش اليهم استمالوه بهداياهم وتلطّفهم
فأبى محاربتهم وآخاهم، فاضطرّ الملك الى مصالحتهم. ويستفاد من كتابة
رومية على حجر في اخصم بأن بعد هذا الملك وجد ملك يُسمّى
الجانس تقول الكتابة بأنه المرنخ ملك الملوك سيد الحبشة والزنج
والصائبين وارض حمير وقاهر البجاة سكان الشمال بين اخصم ومصر
(١٤) وكانت اخصم مزدانة بالعمد وفيها مسلات كمسلات مصر ولم
تزل منها واحدة طولها ستون قدماً قائمة فيها، لكنها لا كتابة عليها.
ومن يهود الحبشة وصل الينا كتاب اخنوخ الذي اكتسب وقاراً من

استشهاد الحواري هود به والافانه كتاب مزور بعضه منقول من التوراة وبعضه ملفق من قصص الميلاد يوهم بأنه يخبر بالحوادث قبل وقوعها والامر بخلاف ذلك

(١٥) وبهذا الزمان اعتل توريد الخراج من مصر للقسطنطينية من طمع الحكام والموظفين فرأى الامبراطور ان يجعل الحكم والاساقفة المسؤولين بتصدير ثمانمائة الف اردب سنوياً لعاصمته كان مصروف جمعها وتوريدها يبلغ ثمانين الف صولدي او ستين الف ليرة من عملتنا الدارجة

(١٦) ذاك كان حد ما اتاه هذا الشارع البارع من الاصلاحات التي لا فائدة منها للمصريين. لا بل ان رجلاً طماعاً بالاسكندرية يسمى باحتكار كان قد اكتسب مودته ونال منه امتيازات سمحت له حيفاستوس مؤن البلاد فكان يشاطره بالارباح منها ويجور على الفقراء بينما العربان تسطوا على بعض املاكه بالصعيد والرمال تغطي البعض الآخر واللغة صارت هناك اكثرها عربية

(١٧) ولهذا الزمان كانت جزائر بريطانيا تحتبط من تعدي السكسون عليها، والرومان لا يهتمون لها لبعدها عنهم وضعفهم عن حمايتها. اما تجار الاسكندرية فكانوا اذا جاء الصيف يقدون اليها بمراكبهم وغلالهم للمقاوضة بقصديرها وفضتها فيبيعون كيلة القمح بما يوازي عشرة بنسات من عملتنا الحاضرة. وهكذا كان الفينيقيون يفعلون

قبلهم بثمانمائة سنة وأكثر ومع ذلك لذلك الوقت لم يخطر للبريطانيين ان يتعلموا طريقة الاسفار البعيدة بمراكبهم . وهذا السفر كان اطول سفر تلك الايام وأبعد من السفر من البحر الاحمر لسيلان لكنه ربما استغرق عشرين يوماً فقط اذا ساعده الهواء والافأشهرأ . ولا شك بأن قدوم هؤلاء التجار لشطوط بريطانيا قد أفاد برابرتها مباديء التمدن وهيبأهم له

(١٨) ولما ألقى الامبراطور مسؤولية الخراج على الحكام والاساقفة والموظفين معهم وكانت الفقراء أحياناً تسطوا على انبار الخنطة وتنهبها اضطر حاكم الاسكندرية الى تحصين انبار الخراج بالفياله فبنى حولها سوراً منيعاً واصلاح القنطرة المؤدية لقرية حيروم ونقل داره الى مسافة يوم غربي الاسكندرية احتياطاً من ثورات المصريين

(١٩) ثم ان يوستينيان امر بأن لا تُستأنف دعوى للعاصمة قيمتها تحت عشرة ارطال ذهب اي خمسمائة ليرة انكليزية ، وحرّم على من بقي بالاسكندرية من علماء الفلسفة ان يخطبوا فيها، فهاجر منهم كثيرون الى سورية حيث الفرس اكرموا مثواهم لا بل انهم فيما بعد لما عقدوا شروط الصلح معه اشترطوا عليه قبول هؤلاء العلماء بالاسكندرية وعدم التحرش لهم

(٢٠) ولذلك الزمان كان يظن بأن ارض مصر لا تعرف الزلازل، لكن المؤرخ اغاتيا البيزنطي الذي كان بالاسكندرية ليتم دروسه فيها

بعد درسه الفقه في بيروت يخبرنا بأنه بوجوده بالاسكندرية اشعروا
بزلزلة وتركوا بيوتهم خوفاً من سقوطها عليهم وان لم يسقط منها شيء
(٢١) ومن بدع هذا الزمان كان ما ذهب اليه الراهب تيمستيروس من
انكار العصمة من الخطأ ليسوع ، وما ذهب اليه الراهب تيودوروس
من انكار بشريته . وكان قوسماس التاجر المذكور آنفاً قد ترهب
أيضاً وصار يقول بأن البحث بنص الكتاب المقدس حرام ، وقول
علماء الهيئة بأن الأرض كرة هو كفر بنص التوراة الذي يقول
بأنها مبسوطة

(٢٢) وبأول الامر كنا نرى المسيحية تستند على الفلسفة لتقوية دعائم
الايمان . لا بل انها كانت شريكها بالعلوم وسيدتها بالآداب . لكن
اذ عقب ذلك اضطهاد خمسين سنة من عهد دقيوس الى ديوقليتيان
وتكاثر عدد المنتسبين لهذا الدين صار احق الرهبان يستهزيء بآراء
قلامنس واوريجين ويلعنهما . ولكره هذا الجمهور اسم العلماء صار
يكره حتى العلوم نفسها

(٢٣) وبالسنين الاخيرة من اسقفية ابوليناريوس لم يكن له ادنى اعتبار
عند الاغناطيين ولا التيودوسيين ولا اليعقوبيين فاعتزلوا كلهم عن
كنيسته ثم اذ مات أحد الاساقفة وأراد أبوليناريوس اقامة أسقفًا
عوضه لا يرضي الاغناطيين نتفوا حية أحد رهبانه بأسواق الاسكندرية
ثم بعد قليل مات أبوليناريوس وأقام الامبراطور الاسقف يوحنا

خلفاً له ، فalcبط لم يستعرفوه واليونان آتهموه بالمانوية . وبعد ثلاث سنين مات فانتخب القبط بطرس اليعقوبي بطركاً لم ترضه الاغريق وبالسنة التي مات فيها يوستينيان مات بطرس ايضاً

(٢٤) وكانت نقود مصر من عهد ديوقليسيان قد صارت كلها سلطانية . اما نقود يوستينيان فكان منها ما عليه اسم الاسكندرية بالحرف الاغريقي وصورة الامبراطور و بازائها علامة الصليب ، ووزنها كان غير اوزان نقود القسطنطينية . فان نقود القسطنطينية كانت من ٥ و ١٠ و ٢٠ و ٣٠ و ٤٠ درهماً معبر عنها بالحروف الابجدية ه ي ك ل م اي M A K I E أما نقود الاسكندرية فكانت أولاً بوزن اثني عشر درهماً معبر عنها بالحروف ب ي اي B I ثم صارت بوزن ثلاثة وثلاثين درهماً معبراً عنها بالحروف ل ج أي Γ A ولما بالمداولة خف وزن الاولى صارت الثلاثة منها تصرف بواحدة من الاخيرة وأظن ان الدرهم عندهم كان وزن اثنتي عشرة حبة خرنوب

يوسطن الثاني سنة ٥٦٦ م الى ٥٧٨

(٢٥) في عهد مرقيان كانت جزيرة فيله وفيها معبد ايزيس ملجأ وثنيين ذاك الزمان اما في عهد يوسطن الثاني ، يظهر من كتابة وجدت فيها أخيراً ، بأنها صارت أسقفية ومعبدها صار كنيسة وحكم هذا الامبراطور

اثني عشرة سنة لا شيء فيها مما يذكر عن أحوال مصر ولا بالأربع
السنين بعدها من حكم طييار يوس

موريقي سنة ٥٨٢ م الى ٦٠٢

وكسرى

(٢٦) ثم آل الحكم الى موريقي زوج ابنة طييار يوس . وبالعشرين سنة
التي حكم فيها كانت المملكة على نوع ما مطمئنة لانشغال أخصامها
الفرس بحركاتهم الداخلية الى أن أسقطوا ملكهم كسرى حفيد
كسرى انوشروان فهرب منهم ملتجئاً بموريقي وراجياً منه أن يمدّه
برجاله وماله ضد أعدائه فأجبه موريقي ورثى لحاله وأمدّه بما طلب
فسار نحو بلاده واستعاد كرسيه وعزّه فزوَّجه موريقي ابنته وظل
عنده بمعزة ولد الى ان مات

(٢٧) وبهذا الزمان أنشأ هولوجيوس أسقف الاسكندرية نُزلاً للفقراء
واشتهر الراهب أنستاس من دير جبل سيناء بعلم اللاهوت وألف
الناسك يوحنا قايماقوس في وادي طلى على سفح الجبل المذكور
كتابه بفضل العيشة الرهبانية الذي سماه أدراج النعيم وقسمه الى
ثلاثين درجة كعدد الثلاثين سنة الاولى من سني يسوع

(٢٨) انما الاعظم شهرة من رجال تلك الايام كان المنطقي يوحنا الفيلسوف
الارسطوطاليسي ولكنه لقوله بأن الآلهة هي ثلاثة خرج عن الكنيسة

وهذا هو يوحنا الذي عرفه عمرو بن العاص فاتح مصر فيما بعد واكرمه
 (٢٩) و بآخر أيام موريقي ألف تيوفيلاقطوس سيموقطا كتابه بحياة هذا
 الامبراطور وحروبه مع الفرس يقول فيه بأن الليلة التي مات فيها
 بالقسطنطينية سقطت أنصاب الاسكندرية من قواعدها وان انساناً
 نصفه حيوان خرج قبيل ذلك من النيل وأخبر بقرب أجله
 (٣٠) وبينما كان المشرق يخيم عليه ظلام هذا الجهل بزغت شمس الهدى
 والعرفان في اقليم انكلترا المسمى الآن كينت بقدم الراهب الروماني
 اغوسطين مبشراً بالمسيحية فيها، وأنورت مكة بالهلال المحمدي

فوقاس سنة ٦٠٢ م الى ٦١٠

(٣١) ثم انتقض الجند بالقسطنطينية على موريقي، وأحدهم فوقاس توصل
 الى قتله فرفعه الجند لكرسي المملكة . لكن اذ بلغ كسرى قتل
 حبه كراً بجيشه للانتقام من قاتليه فاخترق البر الى ان خيم تحت
 أسوار القسطنطينية ، ولما لم يقدر على فتحها ظل محاصراً لها مدة هذا
 الحكم كلها فتضايق أهلها لانقطاع المؤن عنهم وضجروا من استبداد
 فوقاس بهم . وبالسنة السابعة من ملكه خلعت الاسكندرية طاعته
 وبايعت هيراقليوس ابن حاكم القبروان امبراطوراً وقتل البطرك بالحركة
 فيها . وبعد قليل دخل هيراقليوس بأسطوله مياه القسطنطينية واستولى
 عليها فقتل فوقاس وأخذ كرسيه

هيراقلوس سنة ٦١٠ م الى ٦٤٦ والفرس

(٣٢) وبالثلاث السنين الاولى من حكم هيراقلوس كان اسقف الاسكندرية تيودوروس . ثم انه مات فأقام الامبراطور عوضه الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرس برضى المصريين ، فأصاب لأن هذا الأسقف أبدى من الاحسان والرافة بالفقراء ما اكسبه لقب المحسن . وبمدة الخمس السنين الاولى من اسقفية بني عدة مستشفيات للمرضى ولتوليد النساء ونزلاً للبائسين . وكان مذهبه بالمسيح انه لم يُصاب بل شُبّه لهم

(٣٣) أما الفرس فانهم بقدم هيراقلوس للقسطنطينية رحلوا عنها وانتشروا بأملأ كبا الشرقية الى حدود مصر . فكانت تهرب من وجههم السكان الى الاسكندرية حتى ضاقت المدينة بالفقراء والمسلوبين واضطر البطريرك يوحنا الى مساعدتهم فأنفق عليهم من خزينته قيمة ثمانمائة الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن واستدان فوقها مبلغاً آخر لسد احتياجات هؤلاء المساكين ، ولسوء حظهم لم يفر النيل بتلك السنة فأحلت البلاد وقلت الأطعمة وتسربت اليايدي . وبالسنة الخامسة من هذا العهد فتح الفرس اورشليم وبالثامنة فتحوا الاسكندرية واشتروا منها ما كان فيها من حبوب الخراج بثمن بخس جداً . ومن ذاك الحين انقطع خراج مصر عن القسطنطينية

(٣٤) وكان حاكم مصر نقيطا يرى أن لا قدرة له ولا مدد من القسطنطينية لرد الفرس فهرب لقبرس والبطرك يوحنا معه . وهكذا لما وصل الفرس للاسكندرية دخلوها بدون قتال لا بل بالترحاب من القبط الذين كان اول اهتمامهم انتخاب اسقف يعقوبي يُسمى بنيامين بدون تحرش من الفاتحين ولا حرج

(٣٥) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية الأسقف السوري توما ليصحح ترجمة العهد الجديد السريانية على الاصل الاغريقي الذي كان في دير مار انطونيوس ، وتصحيحه هذا صار المعول عليه فيما بعد . اما الترجمة الموجودة الآن في دير الرهبان الاغسطويين في روما فهي من عهد هيراقلوس . وبهذا الوقت كان العالم السوري بولس من طلي بدير مار زاخوس بالاسكندرية يعتنى بترجمة التوراة من النسخة السبعينية الاغريقية . وفيه شاع ذكر النطاسي هارون السوري الذي صار فيما بعد قدوة اطباء العرب . وازداد بهذا الزمان توارد الرهبان السوريين لا سيما من شرقي الفرات الى جبل نظرون ولم ينقطع لقرون عديدة

(٣٦) ولما كانت السنة العاشرة من احتلال الفرس ارض مصر انتقض عليهم انصارهم العرب والسوريون الذين سهلوا لهم اولاً هذا الاحتلال نظراً لما بينهم وبين المصريين من الإخاء فاغتم هيراقلوس

فرصة هذا الانقسام وزحف ضدهم فأجلاهم بوقت قصير عن سورية
ومصر وهرب البطرك اليعقوبي معهم

(٣٧) وبالسنة الثانية عشرة من حكم هيراقلوس وهي سنة ٦٢٢ م

هرب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، داعي العرب للإسلام ، من
اعدائه القرشيين بمكة الى المدينة في ليلة الجمعة سادس عشر شهر
جولاي الذي صارت تُورَّخ منه فيما بعد سنو الهجرة . وبعد ذلك
رأى هيراقلوس اتحاد العرب واتفاقهم على النبوة فكان يحاملهم
ويكرمهم بهداياه الى أن قبض النبي فقطع علاقاته معهم

العرب والخلافة سنة ٦٣٢ م و ١١ هجرية

(٣٨) وبُيع لأبي بكر بالخلافة بالمدينة في شهر ربيع الأول في اول

سنة احدى عشرة هجرية يوم توفي النبي . قال عُمر ان أبا بكر كانت
بيعته فلتة وقى الله من شرّها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه فأبى رجل
بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فليقتل الرجلان . وقيل لما بلغ
ذلك علي بن ابي طالب لم ينكره . واكثر ما روي أنه قال ، ما شاورني
فأجابه ابو بكر ، ما اتسع الوقت للمشورة وإنا خفنا ان يخرج الامر منا
ثم صعد المنبر فقال أقيلوني من هذا الامر فاست بخيركم . فقال علي
لا تقيلك ولا نستقيلك ، فأجمع الانصار والمهاجرون على خلافته التي
بايعه عليها أولاً عُمر فقط

(٣٩) ولما ذاع خبر وفاة النبي ارتد خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لاطباقهم على الردّة فأووا الذراري والعيال الى الشعب ، فأمر ابو بكر خالد ابن الوليد على الناس وبعثه في اربعة آلاف وخمسمائة من الرجال فصار حتى وافى المرتدة وناوشهم القتال وسبى ذراريهم واقتسم اموالهم . ثم ارسله ضد مسيلمة باليمامة لادّعاءه النبوة فخاربه ورماه عبد اسود اسمه وحشي بحربة وقعت على خاصرته فسقط عن فرسه قتيلاً . ومن هناك توجه خالد الى ارض العراق وفتح الحيرة صلحاً . ومسيلة المذكور هو الملقب بالكذاب

(٤٠) وكان ابو بكر قد وجّه قبل ذلك ابا عبيدة بن الجراح في زهاء عشرين الف رجل الى الشام . وبلغ هيراقلوس ورود العرب ارض الشام فوجه اليهم البطريق سرجيس في خمسة آلاف رجل لمحاربتهم . وكتب ابو بكر الى خالد عند افتتاحه الحيرة بأمره ان يسير الى أبي عبيدة بالشام ففعل والتقى العرب والروم فانهزم الروم

عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ الى ٢٣

(٤١) قيل ان ابا بكر لما دنا اجله قال لعثمان بن عفان كاتبه ، اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد عبد الله بن ابي قحافة وهو في آخر ساعات الدنيا وبأول ساعات الآخرة ، ثم غمي عليه ، فكتب عثمان

« الى عُمر بن الخطاب » . فلما أفاق قال ، من كتبت ؟ قال عُمر
قال قد اصببت ما في نفسي ولو كتبت نفسك لكنت اهلاً له
وأجمعوا على ذلك ودعوه خليفة خليفة الرسول ، ثم قالوا هذا يطول
فسمى امير المؤمنين

(٤٢) وفي زمان خلافته كان فتح العراق وسقوط ملك العجم وفتح
دمشق واورشليم ومصر . واذ بلغ مصر ان العرب يقصدونها هرب
بطرك الاسكندرية جرجس بجرأ واقام الامبراطور عوضاً عنه
الاسقف قيروس الماروني الذي كان على مذهبه بالقول بالطبيعتين
والمشيئة الواحدة خلافاً لمذهب الملكيين القائلين بالطبيعتين
والمشيئتين ولمذهب اليعقوبيين القائلين بالطبيعة والمشيئة الواحدة .
فازداد هؤلاء نفوراً من الاغريق وكرهاً لهم وهكذا لما دخل عمرو
ابن العاص ارض مصر وجدهم من انصاره ضد الروم . اما
الاسكندرية فكان فتحها في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر
سنة ٦٤٠ م وغرة محرم سنة ٢٠ هجرية

(٤٣) ولما شاهد عمرو مدينة الاسكندرية عجب من عظمتها فكتب
الى امير المؤمنين عُمر يقول اني فتحت مدينة مصر العظمى ووجدت
فيها اربعة آلاف قصر ومثلها حمامات واربعائة مرسح واثنى عشر
الف حانوت واربعين الف يهودي يدفعون الجزية واني باعث
اليك ما طلبته مني من الطعام احمالاً يكون اولها عندك وآخرها عندي

(٤٤) وكانت شروط عمرو مع المقوقس زعيم القبط على ان تكون للقبط الحرية المطلقة بدينهم وعليهم جزية ذهبين عن كل رجل . فقول المؤرخ العربي ان الجزية جمعت ثمانية آلاف الف ذهب فيه إما مبالغة واما جور من عمرو معما اشتهر عنه من الرفق بالمصريين لانه من المحقق بأن ذاك الشعب برمته من صغير وكبير رجالاً ونساءً لم يكن حينئذ يفوق اربعة آلاف الف نسمة

(٤٥) وقد لاقى عمرو بفتح الاسكندرية تعباً جماً ومقاومة عنيدة من الروم ، وليس كما يزعم ابو الفرج بأنه فتحها صلحاً

(٤٦) فالاسكندرية رغماً عن انحطاطها عما كانت بأوان عزّها فانها بعين هؤلاء العربان كانت تُرى ولا بد بغاية الجمال والكمال . فان الناظر اليها من البحر كان يرى تلك المنارة على جزيرة فار وهي اول منارة عرفها الناس واستفادوا بها . ثم يرى السد الذي يصلها بالبر على ثلاثة ارباع الميل وتحت القناطر لمرور المراكب الصغيرة من مرفأٍ للآخر . اما قناة الماء العذب التي كانت فوقه فانها كانت قد تعطلت . ثم بنزوله للبر كان يدخلها من باب الشمس . وبعيداً منه يرى باب القمر وبينهما طريق واسع مستقيم ميزان بالعمد وفيه ضريح الاسكندر وطريقاً آخر يعارض هذا ذاهباً شرقاً وغرباً من الباب القانوني الى باب المقابر الذي لم يكن باقٍ من عمُد زينتة الا القليل . اما الموزيوم الجديد فكان قد اقفر من الطلبة . ومدرسة الفلسفة المسيحية

قد مُحي أثرها . وخارج الباب الغربي كانت ترى المقابر القديمة
والمسيحية الجميلة المنظر . اما مقبرة اليهود فكانت حقيرة وخارج
الباب الشرقي . وكان يرى بالقرب من الباب الغربي داخل السور
معبد سيرابيس البديع الذي لم يفقهُ جمالاً غير قايتول روما ، وقد صار
الكنيسة الكاتدرائية وفي ساحته العمود الشامخ حاملاً تمثال
ديوقليتيان على فرس . وتليه كنيسة كانت قديماً معبد قيصر او
السياسة امامها مسلتان من عمل ثييه اتى بهما الرومان الاولون وبقيتا
لزينة كنيسة مسيحية . وكانت بالمدينة كنائس اخرى اعظمها
كنيسة مار مرقص ، والسيدة ، ويوحنا المعمدان ، وتيودوسيوس
وارقاديس ، وباخوس ، وكان الميدان على الشاطيء الشرقي قد صار
خراباً ، ومن تلك الجهة كانت ترعة النيل تأتي المدينة لشربها وعلى
هذا الشاطيء كانت مخازن الخراج المحصنة وغير بعيد منها كانت
الثكنة القديمة وفيها بقايا اعمدة كان اغسطوس احضرها لبناء مدينة
نيقوبوليس . وكان البروخيوم الحصن القديم والشبيه بمدينة قد
اصبح خراباً ، وحارة اليهود لم يبقَ فيها غير فقراء يدفعون الجزية
(٤٧) الا ان هذا الانحطاط لم يكن شيئاً ازاء ما جلبه تسلط البدو على
هذه المدينة . وما كلهم غمر ولا عمرو . فانهم اولاً ضيقوا مجالها عما
كان ، تاركين عمود ديوقليتيان خارجاً عن السور الجديد وبعد ذلك
اكتفوا منها بالسد فقط نظراً لقلّة سكانها . ولم يبقَ من مزارع مصر

سوى ثلاثة آلاف ألف فدان او الثلث مما كانت اوان عزّها
 (٤٨) اما مكتبتها الشهيرة فان التي جمعها البطالسة بالموزيوم في
 البروخيوم كانت قد احترقت بحصار يوليوس قيصر فيه . والتي
 أهداها مارق انطوني لقلاوفطرا وكانت في معبد سيرابيس لعهد
 يوليان قد انتهت من المسيحيين بعهد تيودوسيوس . لأن المؤرخ
 اوروسيوس الذي زار معبد سيرابيس بهذا العهد يقول بأنه لم يجد
 فيه حينئذ كتاباً . لكن لا بد من أن يكون لمعبد قيصر والموزيوم
 القلودياني من مكتبة لأننا نرى علماء الوثنيين لعهد يوستينيان
 والمسيحيين بعده مشغولين بالتدريس والتصنيف الذين لا بدّ لهم من
 المكاتب . انما قول عبد اللطيف بأن احراق هذه الكتب بأمر
 امير المؤمنين عمر قد كفى حمامات الاسكندرية ستة اشهر ففيه
 ولا شك مبالغة ، وربما ان الصحيح هو ان وقدها تدريجاً هو الذي
 اخذ هذه المدة الطويلة . اما اصل الحكاية فهو ان يوحنا المنطقي
 سأل عمرو بن العاص ان يسمح له بهذه الكتب اذ لا حاجة للعرب
 بها . فاستشار عمرو امير المؤمنين بأمرها فأجابه ان يحرقها لأنها ان
 كانت تطاوع القرآن ففيه غنى عنها وان كانت تناقضه فاعدامها
 واجب وهي شنشنة قد عرفناها من بعض المسيحيين قبله لا سيما
 وانها تخالف نص القرآن وقوله ، سبحانه من علّم بالقلم علّم الانسان
 ما لا يعلم .

(٤٩) ومن هذا الزمان تحولت لغة مصر للعربية وخرجت الاسكندرية من نطاق اروبا ودخلت بحكم الخلفاء وتاريخهم . وخط العرب مدينة جديدة على اتقاض مدينة بابل بين منف وهليوبوليس وسموها الفسطاط . وبعد زمان بنوا مدينة اخرى اقرب الى هليوبوليس وسموها القاهرة . وزينوها بالمساجد والمآذن من اتقاض الاسكندرية ومنف وهليوبوليس حتى اننا نجد البعض من بلاطتها ، واصاها من اقدس البلاطات الوثنية ، تداس الآن بالارجل

(٥٠) وبالتدريج تزايد عدد المهاجرين لمصر من عرب وسوريين ، الا ان القسم الاكبر منهم قطن المدن وقليل ما اختلطوا بالفلاحين نسل قبائل الغالة من افريقيا الشرقية الذين اسلموا . أما القبط فما برحوا على دينهم المسيحي وحرقتهم الصناعة والتجارة . وبين سلسيليس والشلال الثاني نرى النوب سائلة النبط الذين حاربوا ديوقليتيان ومنهم كانت ملوك ثيبه وما وراها . وهم والقبط كانوا اولئك الذين شادوا المعابد الضخمة وحنطوا موتاهم وكتبوا بالخط المصري القديم ، وكانوا وقتاً ما كلهم مسيحيين . وشرقي النيل بالقرب من القصير وابي سنبل الى مروي نرى عرب العبادلة اصحاب الجمال كما كانوا في عهد رمسيس . وبالصحراء بين السودان والبحر الاحمر جنوب اسوان نرى عرب البشارية نسل اولئك العربان الذين على

(١٤)

زعم الاغريق كانت عيونهم في صدورهم . ونرى بالحبشة سلية
اولئك اليهود المهاجرين من ايله ، وهي الآن عقبه ، ربما من قبل زمان
سليمان وهم للآن اقرب شبيهاً بهيئتهم ولغتهم لليهود من العرب .
وجهة سيناً نرى عرب الطور سلية قادة موسى الى عزرون جبر
على خليج ايله . وبالقرب منهم عرب العلويين سلية الادوميين
اخصامه اصحاب حجر ، وهي ثمود القرآن

(٥١) وما زالت مصر من ذاك الزمان تسعد تارةً وتشتق اخرى ،
ومرسحاً تلعب فيه اغراض الرجال بدولة الاسلام الى ان صارت
ولاية عثمانية ، ثم حكومة خديوية لا تأثير لها على المذاهب المسيحية
لا سيما وان القبط لما انقطعت مصاهرتهم للروم والعرب المسيحيين
ضعفت ذريتهم وقل عددهم .

(٥٢) ثم عندما شاع استعمال البخار لتسيير المراكب الثقيلة وتحولت
الافكار لايجاد اقرب الطرق لمواصلات اوربا مع الشرق الاقصى ،
عرض المهندس ده لِيَسْبَس^(١) على الخديوي اسمعيل حفر ترعة
لهذه المراكب بين البحر المتوسط والبحر الاحمر واظهر له فوائدها
لمملكته ، فقبل رأيه وساعده على انشاء شركة تجارية . وتيسر له فتحها
بايامه السعيدة سنة ١٨٦٩ م في السابع عشر من شهر نوفمبر باحتفال

(١) الذي كان ايضاً القنصل الفرنسي بالقاهرة وصار يعرف فيما بعد
بالكونت ده ليسبس

عظيم حضرته الامبراطورة اوجني ، وصارت هذه الطريق تدعى
ترعة السويس . وكان اسمعيل هماماً مقداماً كريماً الا انه قصير النظر
بالعواقب ، والكريم يُخدع ، فخدعه رجال احاطوا به لمكاسبهم وورطوه
بالنفقة الفارغة فاستدان ولما عجز عن الوفاء سلّم خزينته لاهل الدين
من انكليز وفرنسيين . ولأنه خالف رأيهم بعزله وزيره القبطي نوبار
باشا تنفّر منه الانكليز ، وكانوا قد اشتروا منه ، برأى وزيرهم لورد
بيقونسفيلد ، حصته من اسهام شركة الترعة فحملوا السلطان على خلعه
سنة ١٨٧٩ فخلفه ابنه توفيق الطيب الذكر ، لكنه بعد قليل تلبّك
امره من عصيان عرابي باشا وزير حربيته الراغب في الغاء المراقبة المالية
بتحريك من السلطان عبد الحميد سنة ١٨٨٢ . فاتفق الانكليز
والفرنسيين على اسقاطه فاعجزهم ، وجيش المصريين لمقاومتهم . واذ
كانت مراكز الانكليز بالطريق للاسكندرية لعبت السياسة
بالافرنسيين فانسحبوا وتركوا الانكليز وحدهم لسد هذا الخرق
فدخل الجنرال سارجانت ولسلي الاسكندرية باربعين الف مقاتل
ولاقي عرابي في التل الكبير وهزمه ثم قبض عليه في القاهرة ونفاه سنة
١٨٨٣ بأمر دولة الانكليز الى جزيرة سيلان حتى سنة ١٩٠١ التي
أُفرج عنه فيها . وعُيّن له معاش بالقاهرة من ستمائة جنيه بالسنة الى
ان مات

(٥٣) وبهذا الاثناء كان توفيق قد تُوفي وخلفه ابنه الشاب عباس ، اذ

النائب الانكليزي بالقاهرة، الماجور اولن بارنج الذي كان اصلاً أحد المراقبين الماليين وصار فيما بعد لورد كرومر. فخذثة سن الخديوي القت على عاتق هذا الكهل حملاً ثقيلاً بادارة البلاد ذمةً لصاحبها وسياسة للصالح العام. فأمن البلاد وأجرى العدل واصلح المالية. ورأى من عباس جهلاً بهذه الخدمات وميلاً للاستبداد برأيه فاستعمل معه قساوةً القته بعصية الاستقلال. وكان الانكليز قد احتلوا السودان، قاتلة رجالهم الصديق غوردون. فلبثوا يراقبون الخديوي عباس الى ان لما ابتدأت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وهو بالاستانة لم يأمنوا من عودته لمصر ورأوه يتناجي مع اخصامهم فأسقطوه من امارته وبايعوا عمه حسين سلطاناً حرّاً من تداخل الاستانة. وكان يرجي منه خير كثير لمصر لكنه بعد سنتين مات وخلفه اخوه فؤاد ونعم الخنف. والمأمول الآن ان تقدم البلاد المادي والأدبي المستفاد من اسانذتها الانكليز يسمح لهم بتركها لعهدة اهلها بطريقة تحفظ الامن للسكان وتقي مصر والترعة من التعدي عليهما، لما لذلك من الاهمية لتجارة الدنيا بأسرها. ولعل المستقبل لا يلبث ان يرينا مصر من الممالك الراقية ومن انصار الشعوب الحرة السامية ان شاء الله.

١٥ مارس سنة ١٩٢٢. صح: — وهاهي الآن مملكة دستورية! فقلت لها سيري وارخي زمامه ولا تبعديني من جنائك المعلل

الاسلام

(١) الاسلام ديناً هو دين التوراة والانجيل ، ومذهباً وشريعة هو أحد المذاهب المسيحية الجدلية (التي عرفناها بهذا الكتاب) والشرع الموسوي والعربي ، فلا حجة لنا عليه ولا اعتراض البتة . ولو انحصر الدين بمن خرج منه من الصَّلاح والفضلاء لبارى الاسلام أي دين كان . انما انتشاره السريع عند الذين قالوا آمناً ولما يدخل الايمان في قلوبهم ، وتقصير الرعاية بانشاء المدارس ، واستبداد اكثرهم وعملهم بأهوائهم الشخصية ، يقرأون الكتاب فلا يتجاوز حناجرهم ، قليلاً ما افاد جمهور المسلمين من أمهات الكتاب . والنفس أمارة بالسوء ، فلذلك نراهم أحط درجة من الأمم الراقية ، فيسلمون هذا الدين محاسنه كما تمّ ذلك لجهال اليهود والمسيحيين قبلاً وبعداً

(٢) اما الخلافة وعليها سل السيوف فانها بالوضع شوروية ، ومزيتها العدل وكمال التقوى والآداب والآل فهي سلطنة عسكرية ، وليس لأجلها سيفه من شاء . ولا يصلح الله من أمر قوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم . وفي الله الاسلام من استبداد الحكّام المسلمين ، آمين

(٣) ومن أول الزمان وقع في الاسلام التباين بالآراء كما وقع في

النصرانية . بعضه في الاصول وهو موضوع علم الكلام ، وبعضه في الفروع وهو موضوع علم الفقه . فالخلاف في الاصول ينحصر في اربع قواعد ، الاولى الصفات والتوحيد ، الثانية القضاء والقدر ، الثالثة الوعد والوعيد ، والرابعة النبوة والامامة

(٤) وكبار فرق الاصوليين ست ، المعتزلة وضدها الصفاتية ، والقدرية

وضدها الجبرية ، والمرجئة وضدها الوعيدية . ويتشعب من هذه اصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة . وقد رأينا مثلها بالنصرانية

(٥) فالمعتزلة يعمهم من الاعتقاد نفى الصفات عن ذات الباري تعالى

هرباً من أقانيم النصارى ، واتفقوا على ان كلامه تعالى محدث بخلقه في محل وهي المصاحف . وكان منهم احمد بن حنبل زعم ان المسيح

تدرّع بالجسد الانساني وهو الكلمة القديمة المتجسدة كما يقول

النصارى . ومنهم عيسى الملقب بالمزدار بالغ في القول بخلق القرآن

وان العرب كانوا قادرين على مثله فصاحة وبلاغة . اما الصفاتية

فانهم يثبتون لله صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة ، حتى من

السمع والبصر والكلام الى حد التجسيم زاعمين بأن لا بد من اجراء

حكم الآيات الدالة عليها كالاتواء على العرش وسفر التكوين .

الا أن هذا المذهب تقضيه ابو الحسن الاشعري بمنعه التشبيه

(٦) والقدرية ينفون القضاء والقدر فيقولون ان العبد قادر خالق

لافعاله ومستحق عليها ثواباً ام عقاباً ، فالله تعالى منزّه عن ان يضاف

اليه شرٌّ وظلم وسموا هذا النمط عدلاً . اما الجبرية فيقولون ان الله تعالى يخلق الفعل والقدرة في الانسان لكنها لا تؤثر بفعله وان أثرت وشطّت به فان الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشاء ، ولا يُسأل عما يفعل وهو في ذلك كله عادل لان العدل على رأيهم هو التصرّف بما يملكه المتصرّف ، ويوافقون المعتزلة في نفي الرؤية وخلق الكلام (٧) والمرجئة يقولون بارجاء صاحب الكبيرة من المؤمنين الى القيامة ويقولون ايضاً انه لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . أما الوعيدية فيقولون بتكفير صاحب الكبيرة وان كان مؤمناً . فما أننا في كل هذا نرى خيال المسيحيين قبلهم واحسبه قد أخطأ المحجة ولو كنت بي من نقطة الباء خفضةً رُفعت الى ما لم تنله بحيلة .

(٨) أما مذاهب الفرعيين المفسرين للأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية فالمشهوره منها اربعة . مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومذهب مالك بن انس ، ومذهب محمد بن ادريس الشافعي ، ومذهب احمد بن حنبل . واركان الاجتهاد ايضاً اربعة ، الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وذلك لأنه اذا عرض لهم حادثة شرعية من حلال او حرام ابتدأوا بالكتاب فان وجدوا فيه نصاً عليها قضوا به والاّ فزعموا الى السنة وهي الحديث الصحيح عن النبي ، فان وجدوا فيها خبراً حكموا بموجبه والاّ فزعموا الى اجماع الصحابة لانهم راشدون حتى لا يجتمعون على ضلال ، وان لم يروا به مسنداً فزعموا الى القياس

لأن الحوادث غير متناهية والنصوص متناهية. وقد حان الآن التوسع
بالقياس كما يقتضيه حال الزمان

(٩) ومن الأئمة داود الاصفهاني نفى القياس أصلاً وأبو حنيفة شديد

العناية به وربما يقدم القياس الجلي على احاد الاخبار، ومالك والشافعي
وابن حنبل لا يرجعون الى القياس ما وجدوا خبراً أو أمراً، وكل هؤلاء
من اهل السنة وقد نقلنا خبر الامام علي عنهم لكنه فاسد عند الشيعة

(١٠) اما الشيعة فهم الذين شايهوا علي بن ابي طالب ابن عم النبي

وصهره وقالوا بأن الامامة لا تخرج من اولاده الا بظلم ويجمعهم
القول بثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبار والصغار وان الامامة
ركن من اركان الدين لا يجوز تفويضه الى العامة. ولهم ضد بالخوارج
الذين منهم من خطأً علياً فيما تصرف فيه ومنهم من كفره ومنهم
من جوز ان لا يكون في العالم امام اصلاً وان كان فيجوز ان يكون
عبداً أو حرّاً أو نبطياً اي اسوداً، اذا كان عادلاً وان عدل عن
الحق وجب عزله وقتله وكيف كان الامر فان قتل الحسين حفيد
النبي لا يعذر

(١١) فعلى هذا البناء صار الاسلام احد اركان العالم الدينية الموقرة،

لكن انتشاره السريع وظروف الزمان التي شاع فيها لم تسمح بتهديب
جمهوره الهمجي بعد هدمه اركان التمدن القديم ولم يتهدب بعدئذ
حتى خرج الحكم من يد العرب فتوقف بينهم الاجتهاد وصدت

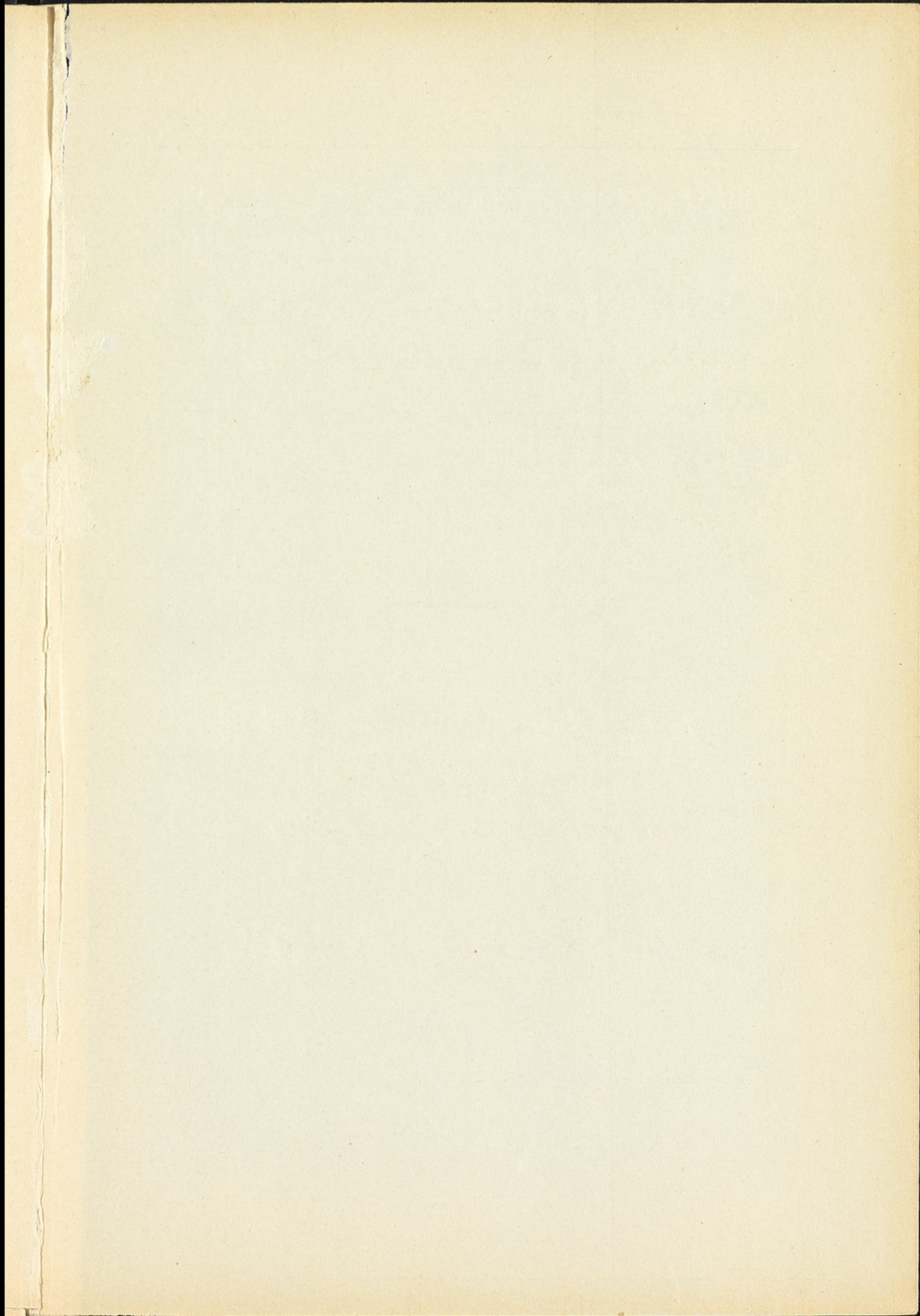
القرايح وأصبح الاسلام مقصراً عن اصل وضعه كما جرى قبلاً بالمذهب
المسيحي وقبله بالموسوي

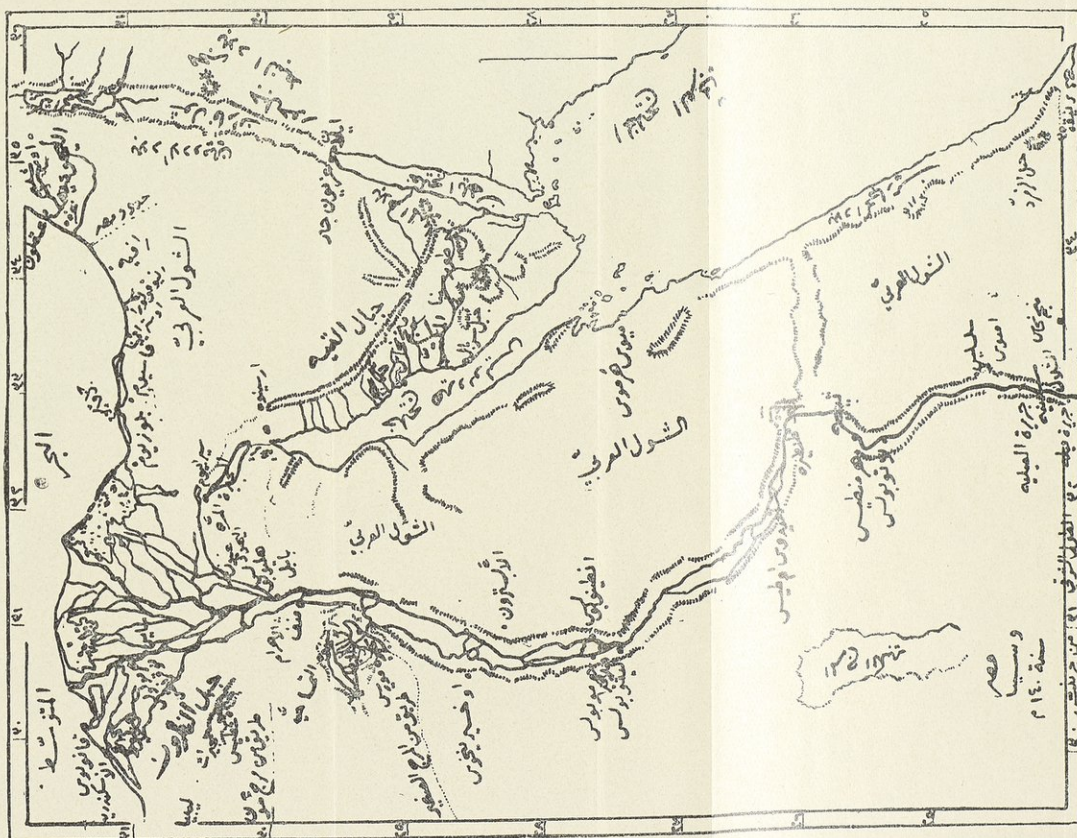
(١٢) والحالة هذه فان النهضة العربية الجديدة لا تقوم الآن ما لم
يكتنفها رجال صادقون يديرون مصالحها بالحكمة والعدالة والاقتصاد
مستندين على شعب طائع رزين يسهل لهم الاهتمام بترقية الآداب
وطرائق العمران واكتساب ثقة العالم المتزعزعة من سوء سياسته
السالفة



تم هذا الكتاب بعون الملك الوهاب في سابع عشرة
ليلة خلت من يونيو سنة ١٩٢٠ م
والثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٣٨ هـ

﴿ وتم طبعه في أول شهر مايو سنة ١٩٢٤ م ﴾





فهرست الكتاب

الفصل الاول

صفحة ٥ الى ٣٤

وصية ملك مصر اليوناني والد قلاو فطرا

قلاو فطرا

موت پومي بالاسكندرية غيلة

وصول قيصر للاسكندرية

احتراق المكتبة

قيصرون بن قيصر من قلاو فطرا

موت قيصر في روما غيلة

مارق انطوني في طرسوس واستقباله فيها قلاو فطرا

عشقه لها

هديته لها مكتبة من برغاموس

انتصار اوقتاويانوس عليه

موت انطوني وقلاو فطرا

شجرة عائلة البطالسة

الفصل الثاني

صفحة ٣٥ الى ٦٧

اوقتاويانوس الملقب اوغسطوس ، اي الجليل المعظم
 مصر ولاية رومانية
 هيرود المسمى ايضاً هيرود اغريباً الثاني ملك فلسطين
 عظمة تجارة الاسكندرية
 حاكم مصر يغزو العرب بالجزيرة
 روما تدين بدين مصر
 يهود مصر زهاء الف الف
 رهبان اليهود
 اغريباً عائداً من روما يمرّ بالاسكندرية
 فيلو اليهودي الافلاطوني
 اكتشاف طريق الهند بحراً
 تجارة القرطاس
 الكيمياء المصرية
 خمر البلاد والغريب عنه
 فينيكس الطائر الخرافي
 ابتداء التبشير بالمسيحية في الاسكندرية
 عصيان اليهود في فلسطين والحرب ضدهم

الفصل الثالث

صفحة ٦٨ الى ٧٨

وسبازيان امبراطور قاهر اليهود
ابولونيوس الكاهن المشعوذ
خراب هيكل اورشليم واذلال اليهود
دوميتيان يدين بدين المصريين ويشيد معابدهم في روما
الشاعر الروماني يوينال يسخر من عبادة المصريين للبهائم
حقيقة اعتقاد كهنة مصر

الفصل الرابع

صفحة ٧٩ الى ٩٩

اعتبار اطباء مصر عند الرومان
تخزين خراج مصر في روما بأمر تراجان
تجارة الاسكندرية
تنصر كثيرين من اليهود
صنم ثيبه النغمي
كتاب هدر يان عن أخلاق المصريين
المسيحية المصرية
شيوع التنجيم في مصر
الاسكندرية ما برحت قطباً لعلوم الدنيا وتجارها
دلائل انتشار المسيحية

الفصل الخامس

صفحة ١٠٠ الى ١١٣

ظهور ضعف بيتين جمهور المصريين
ابتداء الانقسام بين المسيحيين القبط والاعريق
اضطهاد المسيحيين
فقر مصر

انتقام قراقلا من اعريق الاسكندرية
الافلاطونية الجديدة

اوريجين المسيحي
تسطي الفرس على املاك الرومان الشرقية

الفصل السادس

صفحة ١١٤ الى ١٢٢

اوديناطوس ملك تدمر شريكاً لغيليانوس
تحسين حالة المسيحيين

كتاب الوحي
زينوبيا ملكة تدمر
فرموس من سلفكيه ملكاً في مصر

استقلال السودان
اضطهاد المسيحيين الشنيع

اريوس
شيوع عبادة مترا والمانوية

الفصل السابع

صفحة ١٣٣ الى ١٥٨

قسطنطين واعتناقه الدين المسيحي
الانقسامات الكنائسية

مجمع نيقيا

اسم النصراني

بناء القسطنطينية وانتقال كرسي الملك اليها

خمول روما

خمول الاسكندرية

نزاع كنائسي

الاتقلاب السياسي الناتج من انتشار المسيحية

امتداد الرهبنة

عجائب النسك

روما تابعة مصر بالاراء الدينية

الاحتفال بالقرن الحادي عشر من بناء روما

تأثير أبراج الفلك بأعرجة الخلق

هيجان الوثنيين ضد المسيحيين

موت البطريرك اثناسيوس مؤسس السلطة الكنائسية

رهبان مصر

سباق الخيل في غزة

خروج حجر من يد الرومان

صفحة ١٥٩ الى ١٧٨

الفصل الثامن

الضربة القاضية على الوثنية

خراب معابدها

اتهاب المكتبة

تقاليد وثنية عند المسيحيين

نزاع ديني مسيحي

سوء حالة مصر الاقتصادية

هبائيا العامة الوثنية وموتها الشنيع على يد المسيحيين

غريغوريوس الأول بابا روما مبشر الانكليز بالمسيحية

نسطوريوس

رهبان الافرنج في مصر

تقدم صناعة عمل الورق

شبان الارمن في مدارس الاسكندرية

أوروبا تهول الى الخراب

صفحة ١٧٩ الى ١٨٧

الفصل التاسع

نزاع ديني بين المسيحيين

مجمع خلقيدونيا

النوب

نزاع ديني مسيحي

تواتر النزاع

الفرس تحت أسوار الاسكندرية

مجاعة ووباء فيها

إحسانات اليهودي المنتصر أريب

صفحة ١٨٨ الى آخر الكتاب

الفصل العاشر

عرب حمير

نزاع ديني مسيحي

الروم الملكيين

الحبشة

جزائر بريطانيا وتجارة مراكب المصريين معها

موريقي وكسرى

أغوسطين الراهب المبعوث من البابا غريغوريوس لبريطانيا

ظهور الهلال المحمدي بمكة

كسرى ينتقم من قاتلي موريقي

احتلال مصر من الفرس

قطع خراج مصر عن القسطنطينية

اجلاء الفرس عن مصر

الهجرة النبوية

الخلافة

احتلال مصر من العرب

أمير المؤمنين عمر يأمر باحراق كتب مكتبة الاسكندرية

سكان مصر حينئذ

مصر ولاية عثمانية

مصر حكومة خديوية

حفرة ترعة السويس

احتلال مصر من الانكليز

الحرب العظمى

استقاط الخديوي عباس

تحرير مصر من سيطرة الاستانة

حسين سلطان مصر

فؤاد ملك مصر

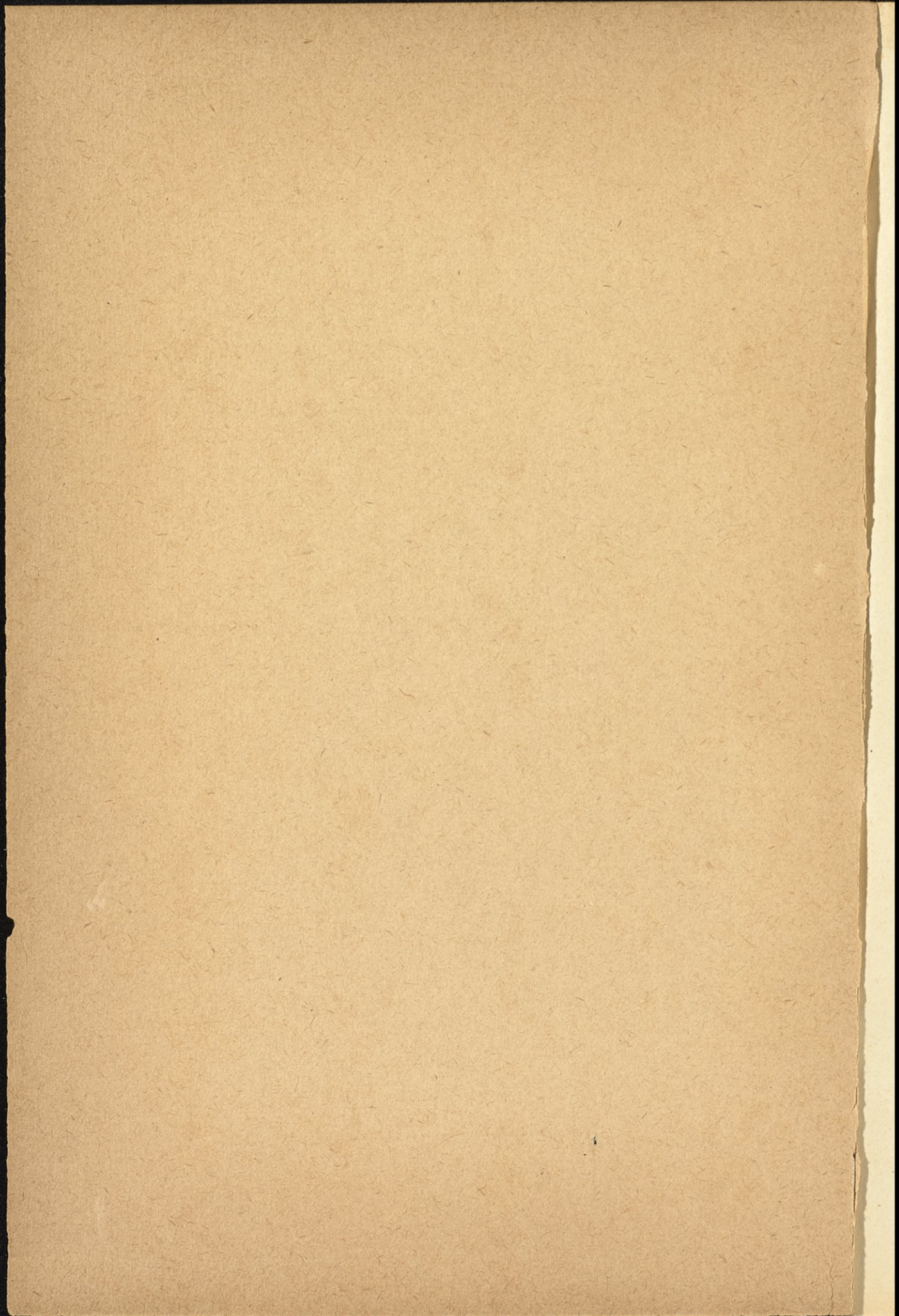
مصر مملكة دستورية

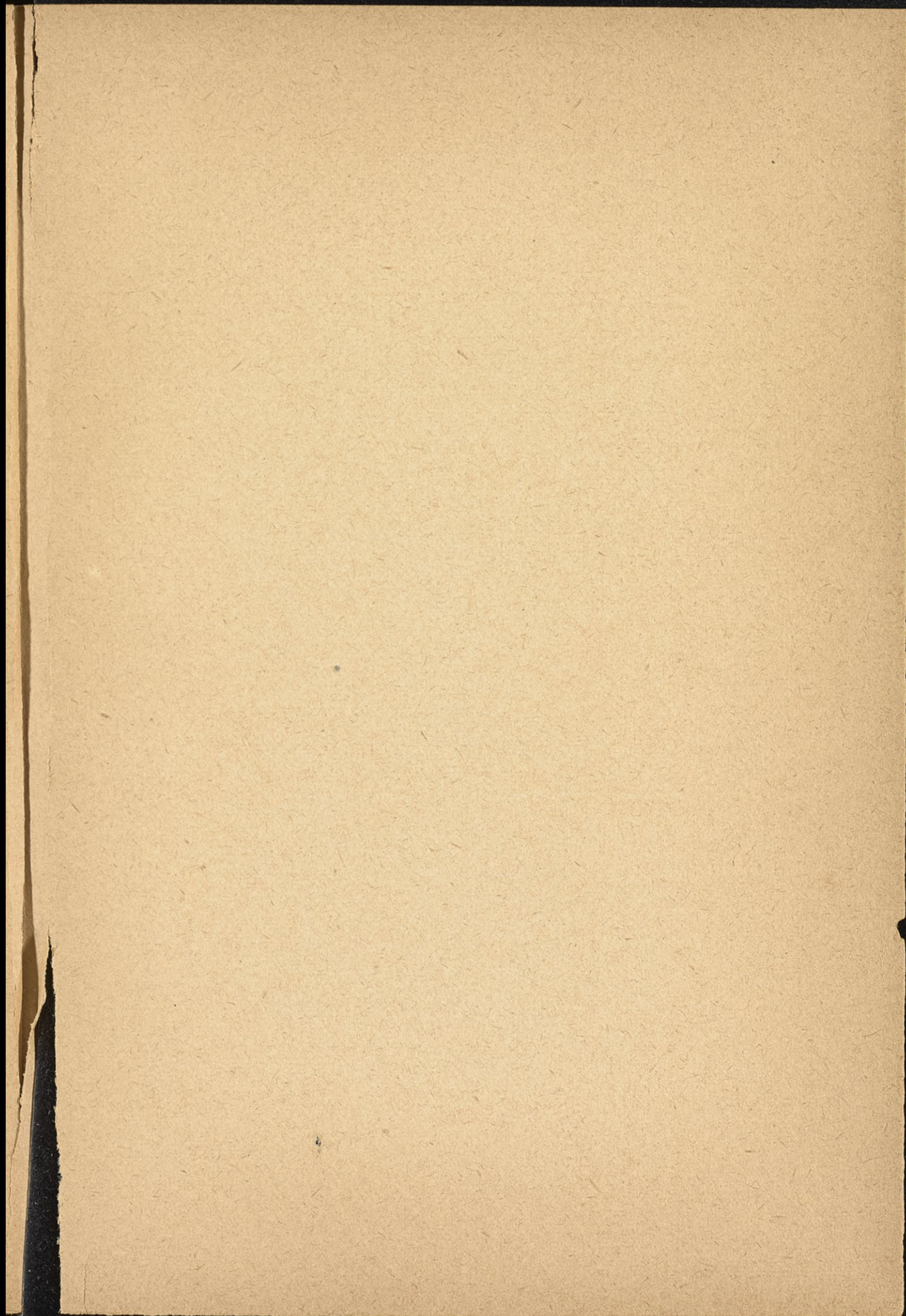
الاسلام والتهذيب العربي

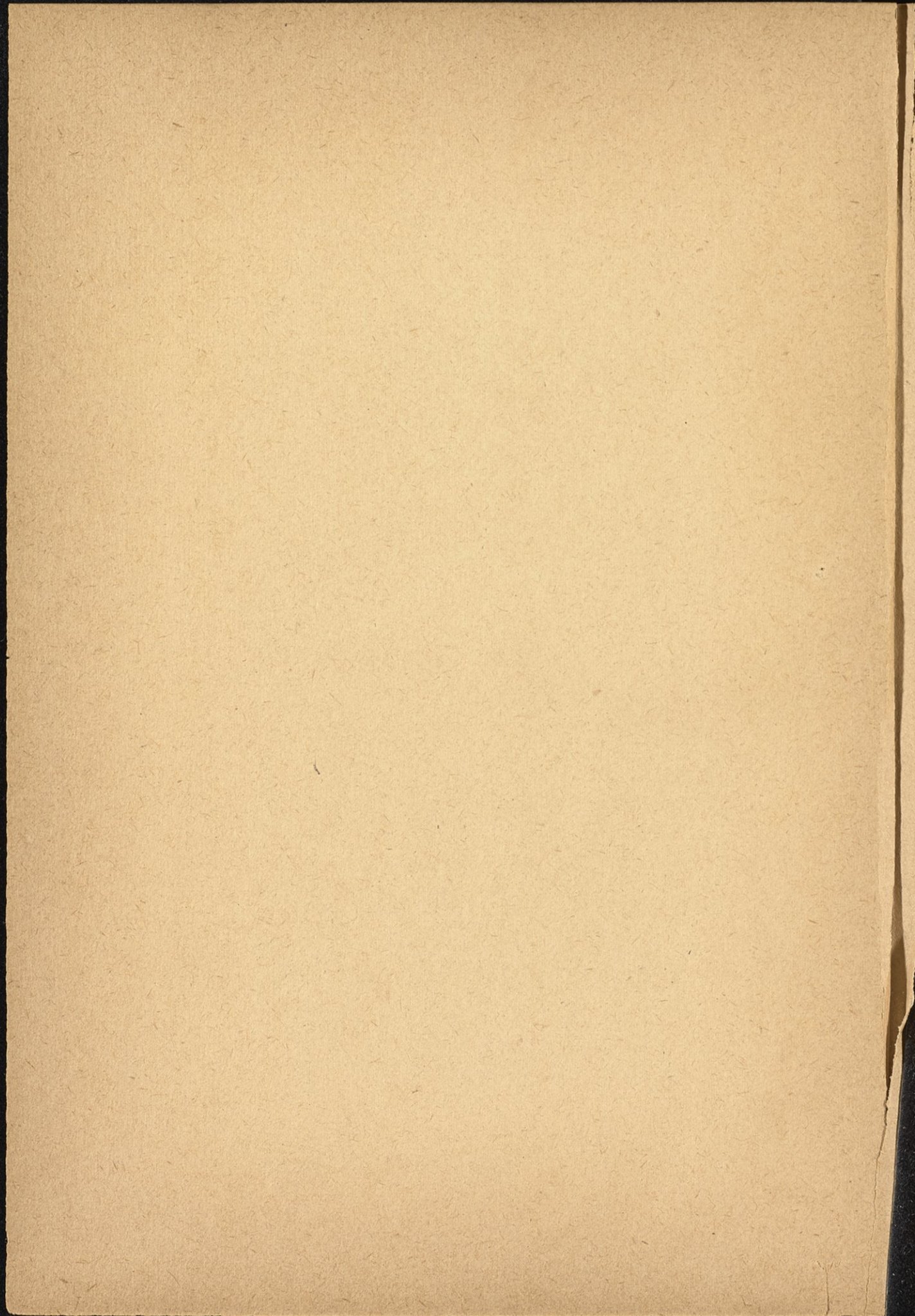
اصلاح خطأ

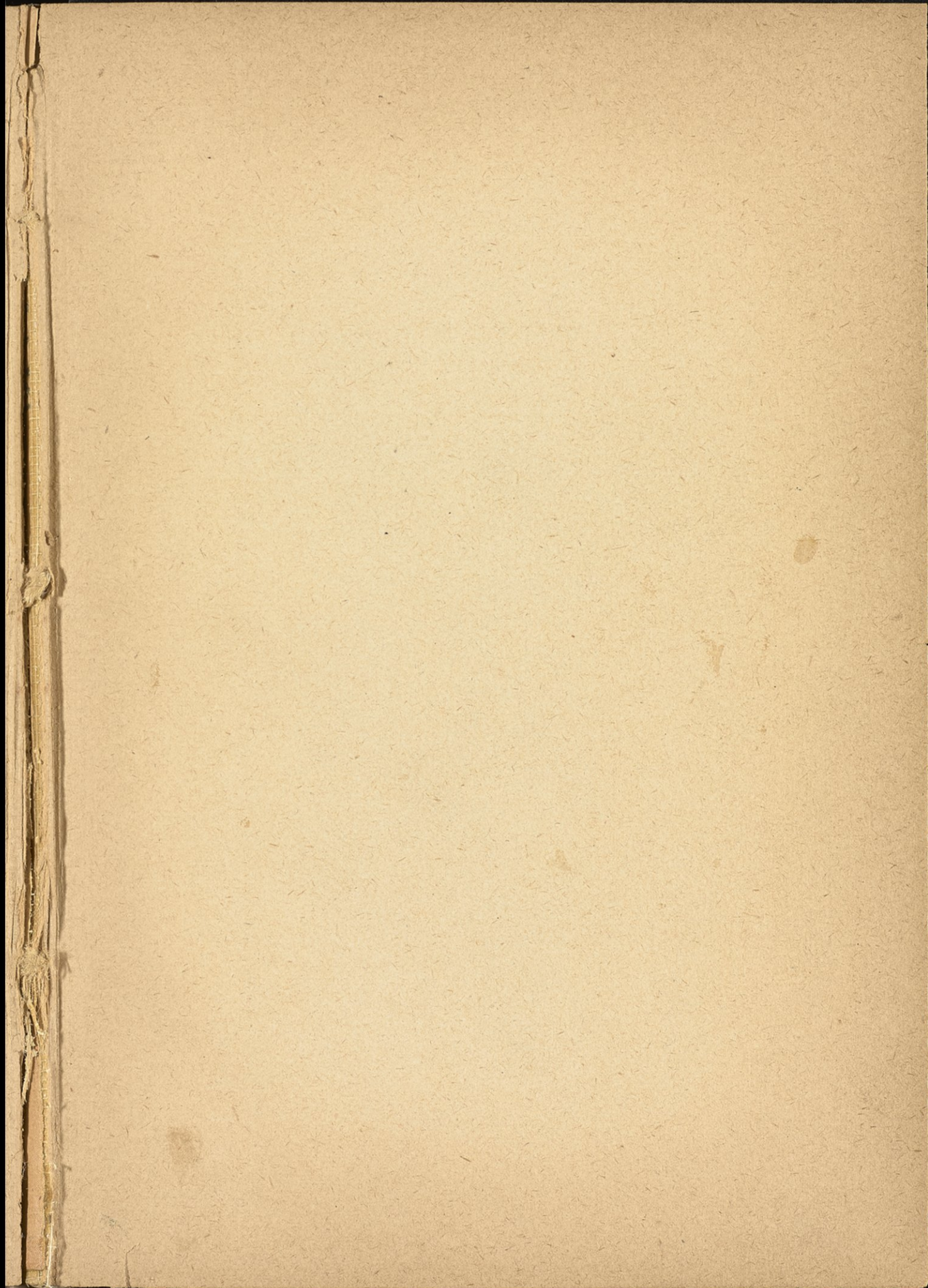
صفحة	بند	سطر	خطأ	صواب
٥		حاشية	العيلات	العلاآت
٢٣	٣٧	٩	مجرهرة	مجوهره
٣٠	٥٣	١	اقتصاد	اقتصاداً
٣٢	٥٩	٢	كتابتهم	كتابتها
٣٦		٢	لولاية	بولاية
٤٠		حاشية	خمسة عشر	خمسة عشرة
٤٤	١٩	١	يتحرش	يتعرض
٤٩		٤	يصلون	يصلون
٥١	٣٣	١	تحرش	تعرض
٦٨	١	٤	اكتساب به	اكتسابه
»	٢	٩	سنين	السنين
٦٩		١	أيُّ	أيَّ
١٠٣	١٠	٢	فصارت من	فصارت تكتب من
١٣٨	١٢	٤	مسجد	معبد
١٤١	١٩	٣	للار يوسيين	بالار يوسيين

صفحة	بند	سطر	خطأ	صواب
١٤٧	١٩	٣	يتحرش	يتعرض
١٤٩	٤٢	١	يتحرش	يتعرض
»	٤٣	٢	لغن	لفن
١٦٥		٢	يجترء	يجتريء
»	١٦	٣	يستشفون	يستشفوا
١٦٩	٢٥	١٠	٥١٤	٤١٥
»	٢٦	٢	فيها	فيه
١٧١	٢٩	٦	الى الصحرا	بالصحرا
١٨١		٢	بأنهم لا	بالأ
١٨٦	٢٠	٥	عن	من
١٩٥	١٦	٣	باحتمكار	حيفاستوس
»	»	٤	حيفاستوس	باحتمكار
١٩٦	١٩	٦	لهم	بهم
٢٠١	٣٢	٦	بالمسبح	بالمسيح
٢٠٤	٤٠	٤	بأمره	يأمره
٢٠٥	٤٢	٣	مرسح	مرسحا
٢٠٦	٤٦	٣	فار	فاروس









COLUMBIA UNIVERSITY

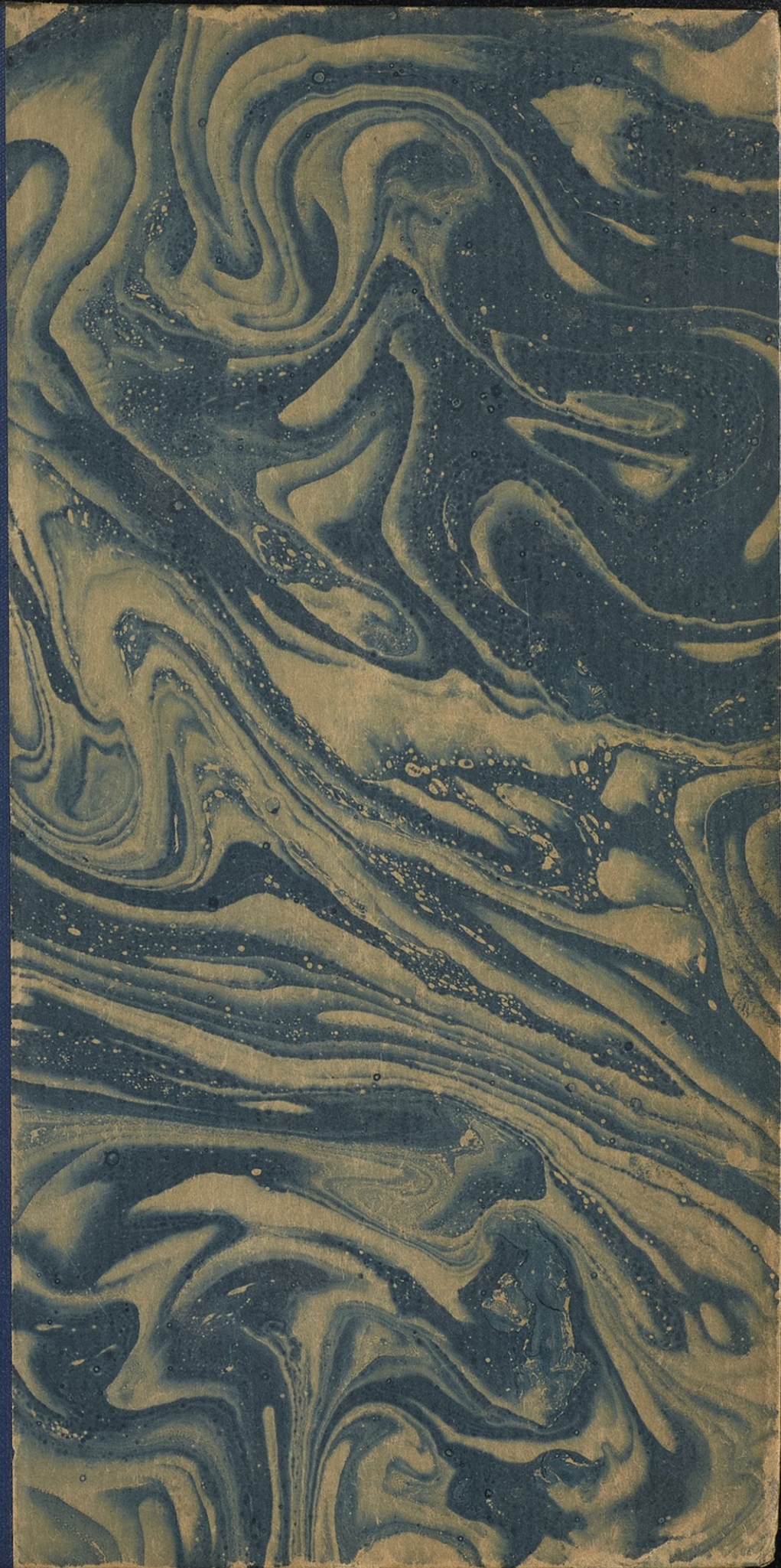


0026811995

Columbia University
in the City of New York
LIBRARY



Bought from the
Alexander I. Cotheal Fund
for the
Increase of the Library
1896



26

LE
N